

الجزء الأول

تاریخ

حیات

بابکربدري



التاريخ يكتب الحوادث من العاديه للفكاهه
وغیر العاديه من الحقائق للاقتدار بها حسنا وقيتها
بابکربدري

Un
I
M
N
O

Un
I
M
N
O

اصدق النباخ
ماکتب فی زمره
وصدق فی کلماته
وصدق معاصروه
فی ساری

بابکر جردی

تاریخ حیات

باب کربدري

التاریخ یکتب الحوادث من العادیه للفکاهه
وغیر العادیه من الحقائق للاقتداء بها حسنا وبتحفا
باب کربدري

الجزء الأول

من سنة ١٢٧٩ الى سنة ١٣١٦

الجزء الأول

من سنة ١٢٧٩ الى سنة ١٣١٦

الاهراء

الى تينك الروحين الطاهرين العظيمين من ورثا روح الامام المهدي عليه السلام بالوراثة أو الدراسة .

الى من صدقا ما عاهد الله عليه حتى اتاهما اليقين وهما في جهادهما سائرين اليهما نهدي هذا السفر الذي قدمه أحدهما مرشدا للأجيال الحاضرة والآتية في صدق الجهاد وقوة العزيمة الى رُوحى والدى :

((الامام عبد الرحمن المهدي والشيخ بابكر بدرى))

أقدمه زلفى وقربى ومحبة ..

يوسف بدرى

أمدرمان ١٩٥٩/٩/٥

مقدمة الكتاب

بقلم الأستاذ الكبير

شيخ أدباء الجيل

الدكتور محمد فريد أبو حديد

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب الذى بين أيدينا مظهر من التجديد الذى امتاز به صاحبه المغفور له الشيخ بابكر بدرى ، فقد كان رائداً مجدداً فى كثير من السنن الحميدة فى حياته الطويلة الخصبة . فقد عرفنا الكثيرين ممن شاركوا فى غمار الحياة العامة ، وتطلعنا وتساءلنا لعلنا نلمح ما كان يخلج فى صدورهم من المشاعر وما كان يدور فى عقولهم من الآراء ولكننا كنا فى أكثر الأحوال نرجع من تطلعنا وتساؤلنا بصور غير واضحة ونضطر الى جمع أخبارهم من هنا ومن هنا بغية الاهتداء الى الحقائق التى كانت تنطوى فى حياتهم الزاهرة . ولكن الشيخ رحمة الله عليه يوفر علينا كثيراً من المشقة وكثيراً من التساؤل ويجنبنا كثيراً من مواطن الخطأ فى التفسير والتأويل لأنه خلف لنا صورة واضحة من تاريخ حياته فى هذه المذكرات التى يختويها هذا الكتاب ، وهى صورة تشتمل على شخصه كما تشتمل على وصف صادق لكل ما كان يحيط به . فهذا الكتاب وإن كان سيرة لحياة الرجل يحتوى على تاريخ عصر كامل وهو عصر من أخطر ما مر على السودان وعلى الأمة العربية جمعاء .

وقد عرفت الشيخ المغفور له بابكر بدرى منذ وطئت قدمى أرض السودان لأول مرة فى عام ١٩٤٠ ، وكنت سمعت به من بعيد قبل وفودى على القطر الشقيق ، وما كان لى الا أن أسمع برجل وقف حياته على التعليم وجعله هواية حياته ، مدفوعاً بإيمان صادق جعله لا يتردد أمام عقبة من العقبات سواء أكانت من جانب سلطان الحكم الأجنبى الذى كان يتحكم فى السودان ويخشى عاقبة التوسع فى التعليم فى زلزلة سيطرته أم كانت من جانب الشعب نفسه لما كان يتقيد به من التقاليد البالية التى عاقت تقدم العالم العربى كله فى القرن الماضى .

كان الشيخ الوقور من أول من سعيت الى لقاءهم ، وكان لالتقائى به أثر من أعجب ما وقع لى فى حياتى . ذهبت اليه وأنا أسأل نفسى عما سمعته عنه

— وكنت سمعت عنه أشتاتاً متناقضة من الأخبار — وخرجت من عنده وأنا أحسب أنى خارج من لدى صديق عزيز قديم . رأيت له لأول وهلة رجلاً ضئيل الجسم له لحية وخطها الشيب ، ويدل ظاهره على أنه قد بلغ العقد السادس من عمره ، وهو فى الحقيقة كما علمت فيما بعد قد بلغ السادسة والسبعين . واسترعى انتباهى منه بصفة خاصة وجهه بشوش تبدو فيه بساطة الشباب وعينان تتألقان بنور ينم عن اخلاص وحيوية دافقة . وجرى بيننا الحديث كأن كلا منا يعرف الأسرار الكامنة فى صدر صاحبه . فمنذ تلك المقابلة الأولى استمرت الصداقة بيننا وان بعدت شقة المسافة بين موطينا وقد وقع فى روعى بعد تكرار المقابلة ان ذلك الشيخ الوقور البشوش يطوى فى حياته صفحة السودان الحديث كلها ، وتمنيت فيما بينى وبين نفسى لو استطاع أن يسطر تلك الصفحة فى كتاب .

لهذا كنت سعيداً عند زيارتى الثانية للسودان فى عام ١٩٥٥ ، اذ عرفت أن الشيخ قد سطر ذلك الكتاب .

وأول ما يطالعنا فى هذا الكتاب صورة صادقة للشيخ نفسه منذ طفولته ، ومنها تتبين شخصية صاحبها — شخصية صريحة بسيطة ، عميقة التفكير ليس فيها أثر من الالتواء أو الادعاء ، وأول حياته جدير بأن تجمله فى بضع فقرات ، فان النواة هى أصل النخلة السامقة .

ولد الطفل بابكر ولد بدرى حوالى عام ١٨٦٤ للميلاد لوالدين « فقيرين فى المال ، غنيين أعظم الغنى فى الخلق » وكان مسقط رأسه على نهر (أتبره) فى شمال السودان . وأحاطت الشدائد بالطفل منذ مولده ، اذ غاب والده عن الأسرة وتركت الأم وحدها تواجه مجاعة شديدة وقعت عند ذلك . فكان سعيد أخوه من أمه يجلب الصمغ فى ثوبه لتخلطه الوالدة بدقيق الذرة والطفل بابكر يأخذ ما يعلق بثوب أخيه من ذلك الصمغ فيعلكه علماً . ولما بلغ سن الرابعة انتقلت الأسرة الى موطن عم الطفل فى رفاعه (على النيل الأزرق) فاستقرت الأسرة هناك حتى بلغ بابكر مبلغ الرجال وتزوج من أهلها .

وكان حكم السودان فى ذلك الوقت يدعو الى الحق والأسف معاً ، والشيخ يذكر فى سيرة حياته بعض حوادث يوردها عرضاً فى ثنايا حديثه وهى تدل دلالة واضحة على أحوال ذلك الحكم الذى كان يجمع بين الضعف

والعسف ، ومن ذلك ما ذكره بمناسبة غياب والده عن الأسرة . فقد ذهب الوالد مع سبعة من أبناء قبيلته (الرباطاب) بقصد اكتساب الرزق في الخرطوم . وهناك قبض عليهم أحد النظار السودانيين الذين كانوا في خدمة الحكومة وأودعوا السجن بسبب مضحك مبك في وقت واحد .

كان بعض أفراد قبيلة الرباطاب قد اقترفوا جريمة احراق غابة مملوكة للحكومة ، فلما عرف الناظر أن هؤلاء السبعة من قبيلة الرباطاب كذلك ، قبض عليهم بغير أن يكلف نفسه مشقة التحقيق في أمرهم . واستمروا في السجن شهرا وكان المدير السوداني لا يحرك ساكنا فيما يتصل بأمرهم ، فلم يخرجهم الا وكيل المدير الذي فطن بالمصادفة الى أن هؤلاء السبعة قد يكونون غير الآخرين الذين أحرقوا الغابة ، فبدأ يتحقق من أمرهم حتى تبين له أنهم أبرياء فأطلق سراحهم . ومن العجيب أنهم بعد الخروج من السجن لم يأمّنوا على أنفسهم من العودة اليه الا لسبب عجيب أيضا . فقد سخر الله لهم أحد مشايخ البلد في الخرطوم وكان من قبيلة الرباطاب ، فاحتال في أمرهم بأن أوهم الحكومة ان هؤلاء السبعة قد توفوا الى رحمة الله واحدا بعد آخر ، وذلك بأنه كان كلما مات رجل في شياخته بعث الى الحكومة بأنه واحد من السبعة الذين سبق لهم أن سجنوا ، حتى أفناهم جميعا على الورق وأصبحوا في مأمن من عودة الحكومة الى تعقب آثارهم .

ونستطيع أن نكون صورة صادقة لتلك الحكومة مما ورد في ثنايا سيرة الشيخ من النوادر ، وهي صورة كافية لتبرير حنق الشعب عليها ولتبرير أي ثورة تثور على فساد حكمها .

وقد نال الشيخ حظا طيبا من التعليم المعتاد في زمانه فبدأ بدخول الخلوة - أي المكتب أو الكتاب - منذ بلغ سن السادسة ولكنه لم يبدأ دراسة جدية الا على يدي أحد مشايخه الذين كان لهم أثر عظيم في نفسه وهو الفقيه (الكراس) ، الذي استمر يتلقى التعليم على يديه الى أن مات وكان بابكر قد بلغ السادسة عشرة . وتتلذذ بعد ذلك على فقيه آخر من أقربائه وهو الشيخ الأزريق وكان يتلقى دروسه عليه في (مدني) .

وكان بابكر في شبابه يمتاز بحساسية مرهفة تجتمع الى نفس ثوارة ، وكانت هذه الحساسية لا تجد متنفسا تنطلق ثورتها فيه ، فكان يلجأ الى

التنفيس عن ثورته بطرق أخرى يصفها لنا في صراحة .

حدث مرة أن دخل أحد الضباط الأتراك على شيخه ليؤاخذه على أمر من الأمور وانتهت المؤاخذه بأن عاقبه بالجلد أمام تلاميذه • وكان بابكر حاضرا عند ذلك فيقول في صراحة : « فتجاذبت كذبا ورميت بنفسى على الأرض شاخص البصر عادم الحركة فحملوني من الخلوة للمنزل وأنا أعرف كل من حولي من الجالسين ولكنى أتصنع الجذب » • ويذكر لنا بعد هذا أنه جعل يقول في حالة جذبه المتصنع بعض أقوال ينفس بها عن غيظه فتنبأ بأن ذلك الضابط سوف يقتل • ومن عجيب الاتفاق انه قتل حقا في أثناء ثورة حدثت بعد عام واحد من تلك الحادثة •

ولم يتردد الشيخ في حديثه عن نفسه أن يورد بعض أمور كان غيره يؤثر أن يتجنب ذكرها • فهو أحيانا يذكر بعض أخطاء ارتكبها ويذكر بعض مواقف تهور فيها وجانب الاعتدال ، كما انه يورد ذكر أحلام شتى كانت تعتاده بين حين وآخر ، وهى بغير شك مجالات وهمية كان يجد فيها متسعا للقيام بأدوار لم يتهيا لها القيام بها في عالم الحقيقة • فهو لا يخفى شيئا وان كان مما يتخرج الناس من ذكره وليس أدل من ذلك على صدقه وتحريره الحقيقة في كل ما أثبتته في سيرته •

ومما يظهر واضحا في ثنايا هذه السيرة انه كان من أشد الناس تحمسا للثورة كان يضرر الثورة منذ صباه وشبابه ، حتى قبل أن يقوم المهدي بثورته فما كاد المهدي يعلن الثورة حتى بادر بابكر بمبايعته ، فلنخرج قليلا على هذه الثورة ، فهى من أكبر الحوادث وأعظمها دلالة ، وكانت مثار كثير من الأقوال واختلفت فيها الآراء ، وانه لمن الانصاف لأنفسنا أن نتعرف حقيقتها وأن نلمح الدافع الذى حدا بالشاب بابكر أن يسارع الى الانضمام الى صفوف المجاهدين فيها •

وقد مضى الآن وقت طويل على حركة المهدي وفى استطاعتنا أن ننظر اليها من بعيد ونحن فى مأمن من تدخل المؤثرات التى تضلل أحكامنا • فما هى حقيقتها وما هى العوامل الدافعة اليها ؟ وما هى الأغراض التى كانت تقصد الى بلوغها ؟

فلنعد بالذاكرة الى القرن الثامن عشر لنستعيد ما حدث فيه عندما بلغت

موجة الضعف الى حضيضها في الأمة العربية • كان حكام هذه الأمة يلهون في حياتهم الرخيصة ولا يباليون شيئا سوى سلطانهم وكبريائهم الجوفاء ويسخرون الأمة في اقامة حكمهم الذي نخره الجهل والغفلة • كانوا يعسفون بالشعوب العربية ويهدرون كرامتها حتى تدهورت أحوالها من كل ناحية - في الحياة الاقتصادية والحياة الثقافية والاجتماعية وفي موقفها السياسي بين شعوب العالم ، وحاولت الشعوب مرة بعد مرة أن تتخلص من ربقة هؤلاء الضعفاء الذين لا يقوون الا على الطغيان ، ولكن حركاتها كانت تنتهي الى الفشل لأن الطغاة على ضعفهم كانوا أقوىاء على اخماد حركات الشعوب العزلاء • واتجهت أنظار دول الاستعمار في أوربا الى العالم العربي في أواخر القرن الثامن عشر بعد أن انصرفت عنه طوال القرون الثلاثة الماضية ، عندما كانت مشغولة باستعمار بلاد آسيا وأفريقيا ، لأنها فطنت آخر الأمر أن أقدامها لا يمكن أن تستقر في تلك المستعمرات الا اذا أمنت الطريق اليها ، وكان ذلك الطريق هو الوطن العربي الممتد من خليج البصرة الى المحيط الاطلنطي •

فما كاد الاستعمار يلمس حكم الطغاة المتحكمين في الأمة العربية حتى انهار ذلك الحكم ووقعت الشعوب العربية في قبضة الاستعمار قطعة بعد قطعة •

وكانت سطوة الطغاة على أمة العرب ثم انهيار حكمهم أمام صدمة الاستعمار بمثابة هزة قاسية ارتجت لها النفوس واثارت لها العواطف ، فتحركت عوامل الثورة في الصدور جميعا •

وكان تاريخ القرن التاسع عشر يمثل محاولات الأمة العربية في كل أوطان العروبة أن تنهض من عثرتها ، وأن تحاول أخذ أمورها بيديها بعد أن اتضح لها أن الطغاة الذين يتحكمون فيها لم يدافعوا عنها بل حرصوا على المحافظة على أنفسهم ومصالحهم وباعوا شعوبهم وباعوا ضمائرهم وصاروا عبيدا للاستعمار. فنشأت حركات فكرية نفسية في كل قطر عربي ، تقصد الى تنبيه وعي الأمة واعادة الثقة اليها وجمع صفوفها للجهاد من أجل حريتها ، والخلاص من حكامها الأذلاء ومن سادتهم المستعمرين •

واتخذت هذه الحركات صورا شتى وهي جميعا تنبع من منبع واحد وتقصد الى غاية واحدة • كانت تدعو الأمة العربية لاصلاح شئونها وتنحو

عليها باللائمة لانحرافها عن جادة الحياة الفاضلة وتحملها مسؤولية الذل الذي صارت اليه منذ تركت شئونها نهبا للانانيين وعقولها نهبا للجهالة : وكانت خلاصة الدعوات الجديدة ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وكانت هذه الدعوات جميعا لا تعترف بالحدود التي تقام بين أوطان الأمة العربية بل كانت كل دعوة منها توجه الى الأمة العربية في أوطانها جميعا .

هكذا فعلت الوهابية في بلاد العرب وهكذا فعلت السنوسية في شمال افريقيا وحركة جمال الدين الأفغانى بمصر والمهدى في السودان . فلم تكن حركة المهدي سوى واحدة من هذه الدعوات التي كانت تهب بالعرب أن ينفضوا عنهم غبار الهوان والتهوان ويهبوا لاسترداد حرياتهم ويستعيدوا حياتهم المجيدة التي كان يحياها أجدادهم .

وكان من الطبيعي أن يخشى الطغاة تلك الحركات ويحاولوا بكل الوسائل أن يخمدها ، وكان من الطبيعي أيضا أن تدفعهم أنانيتهم الى التعاون مع الاستعمار في كثير من الأحوال للقضاء عليها في سبيل الابقاء على سيطرتهم المزيفة . فتجرد الطغاة لآخمد حركة الوهابية في جزيرة العرب كما قاوموا السنوسية في شمال افريقيا . وكان جمال الدين هدفا لسخطهم في كل مكان يستقر فيه . فلم يكن من العجيب أن ينزعج الطغاة لحركة المهدي في السودان ويعملوا بكل ما استطاعوا على اخمادها بالقوة . وقد كان شعب مصر في الوقت عينه يتحرك لاسترداد حريته بقيادة عرابى فأدى ذلك الى ما أدى اليه من ارتقاء الطاغية الذي كان يحكم مصر في أحضان الاستعمار كى يبقى على حكمه الدليل .

أليس من أعجب العجائب مع هذا أن توصم حركة المهدي بأنها لم تكن سوى حركة عداا ضد شعب مصر ؟

انها لم تكن سوى احدى الثورات الشعبية العربية التي كانت الأمة العربية في كل موطن تنتفض فيها بغية استرداد حريتها . والتخلص من حكم طغاتها . لم يعد خافيا على أحد في أيامنا الحاضرة ان ثورة المهدي كانت موجهة ضد طغيان الحكم العثماني ومثله في مصر ، فهي موازية لثورة عرابى ضد هذا الحكم نفسه . وكان المهدي مثل السنوسى يأمل أن يعود بعد نجاح ثورته فيتجه الى الاستعمار الذى أصبح محيطا بالسودان من كل جهة ، بل صار يمد

مخالبه في قلب السودان نفسه في أشخاص مثل أمين باشا (شفيرز النمسوى)
حاكم اقليم خط الاستواء وغوردون الحاكم العام في الخرطوم .
فواعجبا للاستعمار اذ يتدسس الى حكم مصر فيحتلها في سنة ١٨٨٢ ،
ثم يقوم بالدعاية العريضة لظهار المهدي في صورة الثائر على مصر وصورة
المعادي لشعب مصر ! وأعجب من ذلك ان تلك الدعاية وجدت قبولا عند
طوائف شتى أخذت تردد صيحة الاستعمار - بعضها سىء النية وبعضها حسن
النية ولكنه واهم مغتر . ويكفى في دحض هذه الفرية ما ثبت من براهين عدة
ومنها ما قاله الشيخ بدرى في كتابه من ان المهدي كان حريصا على أن يبقى
غوردون حيا عند فتح الخرطوم ، فانه كان يطمع أن يقبض عليه حيا لعله
يساوم به الانجليز الذين قبضوا على عرابي بعد نصرهم المختلس ونفوه الى
جزيرة سيلان . فلم تكن ثورة المهدي سوى ثورة شعب عربى سار وراء زعيم
دعوة من دعوات التجديد والتحرير وهى مثل سائر الدعوات تنجه الى الأمة
العربية كلها بغير نظر الى حدود الأوطان . واذا كانت ثورة المهدي قد تعثرت
في الظروف التى أحاطت بها فهى مثل ثورة عرابي فى تعثرها بالظروف التى
أحاطت بها ، واذا كان أبطالها وزعماءؤها قد ذهبوا ضحايا فى الجهاد وانزوى من
بقى منهم عن الحياة العامة ، فلا نستطيع أن ننسب اليهم تلك الدعاية التى
نشرها الاستعمار البريطانى فى السودان على نطاق واسع بعد أن مد مخالبه
الى الخرطوم بعد امتدادها الى القاهرة . لقد كان هم الاستعمار أن يلقى فى
روح شعب مصر ان شعب السودان يريد به الشر ويلقى فى روح شعب السودان
كذلك ان شعب مصر يريد به الشر . وهذا هو السر فى كل ما خيم على العلاقة
بين الشعبين من سحب قاتمة طوال مدة الاحتلال البريطانى .

فلنعد الى صاحب السيرة لنواصل الحديث عنه ، فانه كان منذ شبابه
الأول من أنصار ثورة المهدي . فذهب لمبايعته فى أول عهده كما سبق القول ،
وكان عند ذلك فى صحبة والدته التى كانت تؤمن ايمانا عميقا بالدعوة المهدية .
ولعل بابتكر الشاب كان متأثرا فى حماسه لهذه الدعوة بايمان والدته التى كانت
عظيمة الأثر فى توجيه حياته كلها . فهى التى احتضنته صغيرا وهى التى عنيت
بتربيته وكانت تختار جلة الفقهاء ليتلقى عليهم دروسه . وكانت تعنى بكل كبيرة
وصغيرة تتصل به ، بل لعله ورث منها حساسيتها المرهفة التى كانت تغذيها فى

كل مناسبة • وكان الفتى بابكر يفضي اليها بكل أسرارهِ ولو كانت مما يندى له الجبين خجلاً ، ويلوذ بها كلما اشتدت عليه وطأة الحياة • فهي التي حملته على أن يهاجر الى مدني عندما وجدت انه يلقي عنتا شديدا على يدي معلمه في رفاة وهي التي اختارت له فقيها فاضلا من أقاربها ليكون أستاذه فلم يكن عجيبا أن يندفع معها في حماسها للدعوة الجديدة بكل ما في قلبه من حرارة • وفي الكتاب نوارد شتى تدلنا على مبلغ حماسته للمهدية ، وكان يتعرض بعد التحاقه بصفوف المجاهدين للسفن الحربية بغير ستار رغبة في الشهادة ، حتى اضطر قائد فرقته أن يقيم عليه حراسا لمنعه من الخروج للاصطدام بالسفن الحربية اذا مرت قريبا من موقعه • وقد دفعته الحماسة الى التضحية بأموال الأسرة عندما ترك زراعتها وحمل أهله ذاهبا الى موطن القتال • وكان أبوه في صفوف المحاربين فسأله « كيف جئت ولمن تركت الزرع ؟ » فأجابه : « تركته لله والجهاد أفضل منه » وكان عند حصار الخرطوم في مقدمة المحاربين في أقرب النقط من المدينة بحيث كان يرى السجارة المشتعلة ويسمع كلام المحصورين ليلا •

ولما انتهت ثورة المهدي الى الفشل وقف من بقى من صفوف الثوار وجها لوجه أمام حكم الاستعمار — وكان في ظاهره حكما مشتركا بين الانجليز والمصريين ولكنه كان في الحقيقة حكما استعماريا محضا • فاذا كان الشيخ يوجه اللوم في مواقف كثيرة للحكام المصريين ويدعوهم بأنهم كانوا أشد وطأة من الانجليز أنفسهم ، واذا كان يقول ان الحكام الانجليز كانوا أقرب الى الرحمة من الحكام المصريين الذين كانوا أولى بالرحمة ، فما ذلك الا شبيها بما كان المصريون أنفسهم يقولونه في مصر لاعوان الاستعمار من أبناء مصر • وهل شيء أشد في التقريع من أن يوصف المصري بأنه أقسى حكما من الأجنبي المستعمر ؟ ولقد كانت هناك خطة مدبرة للايقاع بين المصري والسوداني • كان الحاكم الانجليزى يأمر تابعه المصري بالتشدد والقسوة في تنفيذ أوامر الحكومة ، فاذا ما صدع المصري بالأمر خاضعا عنيفا ، وتظلم السوداني من جبروته الى رئيسه الانجليزى ، عاد ذلك فألغى الأمر الذى يشتكى منه السوداني ثم عاد الى المصري فألقى عليه وزر العنف والتشدد • وكان يفعل كل هذا علنا حتى

تذيع أخباره بين الناس فتحملهم على كراهة أبناء مصر وسوء الظن بهم وبنواياهم
وانه لما يؤسف له ان مصر المحتلة لم تستطع أن تفعل شيئاً في مواجهة
هذه الخطة المدبرة • وقد آثر صاحب السيرة أن ينزوى بعد فشل الثورة في
زاوية بعيدة ، ولكنه اختار زاوية أقرب الى أن تكون كمينا يتحفز فيه لوثبة
جديدة ، فانه اختار التعليم ملجأً يعتصم فيه • وكان يؤمن بأن قومه قد خسروا
الجولة الأولى وان عليهم أن يستعدوا للجولة الثانية عن طريق اكتساب العلوم
والمعارف • كان يؤمن بأن التعليم هو المقدمة لكل نهضة ، ويؤمن بما آمن به
قاسم أمين من أن الأمة لا يمكن أن تسير على قدم واحدة بتعليم الرجال وحدهم.
وكان الشيخ شجاعاً في عقيدته فلم يتردد في افتتاح مدرسة لتعليم البنات على
رغم ما يعرفه من تمسك قومه بالتقاليد القديمة التي حالت بين المرأة والتعليم
طوال القرن التاسع عشر في كل أنحاء الأمة العربية • وقد كنت في مناقشاتي
معه ألمح ما كان يملأ قلبه من الآمال في مستقبل هذه الأمة وما كان يشرق عليه
من الاستبشار كلما لمح تقدماً في ركن من أركان الوطن العربي • لم يكن مترمماً
ولا متعصباً ضد شيء مادام يرى فيه مصلحة لقومه ، وكان قومه دائماً هم الأمة
العربية • وقد كان له ما أراد فرفع راية التعليم في مقدمة نهضة السودان
الحديث •

وبعد فانه من دواعي سعادتي أن تحققت لى أمنية كنت أخمرها في نفسي.
اذ كنت منذ عرفت الشيخ بابكر بدرى أرى فيه ممثلاً لعصر كامل ولحركة
ثورية كاملة مستمرة • وكنت أتمنى في نفسي لو استطاع هذا الرجل أن يكتب
تاريخ حياته بنفسه فتكون صورة واضحة لكل عصره ، فهو شيخ شهد مبدأ
الحركة واستمرارها على مدى عشرات من السنين ، وهو لذلك جدير بأن يجلى
للأجيال القادمة حقائق كثيرة كانت جديرة بأن تخفى عليهم • فلما زرت السودان
للمرة الثانية في عام ١٩٥٥ أطلعني نجله الوفي السيد يوسف بدرى على
مجموعة من المذكرات بخط يد والده ، وكانت نيته تتجه الى طبع تلك المذكرات.
فكان ذلك تحقيقاً لأمنية أخمرتها ولهذا كنت سعيداً أن أكتب هذه المقدمة
للكتاب ، مشاركة منى في الوفاء لصديقى الشيخ الوقور الكريم عليه رحمة الله

ومشاركة منى فى تجلية السحابة التى أثارها الاستعمار وأعوانه حول العلاقة
بين شعبى السوان ومصر وهما شعبان تشاركاً فى الحياة على الوادى المبارك
منذ ألوف السنين وتشاركاً فى الرضاع من نهرهما الخالد ، فهما شعبان أخوان
شقيقان رضيعا لبان تجمعهما العروبة والمصالح المشتركة وسيواجهان المستقبل
دائماً بعون الله وهما سائران جنباً الى جنب •
فرغ منها يوم ١٠ أغسطس سنة ١٩٥٩

محمد فريد أبو حديد



بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي

أصدق التاريخ ما كتب في زمانه وصدق فيه كاتبه وصدقه معاصروه - فيما روى

الميلاد

أخبرني والداي اني ولدت يوم الخميس غرة صفر الخير سنة ١٢٧٨ هـ ولقائل يقول كيف عرف والداي الأميان تاريخ ولادتي باليوم والشهر والعام فالجواب ان تاريخ اليوم والشهر كل امرأه في الغالب تعرفه بالحوادث الهامة في نظرها . وأما العام فان والدي جعل الأساس الذي جعله مبدأ هو زيارة الخديوى سعيد باشا للسودان وتاريخ هذه الزيارة أنه دخل الخرطوم يوم ٢٣ ربيع ثانى سنة ١٢٧٢ و ١٦/١/١٨٥٧ وكان بين هذه الزيارة وولادتي سبع سنوات تأيئت فيها والدتي خمس سنوات ووضعت أختي التي ولدت قبلى بسنتين - ولدت من والدين أميين في التعليم وفي الأرزاق حينما ولدانى ولكنهما غنيان في الأخلاق في حالتى بؤسهما ونعيمهما والحمد لله «مذكوراتى» مما وعيت مما أتذكر لبن رضاعى على انى مارضعت أكثر من سنتين أتذكر لبن الثدي يأتينى من فتحات صغيرة متعددة وهو رقيق وطعمه فيه حلاوة . ثم أتذكر المنزل الذى كنا به بنهر أتبرة وعمرى اذ ذاك لا يتجاوز ثلاث سنوات وأتذكر أنه فى آخر سنه ثلاث وثمانين تغيب والدى وحصلت لنا مجاعة وكانت المجاعة عامة ان سعيدا أخى من والدتى - يجلب لنا الصمغ فى ثوبه لتخلطه والدتى مع دقيق الذرة وكنت آخذ ما يبقى فى ثوبه مما يلتصق بفسى أكده كدا . ثم أتذكر أن عمى محمد على حمد السيد أخذنا لرفاعة وحينما دخلنا المدينة وكان يحملنى على كتفه فهرش فىنا كلاب فوضعنى على الأرض ليضرب الكلاب وعمرى لا يتجاوز الأربع سنوات وما زلنا برفاعة الى أن تزوجت بها .

اسمحوا لى أن أذكر هذه الحكاية وأن كانت خارجة عن تاريخى . سبق أن قلت أن والدى تغيب منا ونحن بأتبرة . كان فى غيبته هذه ضمن سبعة رجال ذهبوا للخرطوم وما بعده للتكسب كلهم رباطاب وأحدهم يدعى الماحى

وكان أن حصل اتفاقا أن سبعة من الرباطاب أحدهم يدعى الماحى أن حرقوا غابة الحكومة بالقراصة قبلى الخرطوم فنشرت الحكومة للنظار فى تلك الجهة أن يبحثوا عن هؤلاء الرباطاب ومن ضمن النظار ناظر السوق محمد عبدالقادر ولد أبى دبل المحسى فمر فى مروره سحرا فوجد والدى ومن معه بحلة الثمانيات نائمين فى أحد خلوات الضيوف فحسبوههم وهم نيام فنبهوا أحدهم فسألوه عن اسمه وكان صدفة هو الماحى فسألوه عن جنسه فأجابهم : نحن رباطاب • فقالوا هم هم والله فألقوا القبض عليهم وأرسلوهم للخرطوم باسم الذين حرقوا غابة القراصة فوضعوهم فى السجن مدة شهر كامل وتركوا البحث عن الجانين فعلا وكان المدير اذ ذاك أحمد بك أبو سن الشكرى وكان كل جمعه تعرض عليه المساجين طائفة طائفة بحسب جنایاتهم فيسأل عن جنایاتهم فيجيبه المأمور هؤلاء أهل تهمة كذا فيأمر بردهم للسجن فاذا وصل طائفة والدى ومن معه يقال له هؤلاء الرباطاب الذين حرقوا غابة القراصة فيردون للسجن حتى تغيب أحمد بك أبو سن فى مرور وعرضوهم على معنى بك السورى وكيل المديرية الذى كان يقول للمأمور عند كل طائفة أين ورقهم حتى وصل لوالدى ومن معه فسألوه عن ورقهم فقال لم يعمل لهم تحقيق فعجب من ذلك والتفت اليهم قائلا : حقيقة أنكم حرقتم غابة القراصة فقالوا له : ماهى القراصة ؟ - قال البلدة التى على بحر أبيض قبلى الخرطوم - قالوا : نحن ما وصلنا الخرطوم الا للسجن لأننا جئنا من الرباطاب فقال لهم : ما علامة أنكم جئتم من الرباطاب فقدم أحدهم « سركى الوصل » الذى دفع به الضريبة وهو بالرباطاب فوجد معنى بك أن تاريخ هذا الوصل بعد حادثة حرق الغابة - فقال لهم : هل تجدون أحدا يضمنكم ؟ حتى نتحقق من براءتكم فقال له المأمور نطلب الشيخ السعيد والد مولى بك شيخ الربع بمدينة الخرطوم لأنه رباطابى فاذا عرفهم وضمنهم قترك سراحهم فجاء الشيخ السعيد وسألهم فلما سأل والدى قال له أنا ولد حاج الصادق ولد الطيب - قال له انت ولد بدرى ؟ قال نعم • قال هل تعرف هؤلاء كلهم ؟ قال نعم • فوضع ضمانه عليهم وأخذهم لمنزله • وفى اليوم الثالث قال لهم اذهبوا حيث شئتم فذهب والدى لرفاعة ونحن بها وفى تلك السنة سافر لكر كوج ورجع غنيا فزار الشيخ السعيد بالخرطوم وأعطاه كما قال ثلاثين ريالاً - وقال له أن شاء الله ما تكون الحكومة أتعبتك كثيرا لغيابنا.

فقال السعيد أنت ياود بدرى من زمان مت قال وكيف ذلك قال له السعيد منذ سافرتك أنا صرت كلما مات رجل فى ربعى أعرضه على الحكومة بأنه أحدكم حتى آتممت السبعة رجال كلهم ماتوا وحجتى ضغط السجن وتغيير الهواء فشكره والدى متعجبا من جرأته وغفلة الحكومة . أليس مثل هذه الحكومة تستحق الزوال ؟ وإنشاء حكومة رشيدة يقظة تحل محلها .

خلوة الفقيه الكراس :

أدخلونى خلوة القاضى الطيب لأنها بجوارنا ولم أستفد منها شيئا لاهمال الفقيه بها أو لصغر سنى التى هى أول السادسة حتى قالت المغنية حين ختانى فى آخر بيت « الكسر سنينات اللبن فى الخلوة » ثم نقلت لخلوة الرجل الصالح اليقظ المخلص فى عمله الفقيه أحمد حامد الشهير بالكراس سنة ١٢٨٨ واستمررت عنده الى أن توفى سنة ١٢٩٥ حيث أمرنى بتمريضه وأظنه كان مصابا بالحمى السوداء لأنه يتبول دما ويأمرنى بدفنه بعيدا عن الناس فى حفرة عميقة .

اسمحوا لى أن أذكر عن هذا الرجل ما أعرفه عنه اداء لواجبه على . كان رحمه الله فوق السبعين من عمره على أنه قوى البنية يمكث بخلوته الى الساعة ١١ مساء حيث يتم تلاميذه سبع القرآن فيتوجه لحدى زوجتيه ويرجع للخلوة فى أو قبل الساعة ٤ صباحا أفرنجيا أو الساعة ١٠ مساء عرييا (على الاستواء) فيشيرنا فنوقد النار بالنوبتجية ونشرع فى القراءة للعرضه وهو يدخل فى مخزن الخلوة يستحم يوميا ومعه تلميذان يقرآن عليه لوجيهما ليمحياها بعد هذه القراءة ويكتبان غيرها فتستمر العرضه (قراءة الألواح حفظا) عليه تلميذين حتى يفرغ من اغتساله - فيخرج فيجلس على عنقريه (سريره) والعرضه مستمرة حتى يسفر الفجر فيأمر بالقيام للوضوء فنصلى الصبح ونستأنف العرضه حتى نفرغ ومن سمعوا منا يصحون ألواحهم ويكتبون غيرها من رؤوسهم لأنهم قد سبق فحفظوه عصر اليوم الماضى وبعد الكتابة يصحون عليه ماكتبوا مثنى مثنى هؤلاء الكبار أما المتوسطون فانه يجلس أمامهم ويملى عليهم ما يكتبون فى يومهم هذا غيبا من راسه والصغار يكتب لهم ألواحهم بنوى التمر ليكتبوا عليه تهودا على الكتابة وتحسينا للخط وكل هذا يجرى يوميا لا يشغله عمل عن عمل لا فى النظام ولا فى الصحة -

ومما أذكر أنى تساهلت يوما فى حفظ لوحى وكان : « ولما فتحوا متاعهم » فى سورة يوسف عليه السلام فى وقت العشاء فلما حضر الفقيه . سحرا واجتهدت فى حفظه حتى جاءت نوبة تسميعى ظننت أنه لا ينتبه لى فمحوته وكتبت فلما دخلوا وعندما قرأته عليه ضحى الغد للصحة سكت الى أن ختمته بقولى « أنه هو العليم الحكيم » - قال لى تعالى يا العليم الحكيم . انت عرضت على من ؟ فقلت له عرضت عليك يا سيدنا فقال متى ؟ قلت وأنت تستحم فى المخزن - قال أنا دخلت للاستحمام وكان يقرأ فلان وفلان ثم بعدهما فلان وفلان وبعدهما فلان وفلان وخرجت وهما يقرأآن فبين - أى هذه الدفع أنت عرضت لوحك ومن كان معك فقلت يا سيدنا يموت الفكى ويموت أبوى أنا عرضت - فقال لى تموت أنت أمشى أمحى وتعال - أكتب ما محوته فذهبت ومحوته وكتبت سطرين مما محوته فاتضح أمرى فضربنى على الكذب وأملانى لوح - ولما فتحوا وحكم على ألا أبرح الخلوة حتى أسمع اياه غيايا أى أعرضه عليه وفعلا حصل ذلك . ومع أن حيران الخلوة يفيضون على الأربعمئة طالب ليس له منهم ساعد ولا من غيرهم . كان رحمه الله لا يبالى بأهل المال ولا أهل الجاه ولا يقبل هدية من أحد ولا يسمح لأحد أن يخدم تلاميذه فى بلاده ولا منزله كغيره ولا يستخدمهم هو وقد رأيت الشيخ عوض الكريم أبو سن وهو ناظر الشكرية جاءه زائرا وكان راكبا حصانا فوقف عند باب زريبة الخلوة فقاباه الفقيه ابراهيم وقيع الله فقال الشيخ عوض الكريم أنى زائر الفقيه أحمد الكراس فجاء الفقيه وقيع الله العالم لشيخنا والحيران يصحون ويكتبون فقال الفقيه ابراهيم وقيع الله : يا فقيه أحمد الشيخ عوض الكريم جاء يزورك . فلم يلتفت له فلما رأى الشيخ عوض الكريم عدم قيام الفقيه أحمد من عنقربيه ترجل من حصانه ودخل المسجد راجلا حتى وصل الفقيه أحمد وصافحه وجلس مكانه مشتغلا بعمله والشيخ عوض الكريم جالس بجانبه فلما طالت المدة طلب منه الفاتحة فصفق الفقيه يديه علامة للسكوت وطلب الفاتحة من كل الحيران وودع الشيخ عوض الكريم حتى ركب حصانه ورجع فأنب الفقيه أحمد على عدم استقباله للشيخ عوض الكريم كما يستحق فكان رده عليه بعبارة

الزاجر « يازول هل ربنا يسألنى عن مجاملة الشيخ عوض الكريم أو عن اصلاح ألواح الحيران . »

عادة فقهاء الخلوات يفزعون حيرانهم للغابات يومين من كل أسبوع ليكثر الخشب عندهم لبييعوا منه لحيران الخلوة ويستعملون منه فى منازلهم أما شيخنا فكان جمع خطبه سنويا من البحر زمن الفيضان فحينما يسمع (أن البحر^١ رامى) هذا اليوم يأمرنا بالتوجه للبحر - الكبار منا لجلب الخشب من بطن البحر والمتوسطون يتناولونه من الشاطئ والصغار يحملونه للخلوة ولذا يكتب لكل واحد اسمه بخطه للمتوسطين على الذراع والصغار على الساق وبعد رجوعنا يفتش على ما كتب فمن وجده أضاع العلامة جلده أو منعه من التوجه مع أخوانه للبحر هذا أنكى للولد • كان رحمه الله يمننا من عادات الخلوات المؤدية للدناءة كالشحة بالشرافة فى السوق أو فى المنازل وكالسعى لمآتم الأموات لناكل لحم الصدقات •

مكثت فى الخلوة سبع سنوات لم يذهب حيرانه لمآتم عدا مرتين مآتم الشيخ على أبو سن ومآتم الفقيه ولد عون الله قريبه . ما رأيت له عملا يدنى الى الدناءة الا أنه كان يقسم لنا كرامة العائد أو المنتهى فى أيدينا لكثرتنا • كان لا يستعمل كالفقهاء آلة الفلكة ليضرب الولد على راحة رجله بل كان له سوطين أحدهما قصير يسمى « الجدوه » من جلد القرتيه (فرس البحر) والثانى من جلد البعير يسمى « الفرطوق » مربوط فى خشبة وكان سريع الجلد يمسك بتلابيب الولد بثوبه ويجلده بالجدوه فاذا رأى الولد اشتد فى الجذب طلقه فيقع الولد على الأرض فبسرعة كالحاوى يضع الجدوه ويأخذ الفرطوق ويستمر فى جلده والولد يسحف حايا حتى يتعد عنه وكان رحمه الله ميالا للعقاب أكثر من الضرب حيث يقول سليمان خلف الله :

حزنان الجدوه داير الشرف والفوت^٢ وقالت مرتبتى أنا أخير من صوت
مقابلة الفكى بالمر أخير الموت والعشرين تحلف تقول^٣ فد صوت

(١) اصطلاح معناه حاملا أخشابا

(٢) التفوق

(٣) فد بمعنى واحد أى سوط فرد

كان رحمه الله يقرأ القرآن كل ليلة مع كثرة عمله وكان طالب علم الى أن توفاه الله رحمه الله رحمة واسعة أضعاف أضعاف عمله الصالح .

حصلت على القرآن في سنة ١٢٩٧ بعد موت الفقيه أحمد الكراس دليت عوده المروق على الفقيه الجابري الذي كان يجتنب كل اليوم لا يأكل ولا يشرب وأحيانا يكون مفتوح العينين . ثم اشتغلت بقراءة العلم على الفقيه يوسف محمد نعمه أحد العلماء برفاعه مع تعليمي القرآن لبعض الصغار بخلوة أحد جيراننا وقت فراغي - أتذكر أنه قد جاء على كاشف أحد الضباط الأتراك فجلد شيخنا الفقيه أحمد تور ياسين المعتقد دينيا لسبب أجهله وغضبت وقلدت شيخى ولد الجابري في الانجذاب فتجاذبت كذبا ورميت بنفسى على الأرض شاخص البصر عادم الحركة فحملونى من الخلوة للمنزل حيث وضعونى على عنقريب وأنا أعرف كل من حولى من الجالسين ولكنى متصنع الجذب - فأتكلم كلام الانسان المجذوب كما سمعته من شيخنا ♦

ومن العجيب أنى قد صرحت فيما قلته أن على كاشف سيقتل في قرية أبى شوكة وفعلا بعد عام قتل على كاشف في ثورة حصلت بحلة أبى شوكة ♦ تشاكت مرة مع أحد يدعى محمد الشاطر نعيمه فأقسم الفقيه محمد الجابري يضربنى مائة سوط على رجلى بسوط العنج بالفلكه فجعلت أصرخ الى أن ذبح صوتى وكلما أتاه من يشفع يقول : « عز الله فى ملكه » لا يتركنى حتى يتم المائة . فلما أتمها ما قدرت أتحرك فجاء أهلى رحلونى على حمار و صار الكثير من الجروح يقىء فيعالجونه بالمسلى المغلى حتى شفيت ورجعت للخلوة وأظنه كان مجذوبا عند توقيعه هذه العقوبة لأنه كثيرا ما يجذب ♦

مما أتذكر عن الحياة العامة أنه قد ضاع منى ثوبى بالبحر فاحتلت وسرقت ثوبا كبيرا من عبيد كانوا يملأون الأحواض فى بئر بقريتنا وذهبت للخلوة فلما رأى حمزه السوارابى الثوب الكبير قال لى « الأحسن تقطع منه بقدر ثوبك وترمى الباقي . »

حكاية الكجورية :

سرق (قرن خمري^١) من أم طبول أختى وبحثنا عنه ولم نجده فاقترح

(١) قرن خمري نوع من القماش المزركش تلبسه نساء السودان كازار

أحد الناس أن نذهب للكجوريه (عطا ٢ منه) نسألها لعلها تكشف عن حكاية الثوب المسروق أو من سرقه فأنكرت أنا عليهم ذلك بقولى هل اذا قالت الكجوريه أن بابكر هو الذى سرق الثوب يكون حقيقة - فقال أخونا مرغنى شكاك نمتحنها أولا بسؤالها عن أشياء معروفة لدينا فان أصابت نعتمد كلامها وعليه نسألها عن اسم أمى فهى غريبة وماتت منذ زمن ولا يعرف اسمها الا القليل من عائلتنا فقبلنا رأييه وسرنا نحوها فلما دخلنا عليها وجدناها تأكل كسرة بروب فى قرعه فسلمنا عليها وقالت لنا « أمونه » ما موجودة فجلسنا حولها وبعد برهه امتقع لونها وصرخت صرخة عالية ثم قالت « أمونه جات » فناداه أخونا مرغنى قائلاً « أمونه » فأجابه صوت من داخل بطن « عظامنه » (حبابك يا مرغنى ود كسبه) وكان كسبه هو اسم أمه فعند ذلك سررنا وبدأنا نسألها عن « القرن الخمرى » فقالت أخذه فلان ود فلانه وباعه لفلانه وذهبنا لها ودفعنا لها المبلغ الذى اشترت به القرن وردته لنا .

واذا أراد الله أمرا هياً أسبابه وقد هيئت لى الأسباب فى يوم ما حينما أخذت قصبه من سقف الخلوه (غرفة الضيوف) لا بريها قلما فاضن نزل بعض الغبار على عمى محمد أحمد شكاك الذى خرج على وأوجعنى ضرباً موجعا بلا شفقة فغضبت والدتى التى لم تتعود الغضب وأدخلت لى كتبى فى شنطة من قماش وقالت لى أمشى لمدنى . اقرأ على عمك الفكى الأزيرق فذهبت من ساعتى برجلى فأدركت آخر سوق المسلمية فوجدت للحظ رجلين على حمارين ذاهبين لمدنى فتعلقت فى حمار أحدهما وبعد برهة سألنى : أين أذهب ؟ قلت لمدنى اقرأ العلم على الفقيه الأزيرق قال لى : أحفظت القرآن ؟ قلت نعم . قال لى اقرأ « ورد الله الذين كفروا بغيظهم » فقرأتها عليهم فأردفنى على حماره وقال : يا ولدى الحكيم قال لولده احفظ القرآن فانه لا يرمىك واذا رماك يرمىك على برش وتعلم العلم فانه لا يرمىك واذا رماك يرمىك على سريرفسرت من الرجل ودعوت لهم بخير .

(٢) اسم متعارف بين الجوارى ودائماً تسمى الجارية بنعت يضاف الى سيدها « تام زينه » « فرجه قريب » وهكذا

مسجد الفكى الازيرق :

وصلت مدنى والتحقت بطلبة العلم وقرأت السنوسية بشرح ولد بقادى وشرح ولد عيسى والجزريه بذكرىاء فى التجويد والعزیه بعبد الباقي وهذا أهده لى شيخنا وكان بخطه رحمه الله .

اسمحوا لى أن أحكى حكاية حصلت بمدنى (الأولى) لحقنى ابراهيم مصطفى الذى كان وكيل الفقيه محمد ولد الجابرى الذى دليت عليه عودة بعد وفاة شيخنا الفقيه أحمد الكراس وكان ابراهيم محترما عندنا ومعه أحمد عثمان وكلاهما قريبي من ناحية والدتى وهما فقيران فصار أخى سعيد يرسل لى فى كل يوم أحد أو يوم أربعاء قرشين أو ثلاثة قروش وكلما اشترينا فاكهة تمرا أو بطيخا أو كتبا أو نحو ذلك أدفع الثمن منى ، ففى بعض الأيام هزر معى ابراهيم مصطفى فأنفت نفسى واشتعلت غضبا خلاف عادتى معه حينما كنا برفاعه فبحثت عن سبب هذا الانقلاب فما وجدت له سببا غير أنى منيت عليه بما أصرفه عليهما فأخذت باقى نقودى وكانت أربعة عشر قرشا ودمجه واحدة وذهبت لشيخنا الفقيه وقلت له أنى أخشى أن أتكبر على اخوانى فاستلم منى هذه النقود - فاستلمها وحفظها الى أن مر علينا والدى من كركوج بمدنى فطلبنى الفقيه أمام والدى وسألنى الفقيه كيف تأكلون يوم الأحد والأربعاء ؟ فقلت دائما نأكل لحما وسمكا وباقى الأيام نأكل الملاح . قال لوالدى : هل فى رفاعه أكلكم خير من هذا ؟ قال لا والله فأخبره بمسألة النقود وسلمها اياه فشكرنى والدى على هذه . فلذلك عندما بدأت المدرسة برفاعة جعلت أبحث عن مصاريف التلاميذ الغرباء الخصوصية وأسلمها لمخصوص من المعلمين وأجعل لكل تلميذ مذكرة يحفظ فيها حسابه أثناء السنة بعد تصديقى له بعد المناقشة وما يبقى له نسلمه اياه عند العطلة ليشتري له هدايا لأهله .

كنا - ونحن بمدنى - نذاكر الدرس قبل عرضه على الفقيه كل يوم أحدنا مدرسا والباقون تلاميذ وما نختلف فيها من المسائل نعرضها على الفقيه ففى بعض نوبات تدريسي شرحت لهم قول ابن عاشر (اذ معجزاتهم كقولهم وبر - أن قصده وبر الجمال أى الصوف الناعم فلم يعترضنى أحدهم فلما

قرأها شيخنا قال أن معجزاتهم كقوله جل وبر تعالى صدق هذا العبد في كل
خبر فضحكنا كلنا فبدأ يغضب فأخبرناه بشرحي فضحك حتى أدمعت عيناه
وكان كلما رآني منفردا يذكرها لي .

أول بيت قلته شعرا بمدني حيث كنا نشرب قش الشيخ سجارا كشيخنا
فقلت لأحدنا :

منك السجار ومنى النار حاضرة

الشيخ منك ومنى الشرب والكيف

وهذا سلخا من البيت الشهير :

منك الدقيق ومنى النار أوقدها

الماء منى ومنك السمن والعسل

نبذة عن تاريخ شيخنا الفقيه محمد الازيرق :

قرأ القرآن وبعض معلومات في الدامر ثم رحل لمدني بواسطة عبد الله أغا
الذي بنى له مسجدا مركبا من غرف ومنزلا بجوار المسجد وذلك سنة ١٢٧٥ هـ
وفي عام ١٢٨٢ هـ - ١٨٦٦ م جاء المرحوم جعفر باشا مظهر واليا على السودان
وكان عالما محبا للعلم وأهله فجعل للمساجد بالمدن الكبرى مرتبات بالامتحان
فلما قصد مدني وجد بها لجنة العلماء وتقدم كثير منهم ومن ضمنهم الفقيه
الازيرق الذي أخبرنا أنه ضمن أسئلته له في باب المسافات فأجاب . فقال له
جعفر باشا : غلطت يا مولانا في هذه المسألة فرد عليه الفقيه بقوله : اذا كنت
غلطان فالشيخ خليل غلطان فقال له الباشا عندك شارح خليل قال عندي منه
الدسوقي والزرقاني والخرشي فأمره باحضار النص من الثلاث حواشي فأحضرها
من كل حاشية كراسا فلما رآها جعفر باشا متحدة الخط قال له صدقت ولكني
أرى هذا الخط متفق في الثلاثة نسخ فقال له الفقيه نعم وهو خطي فقال له
الباشا متى وكيف كتبت هذه الحواشي قال حينما كنت طالبا أطلب من الراجل
الغني الراغب في كتابة أحدهما يحضر لي ورقا يكفي لنسختين ويحضر لي
الكتاب الذي أقل منه فأكتب نسخة لي ونسخة له فقال هل ممكن نرى هذه
الكتب ؟ قال هل يشرفنا سعادة الحكمدار أو ننقلها له هنا فقال له الباشا :
كم مجلدا عندك بخطك ؟ قال له ثمانون مجلدا فنهض الباشا ومن معه الى

مسجد الفقيه الذى نشر لهم الكتب فلما رآها جعفر باشا قال : هذا هو الامتحان الفعلى وجعل مسجد الفقيه هو المسجد الذى يستحق المرتب فصار يأخذه الى أن قطعتة المهدية التى كان غير مرتاح لها •

ظهور الامام المهدي :

اشترينا مرة بطيخة ووجدنا على كل حبة منها خطوطا تقرأ على صفحة الحبة لا اله الا الله وعلى الصفحة الأخرى الخط مسقوم ولكن ممكن تجمع منه كلمة محمد والباقي مسقوم فأخذت حبات وعرضتها على شيخنا فقرأ الصفحة الأولى ثم قلب الحبة وقال لى ما هذا قلت هذا محمد قال والباقي قلت طبعاً يكون المهدي قال ولماذا لا يكون رسول الله قلت رسول الله لا يحتاج الى معجزة فى هذه البلاد الاسلامية قال لى ألقه فى الأرض ثم اضطجع وقال : آه يا ولد نكتوت الذى شبع الناس موت « فغضبت جدا ولكن لهيبته لا أستطيع أكله رغم اعتقادي فى المهدي الذى كنت أعرفه حينما كان يزور رفاعة كثيرا لوصال أقاربه •

وقد رأيت مرة رؤيا وهى انى وجدت لوحا مكتوبا فيه كلام رجز ميمى كنت أحفظ منه شيئا وفى آخره يقول سليم فى نزل من حميم وتصلية جحيم ثم رجز آخر يأتى آخره محمد الايزرق فى عيشة راضية فى جنة عالية فلما قصصت عليه هذه كان متكأ فجلس وقال قاتلك الله يا سليم لم تقتلنى ثلاث مرات واتكأ كما كان فلم يكمل ذلك العام حتى قتله عبده سليم ذبحا فعرف سليم وقتل به رحمه الله .

وكان من قوله فى المهدي عم مما أذكر من قصيدته : —

الحمد لله شديد البطش	بديع الأحوال مجيد العرش
مكور الليل على النهار	بدون أعوان ولا أنصار

ومنها : —

أن تنزل البأس من العذاب	على عتاة فرقة الأعراب
اذ غرهم شخص الجزيرة أبا	بكونه المهدي أبا الله أبا

فلما وصل خبرها المهدي عم قال سامح الله أخانا الفقيه الأيزرق ما يعرفنا

الا بشخص الجزيرة أبا • ثم لما وصل أمراء المهديّة الجزيرة طلبه نصر أخو
الأمير أبي قرجه بعد ما قتل العالم ولد القبة بالمسلمية وهدده بالقتل قال له
الفقيه الأزيرق • والله يا ولدي أن عمري في السبعين وان قتلتنى فتبوء بأثمي
وأثمك لا مانع عندي ثم هاجر الى المهدي بقصيدته التي منها :

فأول الظهور من بطن أبا بالسيد المهدي حبا الله أبا
وفي آخرها :

محمد الأزيرق وابن الطاهر يرجو العفو من عالم السراير
مؤملا بالصفح بالبتول وبأبي السبطين والرسول
من كل ما جنيت من انكار ولست شاغلا به أفكاري

وهاجر بها الى المهدي بالرهد وكان والدي معه فقال والدي سألته والمهدي
راكب على جملة يبايع الناس فقلت له يامولاي أنا أمي وانت عالم هل اعتقد أن
هذا هو المهدي المنتظر فقال لي أنا لا اعرف ما أقول لك بخصوصه ولكن ياود
بدرى - وقبض على لحيته قائلا : يملكوكم الأنكليز فرجع من هجرته وذبحه
سليم رحمه الله رحمة واسعة •

رجعت من مدني على الا ارجع لها وشيخنا مسجده عامر بالطلبه وذلك
لأن الشريف احمد ولد طه تحرك ضد الحكومة بأسم المهديه وكانت قريته
قريبه من رفاعه فأخذت أهلنا الشفقة علينا وأرجعونا رغم رغبتنا ورغبة شيخنا
في البقاء بمدني وذلك لأن الشريف احمد طه قتل عساكر الحكومة مرتين وفي
المرة الثالثة انضم للحكومة الشيخ عوض الكريم أبو سن والشيخ حمد النيل
العركي اللذان نصحا للشريف ليسلم فرفض وقتل فعلا حيث كتب المهدي في
آخر جواب للشيخين عوض الكريم أبو سن والشيخ حمد النيل يقول (قتلتم
ولد طه خذلة للدين ونصرة للكافرين فلتعلمن نبأه بعد حين •

رجعت لرفاعه وفي اثناء وجودي بها تزوج أخي سعيد آمنه بنت الحاج
الحسن ففي يوم أردت زيارته فمررت ببیت جارتنا زهراء فأمرتنى
بالمرور عليها وهي راقدة فقالت لي بطني توجعني فاعزم لي يا فكي
بابكر فلما قبضتها باصبعي انقلبت فوق وركي وغنجت فدفعتها عني ومضيت
لسبيلي ولما رجعت لمنزلي صليت العشاء اماما ولما اضطجعت للنوم غالبتنى

نفسى بالمسير لزهاء وغلب على الهوى فوصلتها وجدتها منفردة فسرت جدا بدخولى عليها ومكنتنى من نفسها ثم قالت لى من اخبرك أنى زانيه قلت انت نفسك أخبرتنى فضحكت . فى تلك الساعة ضرب بابها عمى محمد على حمد السيد فخرجت له وبعد ان عرفته سعلت بصوتى : - قال لها من عندك قالت له : التميم اخوى فانتظرتها لابساً للخروج قالت الى أين قلت هذا عمى وقد يجىء غيره فانصرفت

أخبرت والدتى حينما أصبحت بكل ما حصل منى ومن زهاء وعمى محمد على فأخذت والدتى تكرر قولها أفى أفى! وحياة محمد سعيد هى تعمل عمل « قلوبه » (فرس البحر) مع وليدها وتنفل (تبصق) فى الأرض ولكنى لم أرها - أى زهاء - الا بعد رجوعى ووالدتى من أخذ البيعة على المهدي « عم » فزارتنا ومدت لنا يدها فأبيت أن أصافحها فقالت « تندخلك! » تعجبا منى وانكارا على وعلى عهد الله لم أذق امرأة غيرها .

فى هذه الفترة رجعت أقرأ على الفقيه يوسف محمد نعمة حتى ظهرت المهديّة بالحلاوين حيث لى الشيخ محمد البصير طلب المهدي عم وشق عصا الطاعة على الحكومة بقتلهم العسكرى فى سوق الحلاوين وقطع سلك التلغراف فعرض الشيخ عبد الله عوض الكريم برفاعه رغم والده عوض الكريم أبو سن بالبطانة مع الحكومة فلبست الجبة وأخلصت للمهديّة كوالدتى ظاهرا وباطنا رغم أن والدى ومشايخى كلهم مرءون ظاهرا فصرت أتعرض للوابورات دون سائر رغبة فى الشهادة فلما علم الشيخ عبد الله الأمير تعرضى لها جعل على حرسا حتى تمر الوابورات وكان الشيخ محمد البصير طلب من الشيخ عبد الله حصار قيقر صالح بالشرق بمن معه وكان الشيخ عبد الله أظنه غير مخلص فى أول مرة فيامرنا بالتوجه ويتقدم معنا ثم يقول لنا أعرفوا مروا بحلة العرياب وتعالوا الرصاص ما يأخذ الناس مع أنه بين العرياب وفداسى مسافة ضعف المسافة بين رفاعه والعرياب فلما رأيت ذلك ذهبت لديم أحمد ولد البصير الذى حضر من المهدي وحاصر معه بالغرب وحضرت موقعتين احدهما هجمنا حتى قلطنا بعض

(١) أفى اسم صوت معناه واحسرتاه

(١) تبالك

شوك الزريبة ولكن الوابور هاجمنا من جهة البحر فرجعنا تاركين وراءنا أموالنا منا ومنهم ثم أن محمد البصير سمع بأن الشيخ عوض الكريم جمع الشكرية وجاء ليحتل الشرق قبالة قيقر صالح فضغط على عبد الله الذي سبق والده واحتل شرق القيقر فلما رأى صالح ذلك أرسل للشيخ العبيد ليحضر بنفسه واسطة للحلاوين ليقبلوا شروط صالح التي يعرضها عليهم للصلح وفي الباطن يريد أن يحفظه معه بالقيقر فيأمن عادية العركين بالشيخ حمد النيل وعادية الشكرية بعبد الاله وأبى عاقله وعادية المسلمية بالشيخ العبيد ويأخذ طريق الشرق الى الخرطوم فلما حضر الشيخ العبيد أرسل له الوابور ليدخله بالقيقر فقال جملته المأثورة - انا ترن ترن^٢ عند القيقر حرن - أنا مانى فار بدخل (الجحار) ومانى صبر بدخل الققر أنا ود ريه المايربط النية أنا مانى متل ولد الطريفى (حمد النيل) - جاء يتفولح جاب ضقلها يتلولح ان سلمت سلمت واما سلمت باكر يجى أبو قرجه وتقيف الهرجه ورجع الشيخ العبيد لرفاعه فلما وصل أبو قرجه ومعه المدافع ندم صالح وأرسل للشيخ العبيد فرجع من رفاعه وحصل التسليم على يده وسافر صالح وسناجكه ومن معهم للخرطوم والحلفاية وتوجه أبو قرجه بجيشه فحاصر الخرطوم وصارت كل الجزيرة خاضعة للمهدية عدا الخرطوم وسنار ♦

هجرة لنا للمهدى وحصار الخرطوم :

أخذت والدتى كطلبها الملح وهاجرنا للمهدى بشوق وأخلاص عظيمين (لأننى كنت رايته) وأعتقدته حينما كان يزور رفاعه لوصال أقاربه ومعه تلاميذه نأثروا الوجوه نظيفوا الثياب منظموا الاذكار وكثيرا ما كنا ونحن طالبوا علم تقصد معه صلاة المغرب لنسمع قراءة الخشوع منه وقد قرأ سورة القارعة مرة فى الركعة الأولى فحينما قرأ «يوم يكون الناس كالفراش المبثوث» صعق وخر مغشيا عليه فتقدم غيره من حيرانه وأتم الصلاة بالناس وأنا منهم فلم يصح حتى بارحناهم . هاجرنا أنا ووالدتى ومعنا خالى باشا الذى غير اسمه

(٢) ترترن اسم صوت بمعنى امتنع عن السير والقيقر هو الشاطيء وحرن توقف النية الشئ الغير ناضج من طعام أو عمل - يتفولح بمعنى يحاول الفلاح والضقل هو الوتد طار فشج من كان يشبهه

المهدي عم الى محمد يوسف فوجدناه بديهم الحنيك أو في الدير الذي جنوبه وفي الفيضان خرج جيش الخرطوم بالبر والوابورات بالبحر على أبي قرجه بديهم برى فهزموه بعد أن قتل أخواه نصر - الذي أدخل حصانه أو أدخله حصانه القلعة قبل الناس فكان أول قتيل ومصطفى ، فارتفع أبو قرجه بجيشه قبالة قرية ولد جار النبي قبلي الخرطوم بنحو يوم ونصف بالقافلة حيث كتب له المهدي كتابا جاء فيه « ولا تبتئس بما حصل فإن الله تعالى أراد أن يميز الخبيث من الطيب فيجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في قبضتنا . » وما زال هناك حتى جاءه ولد النجومى وعبد الله ولد النور حيث وضعوا ديم العائلات في المنتصف بين شجرة ماحى بك والجريف وحاصر ولد النجومى على النيل الأبيض وعبد الله ود النور على النيل الأزرق وعبد الله ود جبارة وحاج خالد العمرابى بحلينقو الخرطوم بحرى فلما رجعنا لرفاعة طلب والدى مرة ثانية لحصار الخرطوم مع من طلبوا وكانت مزارعنا ماثلة للحصاد ولوالدى سمسهم كثير جلبه من كركوج فما كان منى الا أن يتحكم في عقلى الشوق للجهاد فأخذت والدتى وزوجتى وزوجة والدى وكل السمسهم في مركب استأجرتها وتركت المزارع لأخى موسى بدرى ومن معه من الرقيق وسافرت حتى وصلنا الجريف خرجت من المركب قاصدا الدير فلما رآنى والدى اندهش وقال كيف جئت ولمن تركت الزرع ؟ قلت تركته لله والجهاد أفضل منه ولما كان يعلم صحة عقيدتى وضعف عقيدته فى المهدية سكت لئلا يسمع الجلوس مادار بيننا فيتهم بالانكار وبعد هنيهة قال لى من جاء معك - قلت لم أترك غير موسى والرقيق - قال : والسمسهم ؟ - قلت أحضرته معى - فهز رأسه عجباً أو اعجاباً لا أدري . فى الحال قام واشترى ثلاث غرف لحفظ السمسهم واشترى بروشا وأخشابا لبناء منازلنا وفى الصباح أنا مشيت حالا للدير بالغرقان ووالدى توجه للمركب بنفسه وبعض من أولاد معارفه فلم أرجع لمنزلى ولا لوالدى وأشقائى الا بعد أسبوعين وكنت فى أقرب النقط المعهدة لحصار الخرطوم بحيث نرى السجارة ونسمع الكلام ليلا ولا نمكن عدونا نهارة من الخروج من مكمنه كما أنه لا يمكننا كذلك من ورود الماء الا ليلا .

حوادث :

كان الجيش جميعه يخرج يوم الجمعة للعرضة (الاستعراض) وحينما

يرجع يصف عند بيت عبد الله ولد النور بجوار الجامع فطنه منزل ولد النجومي
ففى بعض الأيام جاء المدعو محمد حاج خالد الرباطي بمنشور بخصوص
المتخلفين عن المجيء للحصار بالألا يزوجهم ولا يتزوجوا منهم ولا يعاملونهم
وإذا مات أحدهم لا يصل على ويختم بالآية : قال تعالى ولا تصل على أحد
منهم مات أبدا ولا تقم على قبره » الخ . . .

فعارضته فقلت المهدي عم رحمه لا يكتب مثل هذا القول - فقال
لى بحده واستهانة - اتتم ناس الجزيرة مثل أهل القيقر لا يصل الى قلوبكم
نور الايمان بالمهدي عم فغضبت وتوجهت فى الحال الى المنزل الذى كنت
أظنه منزل ولد النجومي وجلست فى راكوبة صغيرة عند باب الزريبة حتى
خرج رجل لا أعرفه فقلت له يا أخى هل جاء منشور من المهدي
عم عند الشيخ عبد الرحمن النجومي موضوعه كذا وكذا ؟ قال لى لم يأت
عندنا . اللهم الا أن يكون جاء عند الشيخ عبد الله ولد النور ووضع يده
اليسرى على كتفى ووضع يدى اليمنى على كتفه وسار بى يحادثنى بخصوص
المنشور وصرنا كلما رأنا أحد المارة يتبعنا حتى جاء أحد حاملا ظروف طبنجية
مسدس من النوع الذى فى آخره شوكة فوقف أمام ولد النجومي بخضوع
فقال له - أعطانى فلان هذه الجبخانه وقال أوصلها لسيدي ولد النجومي فقال
له صاحبي - سلمها فلانا - فتأكدت ان هذا هو ولد النجومي الذى ارتفع
بهذا التواضع فشرعت أتدخل منه فلما شعر بذلك صافحنى وقال لى : صل
الظهر فى الصف الأول جهة اليمين فاذا سلم الامام قم واقفا لأراك - فلما رأى
أشار لى بيده ان تعال - فمشيت نحوه مطمئنا وكان الامام الأمير عبد الله
ولد النور فلما وصلته قال : يا عبد الله اسمع كلام الانصارى هذا فحكيت له
قصة الانصارى - فقال : لم يأتنا هذا المنشور وأنا كثير الشك فيه فطلبنا
محمد الحاج خالد واستلما منه المنشور وأرسلاه للمهدي عم بجواب فجاء
الرد بالسلب ويزيد التأكيد بأنه كل منشور لم يكن مختوما بختم المهدي
لا يعتبر صحيحا .

الحالة الثانية رؤيا منامية رأيت فيما يرى النائم أن أحدا جاء يخبرنا
ونحن بطابية الحصار ان المهدي عم سيزور الرباط هذه الليلة وسترسى به

المعدبة عند ديم النور الكثرى بقرب الشجرة فذهبت فيمن ذهبوا لمقابلة المهدي
عم فلما وصلتنا المعدية خرج منها رجلان وعند أحدهما مخلاة فيها كتاب
فاستأذنته في قراءة جزء منه فأذن لي فلما فتحته وجدته مناشير المهدي مطبوعة
بنفس المطبعة التي طبعت بها بعد فتوح الخرطوم بنحو عام وبنفس السجل
ففتحت منشور حياة الدين فلما وصلت منه الى قول المهدي عم - قال عليه
الصلاة والسلام آخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن ابن عوف لمكان غناه
قال صاحب الكتاب لأخيه : اسمع يا عبد الرحمن ما يقول هذا؟ فقال عبد الرحمن:
هذا ما أراد الله - فقلت له ومن عبد الرحمن؟ قال هو عبد الرحمن بن عوف
قلت ومن أنت؟ قال أنا سعد بن معاذ فأعطيته الكتاب وتبعتهما حتى وصلا
طابيتنا فوقفا وقالا لي اذهب الى ذلك القصر وقل لمن تجده فيه أن سعدا وعبد
الرحمن ينتظرانك لتذهب معهما فلما دخلت القصر وجدت تحت سلمه فردة
نعال من ملبوس النساء مما نسميه المحبوكة ذات سيور كأنها الحرير فأخذتها
بيدي وثنيتهما فطاوعتني حتى يكاد يلتقي رأسها بمؤخرها فقلت في نفسي هذا
ملبوس أهل الجنة والحال انها بليت فألقيتها ثم دخلت الغرفة فوجدت الرجل
على سرير في ناموسية من نسيج التل (وما كنت رأيته) فلمسته بيدي فكادت
تنزلق عنه فبلغته الرسالة فأبدى أسف الحزين وقال هما عارفاني أنا أستطيع
السعى معهما أبلغهما سلامي فذهبت لهما وأخبرتهما فسمعت أحدهما (ولم
أميزه منهما) يقول للآخر عبد الله ولد النور بقي له سبعة أما عبد الرحمن ولد
النجومى فكثير ولم يذكر أياما أو شهورا أو أعواما وذهبا وانظر اليهما حتى
قطعا النيل ولم تحجبهما عنى منازل الخرطوم فانتبهت ووجدت نفسى باكيا
وعيناي غرقى بالدموع فأخبرت أخواني بهذه الرؤيا وانتشر خبرها حتى وصل
ود النجومى فسألنى عنها وتعجب منها وبعد يومين سمعت من عبد القادر العجب
ان الترك اليوم سيخرجون الى برى وهو راكب حصانه ومعه فارس آخر عزما
على أن يحضرا هذه الغزوة فصحبتهما وأنا راجل حتى وصلنا برى وفعلا نحو
الساعة ٣ مساء ونحن فى الطابية المسماة بالدار الآخرة يرى رأينا جيش الترك
خرج من القيقر فنهض عبد الله ولد النور وخرجنا معه فالتقينا فى فسحة فيها
أشجار صغيرة فصار عبد الله ولد النور يقول : يا أصحاب المهدي أما ترون
البحور العين يتبخرن وبأيديهن المناديل البيضاء يلوحن بها وهوىهدرويزبد بحالة تشبه

الذهول فلما هجمنا على الجيش ارتد أمامنا نحو القيقر فاذا الضابط يردهم
برجله وصوته فهجم عليه عبد الله ولد النور وطعنه بكرسه في بطنه فجاء أحد
عساكره من خلف عبد الله ولد النور وسحب الكرسي بقوة قطع بها شاة ابهام
يد عبد الله ود النور اليسرى وهجمنا عليهم هجمة ردتهم الى الققرة نهائيا فلما
رجعنا وجدنا الضابط ميتا ورأيتة خارجا مستعدا للموت حالقا جميع شعر
جسده وهذه علامة من يستعد للموت وفي يوم السبت المقبل وهو اليوم السابع
لرؤيتي سمع ولد النجومى أن جيش الترك خارج لولد النور برا وبحرا من كل
الجهات فأرسل من الفرقان مددا لبرى وكانت رايتنا من ضمنهم ولكننا ندبنا
مؤخرا فلما قابلنا باب المسلمية رأينا جيشا خارجا من الباب فوقفنا
لمقابلته فلما قرب منا هجمنا عليه ورددناه بعد أن قتلنا أكثره
وغرزنا رايتنا بين قتلاهم ونقلنا قتلانا بعيدا وراءنا لعلمهم يرجعون بمدد غزير
فيلجئونا لترك موتانا وراءنا . كنا نرى موتاهم وكان أكثرهم سودانا نبهنا بعض
من كانوا رأوا النار تحرق الأجسام من الموتى لأحدهم .

فرأيت جرحه قد احمر احمرارا شديدا ثم أسود ثم أخذ يبدو منه زبد
صغير ثم خرج منه دخان كدخان السيجارة ثم اشتعلت فيه النار فجعلته فحمة
هذا وما زلنا نسمع في برى ضرب المدافع والبنادق وأصوات الأنصار كرا وفرا
حتى العصر وما زال أميرنا محمد الحاج بشير يقول ما لعبد الله ولد النور
لا يرسل لنا أحدا يعلمه حقيقتنا حتى جاءه من أخذه بعيدا عنا فأخبره بموت
عبد الله ولد النور فرجع لنا وما زال يكرر قوله الأول ليطمنا على حياة ولد
النور فرجع لثلا تضعف قوتنا المعنوية حتى كان الاصفار فسكتت الحالة في
كل الميادين وذهبنا لبرى وحينما وصلنا جاءنا ولد النجومى ونزل في القبر الذى
وجدناه محفورا ووضع جنازة صديقه الحميم بيده وحمد الله على نيل الشهادة
ولم ير في وجهه أى أثر للحزن . وفي الوقت نفسه طلب أخاه مكين ولد النور
وسلمه راية أخيه وجعله أميرا مكانه فانظر لمصداق هذه الرؤيا . ولما علم
المهدى عم بوفاة عبد الله ود النور وصبر ولد النجومى قال عم رجال صدقوا
ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر عبد الرحمن ولد
النجومى وما بدلوا تبديلا .

خرجنا مرة من الديم ذاهبون الى برى وكنا تسعة فلما قابلنا باب المسلمية رأينا حركة عساكر خارجين من الققرة . فقال أحدها هؤلاء العساكر يلزم أن يكونوا ذاهبين الى الجريف والوابورات تأخذ الغلال — فالأحسن أن نقف هنا ونشغلهم ببنادقنا حيث نضرب مرة واحدة لسمع ولد مدرع ومن معه صوت البنادق فيتنبهون . وقفنا وجعلنا نضرب ببنادقنا بصوت واحد وبينما نحن كذلك اذا رأيت أنا شبح المهدي عم حاملا كرسه مقدم على باب المسلمية حيث الجردة ظهرت تماما وقائدها على حصانه فجعلت أقول لمن معي هل ترون المهدي قاصدا الجردة يقولون لم نره أقول ها هو مال عند تلك الشجرة الصغيرة وهاهو صعد القوز الرملية ذاك فلم يره أحد غيري وأنا أنظر لذلك الشبح حتى دخل وسط الجردة فقلت لرفقتي ها هو دخل الجردة فما لبثت أن جالت واختل نظامها فغيرت اتجاهها رجعت للققرة فغيرنا سيرنا لبرى أنا لا أعتقد أن ذلك هو المهدي عم ذاته لأنه محاصر أم درمان بالغرب ولكنني أظنى من ذلك الوقت أنه ملك أو من مؤمنى الجن تمثل بصورة المهدي عم ليطمئنا في موقفنا الحرج فنؤدى واجبنا بعد ذلك جاء فيضان النيل المنتظر للفرج لسكان الخرطوم فأرسلت الوابورات لسنار فجاءت بقليل من الغلال فما وجدته في نفس المدينة بعد تمكنها من الوقوف في أى مكان بين المدينتين كذلك أرسل للنيل الأبيض وابور فيها سأتى بك فخرج في القطينة التي هو من سكانها فحاربوه وقتل فيها فرجع الوابور خائبا فأحس غردون باشا بشدة الوطأة ولم ير فائدة في بقاء الأهالى الذين لا يشتركون في الدفاع عن أنفسهم ويشتركون في الغداءات أو يموتون على حساب قسوته فصرح لهم بالخروج الى حيث يريدون فخرج منهم عدد كبير نشروا خبر المجاعة بالخرطوم وشدد ولد النجومى الحصار وغردون باشا لم يرسل جيشا خارج الققر ليهاجمنا بل اقتصر على اعداد الغذاء لمن بالخرطوم والمحافظة على الذخيرة حتى يصله جيش الحملة المرسله لا تقاذه — وصار يعلى الناس ويمنيهم كلما اشتدت المجاعة عليهم وطأة الحصار وملهبة الجوع بتنويع الحيل ولم يبق مما على القائد المحنك عمله الا عمله ولكن الحذر لا ينجى من القدر ، فلما سمع المهدي عم باقترحام جيش الحملة لعقبة جقدول أرسل جيشا كثيفا من خيرة جيشه أكثره من دغيم وكنانة تحت امره الشيخ

موسى ولد حلو شقيق الخليفة على ود حلو فالتقوا بمكان يقال له أبو طليح
فبنى أكثر جيش المهدي وقتل قائدهم ولم ينج منهم الا النادر .

بايعونى على قص الرقبة

لما وصل جيش الحملة الى المتمة فلما علم المهدي عم بذلك جمع أهل
شوراه واتفقوا على التعجيل بفتوح الخرطوم قبل وصول الجيش الحملة وفعلا
فى ليلة الاثنين ١٦ ربيع ثان آخر سنة ١٣٠٢ جاء المهدي عم وجمع له الجيش
بين حلة الغرقان ومدينة الخرطوم فخطبنا وهو على جمل فمما قاله قبل البيعة
الأخيرة أن أعداء الله قد حفروا حفرة الققرة (الخندق) عريضة غريقة وبثوا
فيها ضرساء الحديد وهى أربعة أشواك من الحديد تعتمد دائما على ثلاثة وترفع
الرابعة لتدخل فى رجل الرجل والفرس بايعونى على قص الرقبة وسكت هنيهة حتى قال
كل الجيش بصوت واحد بايعناك على قص الرقبة كرر هذه العبارة ثلاث مرات
وبعد ذلك قال اذا فتح الله عليكم فغردون لا تقتلوه والشيخ حسين المجدى
لا تقتلوه والفقير الأمين الضيرى لا تقتلوه ولهم رابع نسيته^١ ثم قال ومن
رمى سلاحه لا تقتلوه ومن قفل عليه بيته لا تقتلوه فعارضه رجل أسمع صوته
ولا أرى شخصه قائلا يا سيدى فى بعض الجردات التى قتلناها رأينا العسكرى
يرمى سلاحه فاذا تعديناه أخذ سلاحه من الأرض ويرمينا أو يضربنا به فقال
المهدي عم بعد ما سمع كلامه الذى تجدونه فى خط النار أقتلوه . قال تعالى
« فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا » ثم بايعنا البيعة المعتادة وهى بايعنا الله
ورسوله وبايعناك على ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نعصيك فى
معروف وألا نفر من الجهاد (وربما زاد) بايعناك على زهد الدنيا واختيار
الآخرة ولم أعقلها تماما تلك الساعة وقلعت الرايات وقصدنا الققرة فكان طريقنا
من الجنوب الغربى حيث دخل النيل الأبيض فى الخندق ورجع فردم الخندق
وكنت فى أوائل الناس فلم أشعر بأنى مررت على خندق حتى وجدت نفسى
عند المدفع الذى كان يضرب فىنا فلما وصلنا دخل الذين كانوا يضربونه فى
خيمة وألقوها عليهم فقتلوا تحتها وما زلنا نتقدم على شفير الخندق الداخلى
حتى وصلنا قبالة صرايا غردون فالتقينا بالأنصار الذين دخلوا عن طريق برى

(١) سمعت من عمنا الشيخ أحمد حسن عبد المنعم فى مرة وأبى يحكى

هذه القصة أن قال له أن الرابع هو الشيخ محمد السقا .

وملنا نحو الصرايا فوجدنا غردون باشا ملقى ودمه يجرى فغضبنا على قاتله
حيث أوصى المهدي قبل ساعتين بأعلى صوته بعدم قتله وكانت الساعة ٤ أو
ما يقرب من ذلك ثم أخذنا شارع النيل حتى وصلنا قبالة الجامع فعجنا عليه
فوصلناه عند شروق الشمس فرأيت الفقيه الأمين الضير بالجامع وعليه جبة
صفراء وعمته كبيرة على طربوش ولم أذكر لون القفطان تحت الجبة فحمدت
الله على سلامته أما الشيخ حسين المجدي فقد قتل . ونحو الساعة ١٠ صباحا
اجتمعت بمختار الرباطابي فمشينا معا حتى وصلنا منزل أبي السعود باشا
ووقفنا في دهليزه الذي كان بين غرفتين الغربية منها بابها مفتوح وكانت ابنته
البكر العانس تمشط شعرها على المرأة فرأت شبح حرابنا فخرجت من باب
شمالي وجرت على ممشى بجانبه على ما أتذكر قصب سكر أو ما يشابهه حتى
دخلت المرتفق وقفلته عليها فأخذت أقول لها أخرجي نحن أولاد بلد نحفظك
ولا تؤذيك - عليك أمان الله ورسوله والمهدي . وما زلنا بها حتى خرجت لنا
وهي ترتجف فخرجنا بها الى خارج بيتها لنضعها في مأمن فلقينا بقرب الباب
راية الكلاكله فادخلناها في منزل محمد باشا حسين الذي علمناه أن مكين ولد
النور أميرنا الأكبر اتخذه مأوى له ولم أرها بعد ولكني سمعت انها تزوجت
بالسيد محمد صالح جد الاشراف آل المهدي قلت لم أرها حتى يوم غرة
رمضان سنة ١٣١٤ ليلة زواجي لأم أولادي ، حكيت بمناسبة حكايتها فقبل لي
انها ضمن المدعوات في زواجك وأخبروها فجاءتني وشكرتني حتى أخجلتني
وحكت نفس الحكاية . قلت أنا دخلت الخرطوم في أول الداخلين ولم أشعر
بوجود خندق ولكني اجتمعت بعد ما فارقني مختار في نحو الساعة ١٢ بمحمد
مصطفى عبد القادر الرباطابي فوجدت ملابسه ملطخة بالطين وقد يبس عليها
فقلت له ما هذا الطين - فقال لي حينما دخلنا الخندق وجدناه ملئ طينا مائعا
فغصت فيه الى ما بعد ركبتى وجعل كل من جاء من الأنصار يمسكني من كتفى
ويقفز أمامي فبعضهم يمسكه الطين والخفيف منهم يخرج من اليابس حتى جاء
والدي مصطفى فلما وضع يديه على كتفى رأيته فعرفته وقلت له يا با فقال لي
محمد ؟ قلت : نعم فخرج ووضع سلاحه خارج الخندق ورجع لي فجرني من
الطين الذي وصل صلبى ثم توجهنا معا وكان العامل قد أمر أن يرتفع السلاح
والأنصار يحوزون المنازل من أهلها وأمر سكان الخرطوم بالخروج للديم فوالدي

الرووف لم يصل أحدا مع أنه دخل الخرطوم مع أول الداخلين بل أحد ثمانية رجال خرج بهم قبل رفع السلاح وكلما هجم عليهم أحد يقول لا أن الأمير ولد النجومى أمرنى أوصلهم الديم لأنهم صناع يحتاج لهم فى خدمة الدين فيتركونهم حتى أوصلهم الديم وبقي بعضهم بمنزلنا حتى سافر والدى لكر كوج بعد ثمانية شهور من فتوح الخرطوم •

عندما صدر الأمر للانصار بحجز المنازل فى يوم الفتح حجزنا أنا ومحمد مصطفى منزل رجل يدعى محمد على بك وصوص أظنه تاجرا أصوليا فوجدنا فيه الزبيب ودقيق القمح والسمن واللحم المقدد وجوالات الذرة ولم نجد به أحدا فلم نمس شيئا من هذه المأكولات لأنى كنت صائما ولو كنت غير صائم لا يمكن أن آكل كصاحبى حتى يصدر الاذن من ولد النجومى عن المهدي عم باباحة ما يؤكل مما يوجد من المأكولات وفعلا لم يصدر الاذن الا ضحى الثلاثاء حيث خبزنا من الدقيق قراصة ادمناها بالزيت تقشفا مع وجود السمن والعسل ثم فكرت فى أن صاحب هذا المنزل يجب أن يكون عنده من النقود والحلى الشئ الكثير فأخذنا فى البحث الدقيق فلم نجد شيئا حتى استعنا بجيراننا الذين أخبرونا انهم يخبئون حليهم فى البئر أو المستراح فأنزلنا محمد مصطفى فى البئر فوجدنا حلى المرأة شيئا كثيرا كان من الذهب فأخرجناه وربطناه فى بشكير وحملناه معا الى بيت المال - فوالله - ما كنا نفرق بينه وبين الجنائز التى كنا نمر عليها حتى أوصلناه لبيت المال ولم يخطر ببال أحدنا أنه يحمل مالا فيه الغناء لمدة الحياة لو اختلسه

انظر الى هذه التعليمات التى تصرف شابا مثلنا عمره ٢٣ سنة وله زوجة ومن له زوج يرجو له أولاد ولكن رجاءنا لما عند الله صرفنا عنها رحلنا من بيت محمد على بك الى بيت حاج ناصر أبو حشيش الفتيحابى لأنه واسع يسع عائلتنا وبعد يوم من رجوعنا به سمعنا حركة فى خزانة أحد الغرف فظنناه رجلا مختبئا فخطبناه بالأمان ليخرج فلما طال الزمن دخلت عليه ومعى عمى محمد أحمد شكاك خلفى وكان المخزن ظلاما فلما وصلته نفر منى وكاد ينطحنى فاذا هو ثور مخبأ •

سمعنا ليلة الجمعة أن المهدي عم سيزور الخرطوم ضحى يوم الجمعة ٢٠ ربيع آخر فنزلت فيمن نزل للنيل للقاءه فجاء وخاض الشاطيء كغيره وركب

حصانا أسودا بلجامه وسرجه كئابل وسرنا خلفه حتى وصلنا بيت المال وكان بمنزل المفتى شاعر فنزل عند الباب ودخل فكنت خلفه مباشرة فوجدنا ابراهيم ضرار ابن خال احمد سليمان المحسى امين بيت المال وكان من عماله فصعد السلم وصعد المهدي عم وصعدنا معه وكنت متلصقا بصفحته فأول ما فتح له الغرفة المحفوظ فيها الذهب من حلى وجنيهاات وسبائك اكواما فلما فتحت الغرفة وتوهج الذهب التفت المهدي عم عنه بسرعة البرق وصد عنه راجعا فوقفت وتفكرت بالذهب وذكرت بيت البوصيري : —

فراودته الجبال الشم من ذهب ...

وقلت لنفسي هذا والله هو الشمم. فلما نزل من السلم رأى الميزان ذا الرمانه قال ما هذا ؟ قيل له ميزان يا سيد للمثقلات فقال هل يبين نصف الرطل قيل له نعم فاذن في استعماله فلما خرجنا من باب السور قابلته امرأة تبكى وقالت له يا سيدى المهدي ابنتى باطفالها فى الزريبة ، وهم متعبون ائذن لى فى أخذها فقال لها ما هى الزريبة ؟ قالت : المكان الذى جمعت فيه النساء . فطلب أحمد سليمان وهو واقف مكانه فقال له : ما الزريبة ؟ فقال أحمد سليمان : الزريبة اسم المكان الذى جمعنا فيه نساء الخرطوم ألآتى لم نجد لهن معارف قال له امش بنا لها لا نظرها وتبعناه طبعاً فلما قربنا منها سمعنا ضجة كبيرة فلما وصل أمر أحمد سليمان قائلاً : يا أحمد كل هذه الحريمات يوزعن قبل غروب الشمس فمن عرفها أحد أو عرفت هى أحد تسلم اليه والشباب ممن لم يعرفن ولا يعرفن أحداً زوجوهن ورجع ونحن معه واحمد سليمان أمامه حتى وصلنا منزل أحمد سليمان وجاءوا لنا بزلاييا (لقمة القاضي) ففطرنا منها ورجعنا الى منازلنا وفى الظهر حضرنا للجمعة بالجامع حيث خطب المهدي عم وصلى بالناس وفى آخر خطبته قال : يا أصحاب المهدي أحمد سليمان شغل الاشراف بالمال قولوا : نعوذ بالله من حالهم ثلاث مرات وهم طروق كأنما على رؤوسهم الطير وهم عشيرته الأقربون بينهم أعمامه وأبناء أعمامه هذا هو القول الفصل الذى ليس بالهزل وفى عصر هذا اليوم زار المهدي عم قبر والدته وهو على الربوة التى بجنوب أسبتيالية العيون بالقرب من الباب الذى يقفل للقطارات . وفى يوم الاربعاء ثالث يوم الفتح نحو الساعة ٤ مساءً بالافرنجى وصلت الخرطوم وابوران مرسلان من جيش الخلاص ولعله وصل خبر فتح الخرطوم ليتأكد من

ذلك ، وقد وصلت شرق الاسكلة حيث ثنا بجنيته النور الخبير (جنيته الاوفاف)
فصر بناها بالبندق وحينما تأكدت من وجودنا بالخرطوم رجعت
صار المهدي عم ينتقل بين أمدرمان التي أسست جديدة شمال بلدة أمدرمان
التي كانت قرية صغيرة ثكنات الجيش الآن حيث قبورها ظاهرة يتردد بينها
وبين الخرطوم حيث أتخذ بيت بابكر الجار كوك منزلا له وتزوج أبنته وجعله
مسجد صلاته لغير الجمعة وأصحابه الموجودين بالخرطوم فمما أذكره أنه قرأ آية
ولقد ضرب لهم القول فلما قرأ آية : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها »
الى قوله « وكنا نحن الوارثين » وانحنى فقلت أنه سيموت ورفع رأسه فاذا لحيته
كلها تقطر من دموعه ولما وصل آية « ممن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه » كررها
ثلاث مرات بتلك الحالة .

التخضير لغزو الشمال :

لم يسكت المهدي على قتل الانجليز لجيش موسى الحلو بأبي طليح فبعد
شهر أمر جيش ود النجومى بالتوجه للمتمة لطرده الانجليز منها وكنت فى هذا
الجيش حيث ركب معنا المهدي نفسه الى كررى حيث زار قبر والده وودعنا
هناك بتجديد البيعة ورجع ولما وصل ولد النجومى المتمة وجد الجيش قد
بارحها راجعا بطريق جقدول وسار توا لدنقلا حيث بلغ المهدي عم تناقله لدنقلا
فكتب منشوره الشهير ببلاغته الذى كتبه وهو محموم منه . « أحبابى لا يخفى
انكم ممن صحنى فى القلة وقام معى فى الله بلا علة وفدى الدين بمحبوباته رغبة
فيما عند الله » ومنه : « أحبابى أن الله تعالى يقول : يا أيها الذين آمنوا قاتلوا
الذين يلونكم من الكفار . » وليجدوا فيكم غلظة . . . الآية . . . وأن أمر
مديرية دنقلا قد صار أمرا مهما لتراكم أعداء الله بها ولو أن تحزبهم العارى عن
معونة الله لا يغنى عنهم شيئا ولا هم ينصرون ماداموا فى نصرة جاههم ومالهم .
ومنه « وسيروا الى الله عرجى ومكاسير ولا تنظروا الى خيال التشاهيل المؤدية
الى التعطيل فانكم أحبابى من العقلاء والفظناء الذين يعلمون أن قيامنا هذا هو
بالله الله ابتداء وانتهاء ولو كانت الأموال والتشاهيل مما ينفع أو يضر لكان
للترك فى ذلك حظ وافر ولكن كل من كان لله كان الله له - ومن تمسك
بالأسباب تقطعت به من مقام الأطياب الى منازل الكلاب وحاشاكم ذلك أيها
الأحباب . » الخ . . . كل من هذا النوع فانظر الى قائد أعلى يأمر جيشا من

خيرة جيوشه بالتوجه الى أقوى عدو جربه في جيش لا يقل عن جيش ولد
النجومى عددا وعدة وروحا مغنوية وينهاه عن الالتفات الى التشاهيل بالذخيرة
والمؤن بل يأمره أن يسرع كما بدا أمره يكلف أصحابه الممثلين منه حماسا
المقتدين به في أقواله وأفعاله وبعد شهرين أو تزيد قليلا توفي المهدي عم ورجع
جيش ولد النجومى لأم درمان وكنت قبل وفاة المهدي مرضت بالمalaria ورجعت
الى أم درمان حيث كنت بالخرطوم حينما انتقل المهدي عم الى الدار الآخرة .
عجبية أحكيها . كنا بالخرطوم وكان يقرأ لنا الراتب عمى على شكاك
وهو ليس من المظنونين بالكشف لكنه كان يقرأ ثم يضع الراتب من يده على
فروته ويقول لنا اذا جاءنا أحد الآن وقال المهدي مات ما كنا صانعين به نقول
له : - نقتله أو نشبعه ضربا يرفع راتبه ويقرأ كرر هذه المقالة أياما - وفي تلك
الأيام انتقل المهدي للدار الآخرة .

عجبية أخرى رأيت مناما انى والمهدي عم ومعنا ثالث يدعى محمد أحمد
الشامابي رايتنا نحن الثلاثة بأرجلنا القيد الذى يسمى مكيه - فالمهدي مشى
بقيده وأنا تبعته قليلا وصاحبنا لم يستطع أن يقف ثم أن المهدي مشى غربا وأنا
أنظر اليه حتى غاب عن عيني بدون حائل ولا ظلمة ولا غبار بل حجب عني في
السهل القريب نهرا فقصصت هذه الرؤيا على جماعة وكان ضمنهم عبد الله حاج
الحسن قديلاوى فقصها على صاحب له مصرى وكان وكيل التلغراف بالخرطوم
بعد الفتح فقال له أحضر لى صاحب هذه الرؤيا فاجتمعت به فسألنى هل المهدي
مشى بقيده - قلت نعم - وهو الذى غاب عن عينيك دون حائل ما قلت نعم .
قال اذا صحت هذه الرؤيا يحصل أمر عظيم غير منتظر فلما توفي المهدي عم
اجتمعت بذلك المصرى وقال لى لو قلت لك في ذلك اليوم المهدي يموت قريبا
ما كنت فاعلا بى ؟ قلت كنت أقتلك قبله .

تسليم حامية سنار :

وبعد وفاة المهدي اشتدت وطأة جيش سنار على محاصريها فانكسرت
رجل القائد الأكبر السيد محمد عبد الكريم في وقعة البقره وقتل الشيخ عبد
القادر أبو الحسنى أمير اليعقوباب ومعتقدهم والشريف على الهندي ورحل
الديم من مكانه فطلب الخليفة عبد الرحمن ولد النجومى من المتممة ليرجع
بجيشه فرجع ووجهه لفتح سنار فلما وصلنا المسلمية انتخب عمى على شكاك

ليكون أمينا لبیت مالها فاستعار حصاني وعبدی صباح الخير ولما وصلنا
البرياب وجدنا السيد محمد عبد الكريم هناك ورجله مكسورة وهو في قطية
عليها راکوبة فجلسنا في الراکوبة ودخل عليه ولد النجومی مسلما ومسلما وفي
تلك الساعة حضر مندوب من حامية سنار تطلب التسليم على يد ولد النجومی
فقال ولد النجومی للسيد محمد النصر نصرک واسمک هو الذي أكرههم فلا
أجد ذلك ولا أعمل عملا يشركني معک في النصر وألح عليه ولد النجومی
وأقسم ولد النجومی أنه لا هو ولا جيشه يدخل سنار كفاتح الا بعد تسلمها
وجمع أسلحتها وغنائمها على يدک أو على يد من تعينه عنک فقال له السيد
محمد عبد الكريم أو کلت السيد محمد أحمد ادريس والشيخ مضوی برا
لقسمک فودعه ولد النجومی ورأيت السيد محمد يكرر الشکر لولد النجومی
ويدعو له بالخير - وصلنا سنار وحجزنا ود النجومی في البقره بالمكان الذي
أخلاه السيد محمد عبد الكريم وجيشه وباشر التسليم الشيخ محمد أحمد
شيخ ادريس ومعه الشيخ مضوی عبد الرحمن العالم المحسى - ونحن لم
يدخل أحد منا سنار الا متفرجا . وفي اقامة جيشنا بسنار قبل رجوعه لأم درمان
زرت والدي بكرکوج رجعت فوجدت الجيش رحل لأم درمان فواصلت سيری
راجلا حتى وصلت الخرطوم حيث كنا مقيمين هناك .

رؤيا الموت :

عاودتنی حمى الملاريا التي انهكت قواي حتى صرت تحملني الخادم
بخيته للمستراح وترجعني كالطفل فانقطعت من الصلاة في الجامع وهذا أشد
ما كنت أجده من ألم الحمى ففي ضمن بعض الأيام سمعت الجماعة الراجعين
من الجامع يرتلون الشهادتين بأصوات عالية فاتنحبت حتى غبت عن وعيي وفي
أثناء غيبوبتي رأيت ثلاث رجال بيض الوجوه واللحي أحدهم يحمل سكيना
كبيرة والثاني يحمل ميزانا والثالث يحمل جبلا من القد فجلس الذي بيده
السكين في حجری والذي بيده الجبل عند رجلی والذي بيده الميزان عند
رأسي فاستحضرت في نفسي أن هؤلاء ملائكة الرحمة جاءوا لقبض الروح
وكنت قرأت وأنا صغير في كتاب أن الانسان في حالة الاحتضار يسلط عليه
العطش ويأتيه الشيطان حاملا كأسا من الماء ويقول له أن سجدت لغير الله

سقيتك أو يقول له أن قلت انت ربى سقيتك وقد قرأت أيضا في ذلك الكتاب
أن من قرأ - لقد جاءكم يعصم منه الشيطان فجعلت أقرأ : لقد جاءكم في سرى
وبعد كلام قليل دار بينهم لا أفهم منه شيئا - تقدم من بيده السكين وقطع
رجلى اليمنى من فخذها فخرزت خزة شديدة شعر بها الناس الذين اجتمعوا
حولى يلقنوني الشهادة وأنا لا أسمعهم - ثم تحول لرجلى الشمال وأنا
تحولت معه بعينى فقطع رجلى الشمال فجاء من بيده الميزان فوزنها فرجحت
أحدهما - وأظنها اليمنى على اليسرى رجحانا واضحا فرمى الميزان وأنا أسمع
له صوت صليل عال ثم قطع من بيده السكين يدي اليمنى ثم تحول فقطع
اليسرى وفي كل حركة عيني تتبعه بتحديد شديد يتعجب منه من حولى ثم وزن
صاحب الميزان يدي فرجحت أحدهما عن الأخرى أيضا فرماهما أيضا وأنا أنظر
الى العضل يرف رفيفا شديدا فقلت في نفسى يا سلام - لهذا السب الناس
يقولون الروح للمحتضر خرجت من رجليه لأجل انهما يقطعان أولا • وأن
الروح الآن جاءت في حلقى بعد قطع يدي وصار الرجال الثلاثة يتكلمون • في
أثناء كلامهم رفعت رأسى فرأيت بنتين في السقف بيد احدهما منديل أبيض
وبيد الأخرى كوز شديد البياض وهما يبضاوان . شعر كل منهما متدل من
السقف بارعتا الجمال فقلت في نفسى هاتان حوريتان ينتظران خروج روحى
لتسقيها صاحبة الكوز وتناولها صاحبة المنديل الى النعيم المقيم وسررت جدا
واستسلمت لخروج روحى ولكنى سمعت صاحب الميزان يقول لأخويه وهو
يفرطق بأصبعيه بعيد وصعدوا فاتبعتهم بنظرى فلم أر للبنتين شبحا فانفتح لهم
سقف البيت وحينما غابوا من عيني رأيت من حولى من أهلى وأخواتى يصحن
والحسنى على صدرى ووالدتى ممسكة سبحتها تسبح بها ففى الحال شعرت
بنشاط قوى فى بدنى فقلت بصوت عال مالكم اعطونى الطريق فافسحوا لى
وهم فى سرور وبشر وعجب فقامت نشطا وخرجت ودخلت ولم يشد المرض
بعدها على وفى صباح ذلك اليوم شربت من ملح الطعام كمية وبعد قليل شعرت
بأن الذى كنت أشعر به فى معدتى يصعد نحو حلقى فصرت أتنخم بشدة حتى
أحسست به قريبا من فمى • فأدخلت أصبعى ورميت به فاذا هو ثعبان الباطن
يتحرك متلويا فتم شفائى فما زلت الى اليوم كلما تذكرت حادثة احتضارى
هذه تمنيت ان لومت آنذاك •

من فش غيبته أنهدمت مدينته :

أتذكر أنا وأحد أقاربي المدعو أحمد القويضي الشهير بجيد ذهبنا للخليفة شريف رحمه الله بعد شفائي ليعطينا خادمة نبيعها لضرورة لحقتنا فقال لنا اكتب لكم لأى أمير فقلت اكتب لنا على شكاك بالمسلمية فتوجهنا له فوصلته وأنا محموم من تعب المشى راجلا وحصانى وعبدى عنده فلم ينتبه لى فرقدت على برش فى غرفة مظلمة وانى أسمع فى أنسهم وضحكهم وأتململ من الجوع والحمى (لأن الحمى المملاريا لا تمنعنا الأكل وانما تضعف الحركة حتى قال والدى بابكر وعلى شكاك نصيحا جوف ومرضى قوائم حينما رجعنا من المتمة محمومين)

ولما جاء عمر حجازى يرقد على فراشه بعد السهرة من سمرهم وطئنى وقال من هذا قلت بابكر بدرى فرجع الى عمى على وأخبره بحالى فلم يبد حراكا حتى أصبحنا وللحظ وجدت موسى أخى معه مستبنيه ولم يعلم موسى بمجيئى لوصولنا مساء وهو غائب فلما أصبحنا تقابلنا فأرسل عمى على موسى للجزار يحضر لهم أقتين كبده وثلاث أقات لحم ضان فاحضرها وكان عمى على شكاك متزوجا امرأة من غنائم سنار تدعى زينب بنت خير الله فلما جهز الغداء دخل موسى البيت فوجد عمى على ومن معه يأكلون وأنا لست بينهم بل راقدا فى جامع على ود شمو بجوار منزله فاغتاظ موسى وطلب صباح الخير وسالما عبيدنا فقال لهما شدا الحصان وأتياه فلما أحس عمى على شكاك بذلك أخذ يستعطف موسى فما بالى به . فجرب السلطة ليكرهه على ترك الحصان والعبدین فما استطاع لأن موسى أهاج صباح الخير بأن حكى له ما حصل لى وأنا فى الجامع لا علم لى بذلك ولو أخذ رأى لما حركت ساكنا لأننا زاهدون الدنيا وما فيها لا يهزنا مدح ولا يغبنا قدح والانتقام لا يخطر ببالنا لأن المهدي عم يقول : (من فش غيبته أنهدمت مدينته) فأخذ صباح الخير الحصان وساق سالما قدامه وجاءونى بالجامع فركبت الحصان وركب موسى حماره وسافرنا فى تلك الساعة فأخبرت موسى انى جائع فاشتري لنا زاد وبقيت معه نقودا وصلتنا الخرطوم فى هذه السفرة اعترفت تماما بأن موسى أخى رحمه الله أكرم منى وذلك أنا وصلنا حلة الجديد فوجدنا فى سوقها كسرة مجلوبة ونحن

جياع جدا فاشترى موسى بكل ما معه طعاما قليلا أعطى للعبيدين منه بقدر ما
أبقى لنا وكان بودى أن نزيد عليهما ثم جاءنا رجل سائل فوددت أن نعطيّه
شيئا ونصرفه بكلام طيب فما كان من موسى إلا أن قال له تفضل كل معنا
فتصاغرت نفسى لدى وأكبرت أخى حد الأكبار .

فى سرية ود النجومى :

وصلنا الخرطوم وبعد شهر عزل عمى على شكاك ووصل الخرطوم
بامراته وبعد أيام سافر جيش ولد النجومى لبربر فى طريقه لندقلا فلاحقناه
بالمراكب بكل عائلتنا ولم يزل والدى بكر كوج فوصلنا بربر ومكثنا بها شهرى
شعبان ورمضان وكان الحر أشد ما رأيت حتى كنا نضطر فى رمضان أن نمكث
فى الماء فى النيل الساعة والساعتين حتى الأصفرار ترى الناس عائدين لمنازلهم
وكأنهم جاءوا من عمل أو سوق ثم تحولنا لأبى حراز بالغرب وهناك حضر لنا
مساعد قيديم أميرا لأنصار الغرب مستقلا تقريبا من ولد النجومى وذلك فى
أواخر سنة ١٣٠٣ وهذا من أوائل تغيير السياسة فى المهديّة بعد وفاة المهدي عم
من الحوادث التى حصلت فى أبى حراز - قتل محمد الفحل كبير الفحلاب
وذلك أن رجلا يدعى محمد عبد الماجد من أقاربه ومن معتقدى المهديّة المتطرفين
زار محمد الفحل فى بيته فأخذ الحديث يدور بخصوص المهدي وكان محمد
الفحل مطمئنا لضيفه وقريبه فقال لمحمد عبد الماجد من باب الجدل أسكت
المهدي غشانا والخليفة لأن يكذب علينا فما كان من محمد إلا أن قام من حينه
وذهب الى ولد النجومى وأخبره الخبر كما حصل فأحضروا ولد الفحل من
بيته فاعترف فكتب ولد النجومى بدوره الى خليفة المهدي فأمر بضرب عنقه
ونفذ قتله فى محفل حافل .

طلبنى ولد النجومى لأصحب أحد عماله لتحصيل الضرائب من قبيلة
المناصير فبكيت وقلت له يا سيدى ما رأيت غيرى تقطعه من الله أرجوك
وأرجوك بالله ورسوله والمهدي أن تعفى فبكيت . ثم قال ولد النجومى هكذا
يكون أصحاب المهدي وأرسل غيرى ثم أرسل ولد النجومى من أحضر الجمال
من العربان الحسانية والقربات والهواوير بالغرب والجميعاب والعبابده والبشاريين
بالشرق فأحضرت وكان الكثير منها صعبا لم تروض بعد فروضت تحت الحمل
سافرنا طوائف للشايقية التى وصلناها فى أكثر من عشرة أيام وكان الأمير

محمد الخير راجعا من كرمه كأمر خليفة المهدي فقابلناه بصنم (مروي الآن) ورأيتة على حصانه في استعراض عمله لمقابلتنا وأشبهه الناس بابنه التجاني ثم واصلنا سفرنا بالبر والبحر حتى وصلنا (الاردى) دنقلا المركز فوجدنا الأمير مصطفى ولد جباره وضع الديم على شاطئ النيل بقرب المديرية القديمة فلما وصل ولد النجومى رفعه من محله الموجوده خرائبه الى اليوم والتي سكن بها بعض من العرب وبها قبر الأمير محمد الخير الذى أمره خليفة المهدي بالرجوع فتوفى بها .

كالعادة سكن ولد النجومى شمال الجامع بجماعته وسكن مساعد قيديم جنوب الجامع بجماعته ثم أخذت سلطة مساعد تعلو وسلطة ولد النجومى تنخفض تدريجيا . حينما وصل النجومى أرسل النور الكنزى ومعه نحو ثلثائة من الأنصار لصرص فجعلوا بها ديما وأرسل محمد أحمد هاشم الى صوارده وكنت من جماعته فأقمنا بها نحو أربعة أشهر غالب أكلنا التمر والذرة لا تصرف الا للمرضى فمن الحوادث المضحكة أن أمرنا ابن عم لى يدعى البحارى ليدعى المرض لنتمكن من صرف ملوة من الذرة باسمه لتخلط بها مديد التمر التى سئمنها ولما صرف لنا الذرة باسمه جئناه وأخبرناه ليقوم فادعى علينا نحن أنفسنا المرض لئلا يخدم ما يلزمه من الخدمة فعدنا نحركه فلا يتحرك ولا يضحك كأنه ميت فلما طبخنا العصيدة وأحضرناها نهض قائما • فى صوارده هذه اتفقنا نحن تسعة وتحالفنا على أن نذهب لحلفا نفتحها أو نسال الشهادة وكلهم رجال الا أنا لى حصان تركته فى مراحه خوفا من أن يفقدوا حصانى فيكشفوا خبرنا ويلحقونا ولكن فاتنا اننى كنت الذى أقرأ الراتب صباحا بعد الصلاة فلما غبت ظنوني مريضا فلما لم يجدونى اتبهنوا لكشف خبرى فورد عليهم رجل من قرية تسمى مرشد شمال صرص فأخبرهم بأنه رأى تسعة من الأنصار كلهم راجلون جادون فى السير فاركبوا وراءنا خيلا فيها صديقى الشيخ عبد الجليل الصادق وأرجعونا حزينين .

بين صرص وصاردة :

ثم تعين عبد الحليم مساعد قائدا عاما لجيش صوارده وصرص فنقل ديم صوارده لفرکه ليكون وسط بين العرضى وصرص فأقمنا بفرکه قليلا - فبلغ عبد الحليم أن عرب القراريش بأمر بكون ينقلون أخبار الديم للترك بحلفا فعين

سرية لترحيلهم برئاسة ابن عمه عبد الله محمد شنكوله . كنت في تلك السرية
وسرنا بالشرق حتى قابلناها اختفينا وراء الجبال حتى الثلث الأخير من الليل
اقتحمنا البحر الذي لم نعلم أنه واسع ولولا هضبة في وسط النيل ارتحنا عليها
لكننا من المغرقين ولا أنكر اني بعد ما كنت ماسكا لجام حصاني أقوده صرت
وراءه ممسكا بمؤخر السرج أحيانا وارتكز على كفله أحيانا وصباح الخير
عبدى الشديد المانع يعوم أمامه حتى خرجنا بالجزيرة متفرقين فلو كان أهلها
مستعدين لقتلنا لأكرهونا على اقتحام البحر راجعين أو لاستأصلونا قتلا فرادى
ومشنى ولكن الله سلم صبحانهم وأكثرهم نيام ما نبههم إلا صياحنا المزعج
فاستسلموا لنا فجمعنا الرجال في مكان خارج الحلة وأمر العامل الجهدية
بجمع البهائم بكل أنواعها وأختار ممن يأمنهم منا ليصحب كل اثنين منا رجلا
الى منزله ليخرج اهله وأولاده مجردين مما يحمل من الامتعة ويصل بهم المكان
الذي جاء منه ففي ظرف اربع ساعات جمعنا كل ما بحلتهم من الامتعة والغالل
والبهائم وسلمت النساء ما عندها من الحلى وكنت كاتب السرية فكتبت لكل
منهم ما سلمه من النقود أو الحلى تماما بعد ذلك رحلناهم معنا حيث دلونا على
ان بغرب الجزيرة خور صغير خضناه حتى الماعز خاضته فاسفنا لتعبنا سحرا
اوصلناهم فركة بالغرب فوجدنا الشيخ عبد الحليم قد احضر المراكب لنقلهم
ونقلنا عبر النيل فطلب الكشف وسلم كل أحد ما قيد لأسمه وعين لهم مكانا
شمال ديمنا بالغرب في جبل جحا وفرض على رجالهم ملازمة الصلاة كل الاوقات
بالجامع ومن تغيب اعتبر جاسوسا يقتل ثم رأى عبد الحليم أن يختبر حالة
ما وراء عقبة البنات أى أكمة وجزيرة كلب لأننا لم يسبق أن وصلناها لحيولة
عقبة البنات بالبر وشلال دال بالبحر فعين الشيخ حاج على ليحصل العشور من
النخيل وزرع السواقي وعيننى معه كاتبنا ايضا فخضعوا لنا بواسطة عمدتهم
آدم سليمان فحصرنا النخل شرقا وغربا حتى وصلنا جزيرة كلب وجدنا بها
الشيخ محمد صالح هلال الازهرى العالم الجليل فجعلت اكثر مجلسى معه
ووجدت عنده ضمن كتبه كتاب الخريفشى في التصوف فاهداه لى (ولهذا
الكتاب قصة ستأتى) ففي بعض الايام طلب العامل الشيخ حاج على محمد
صالح هلال بمنزل العمدة الذى بجوار قبة عكاشه وضربه بجريد النخل بعد
ما ارقده على الارض مع انه كان يجله فلما سمعت صراخ الشيخ محمد صالح

أسرعت اليه ووقفت عليه وهو راقد وجعلته بين رجلى فجاء العامل الشيخ
وكلمنى بغلظة وحده وشممت منه رائحة (الدكاى) مشروب ربما أسكر فأخذته
جانبا واسررت فى أذنه انك شارب دكايا فانتبه ودخل البيت باديا عليه الخجل
ولكن الاهالى لم يتركوا جلد الشيخ يضيع سدى بل تحركوا حركة تخشى
عاقبتها فكتبت للشيخ عبد الحليم بالخبر وارسلت الكتاب مع عبدى صباح
الخير فأرسل عبد الحليم طلبا للشيخ بالرجوع وما معه ولييقنى بأكمه وأمر
صباح الخير يقيم بفركة لحينما يعطيه الرد لى ونسى ذلك لكثرة أعماله المتعددة
المتنوعة فلما رأيتنى وحدى وحالة الاهالى مضطربة رحلت فى سور من الحجر
على ربوة شرق قبة عكاشة وليس معى أحد غير حصانى وانما يأتينى العمدة
بما أحججه لى ولحصانى مدة واحد وعشرون يوما حتى وصلنى عبد الله
شانكوله بدل الشيخ حاج على فاطمآن البلد وشرع يحبنا ويحسن ظنه حتى
صرنا كأننا منهم .

الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم :

بعد رجوعنا لفركة ذهبت للعرضى ولا أذكر السبب فى ذهابى له ولكننى
أذكر فى بعض الليالى ضرب النحاس ليلا فاجتمع الناس فرسانا ورجالا فى
ميدان الجامع ينتظرون خروج ولد النجومى من بيتيه فاذا هو الذى ضرب
النحاس واذا هو قائم على ظهر غرفة النحاس قائلا بأعلى صوته . قال الله تعالى
« الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا
حسننا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء
وابتغوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم - انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه
فلا تخافوهم وخافونى أن كنتم مؤمنين » (ألقاها بصوت ليت القارىء كان
معنا فسمع صوته ليعلم كيف يكون اللقاء المقرون بالشجاعة فى وقت الخوف
والطمأنينة فى وقت المحنة) ثم قال جاءت البوستة الآن من عبد الحليم مساعد
يخبر باستشهاد النور الكثرى ومن معه بصرص جميعهم لم ينج منهم الا حسن
ود القوز مجرحا مقطوعة أصابع يده اليسرى ومجروحا فى وجهه فالآن أريد
تعيين جيش ممن يتبرعون بأرواحهم ويكون أميرهم منهم ليذهبوا لصرص
يدفنون الشهداء ويوغلون بعد صرص لمسافة بعيدة يضعون فيها علامة تدل
العدو على وصولهم هذا المكان ويرجعون لفركه حتى يأتيتهم أمرنا فكنت من

هؤلاء وأمر علينا ولد النجومى محمد عبد الماجد صاحب قتل ابن عمه محمد
الفحل ولكننا لما وصلنا فركه عين عبد الحليم ابن عمه محمد أحمد هاشم أميراً
مقيماً بصرى وزيد جيش فركه من العرضى وصلنا سمنه ونحن بالشرق رأينا
جمالاً ترعى غرب النيل وحمولاً ملقاه فعين محمد أحمد هاشم عمى محمد أحمد
شكاك وأرسلنى معه ككاتب له . فلما وصلنا الإ حمال وجدناها بضائع سكر
وأقمشة ودقيقاً فأخذنا عشرها وأخذنا أصحابها للشرق فأعطاهم محمد أحمد
هاشم وصولات لثلاث يأخذوا منهم عشر فى كل مكان آخر فكان هذا نواة بيت
مال صرص الذى عينت أميناً له فلما وصلنا صرص دفنا الشهداء فوضعنا
العلامات بين جمى وعمكة وهى أعلام صغيرة مكتوب عليها لا اله الا الله محمد
رسول الله محمد المهدي خليفة رسول الله وتوجهت مع من توجهوا لوضع
العلامات كأمر الأمير وكان محمد أحمد هاشم دقيق المعاملة لا يؤثر أحداً على
أحد حتى نفسه وبما أنا لم نكن معنا عائلات كنا نأكل بليلة الذرة مخلوطة
بالتمر وبعد مدة جاءنا قليل من الذرة جعله الأمير فى غرفة أمسك مفتاحها بنفسه
وصار يصرف لكل شخص قدحان فى الأسبوع فطلب منه الأمراء الذين معه
أن يخصهم بشيء فرفضه بتاتا فقلت المثل الذى شاع (صرص جوعها قرص
وأمرها حرص لا يؤثر فارساً ولا فرس .) وحينما طال علينا أكل البليلة بحثنا
فى الجبل فوجدنا حجراً باصلاح قليل يصير مرحاكه أصلحناه وصرنا نطهى
بالنوبتجة الطحن على أحداً والخبز على غيره والطبخ على ثالث والملح من
تراب مالح . كان على الطبخ يوماً فطبخت ملاح لوبيا وضعت الملح فيه دون أن
أحله فى الماء وأصفية فصار طينا فضحكوا على وبما انى ماهر فى الطحن والخبز
اقتصرت عليهما . عزمت على الزواج بفركه فاستأذنت الأمير الذى سمح لى
بعد عناء وسلم بيت المال لمحمد حمودى الحضرى الذى كان تاجراً . وصلت
فركه وبنيت بيت العرس الذى كان مكعباً طوله وعرضه وارتفاعه لا يزيد عن
مترين ونصف الا قليلاً أعنى كل منهما أربعة أذرع ومكثت نحو شهرين فعلمت
أن أخى سعيد حضر بالعرضى ومعه والدى وزوجته وأولاده وسعيد راجع
لكر كوج بمأمورية فتوجهت للاردى لأوصل والدى لفركه وبوصولى الاردى
طلبت من الياس أحمد الزين أمين بيت ولد النجومى أمراً لكل العمال بالطريق
يساعدونا بالزوامل والزاد فاستلمته وقمنا فلما وصلنا بلدة بالمحس غرب دلقو

نزلنا بالسجل بفرد من رجل ناجر يسكن على جبل .
الخير في منزله ليأخذ منه ما يسكت به الطفلين من التمر فغضب فضل وصار
يسب ودخل عليه والدي بعد ما رأى سور منزله الواسع كله محاط بالسوياب
الملاى بالدرة والقمح وأنواع التمر والقطنى . انت يا فضل غضبت من دخول
العبد وأخذه ثمرات لاسكات طفلين فحينما يصلحكم ولد النجومى بجيشه
ينهبون كل ما تملكه فقال فضل والله ما يقدرُوا يعملُوا لى شيئاً مما تقول لأنى
أقفل بابى وأمسك بندقيتى فقال له والدى هم لا يأتونك من الباب وانما
يكسرون السور عدة كسور يدخلون بها حينما يرونك يكتفونك (يربطون)
يديك ويدخلون ركبتك بينها ويضعون عصا فى داخل ركبتك ويلزونك ماتشاء
ثم يأتون دفعا حتى آخر دفعه حيث يأخذون التراب الذى يكون مخلوطا بشيء
مما بقى من الغلال وأنت ملقى حتى يحلك أهلك بعد ذهاب كل الجيش فانكر
ذلك جدا فلما وصل جيش ولد النجومى حصل عليه كما صور تماما ولما جاء
أهله وحلو وثاقه قال لهم أنا كان جاءنى نبى الله الخضر وأخبرنى بكل ما حصل
ولكنى ما سمعت نصحه فدفنت محصولاتى فى التراب بعيدا عن بيتى سرنا من
عنده وكلما جئنا فى بلدة عمدة طالبناه بتنفيذ أمر بيت المال فكان الكثير منهم
يعصون لولا قوة صباح الخير لتعبنا مع أغلبهم (أكثرهم) ولما وصلنا بلدة
قرقور وجدت حمارا فى مربوط (نقر) ساقيه ترعى وكان والدى ومن معه
تقدمونى حتى وصلوا الحلة ونزلوا فى بيت الشيخ . وجدت الحماره فركبتها
لألحقهم . جاءنى رجل طويل متين أنزلنى منها فلما عارضته فيها صفعنى
فوقعت على الأرض مغشيا على فلما تأخرت كثيرا رجع صباح الخير يتعرف
خبرى فوجدنى ملقى على الأرض فلما فقت سألتنى فأخبرته بما صنع الرجل
لى فقلت هنا دربه (أثره) فتبعته فوجده بساقيته والحماره ترعى بجانبه فأخذ
الحماره فلما اتبه الرجل لحقه عند مكانه الذى ضربنى فيه فمسك الرجل
الحماره فصفعه صباح الخير صفعة ألقاه بها على الأرض وكتف يديه بظهره
وساقه معنا وأركبنى الحماره حتى وصلنا المنزل فكتفه وأدخل له العصا وألقاه
فى الشمس .

سألنا عن أحمد عبد الوهاب الرباطابى وهو عامل الجهة فقبل لنا أنه
بالشرق لتشهيل سرية من أهل الغرب وهذا الذى أنتم نازلون فيه منزل زوجته

وبعد قليل حضر أحمد عبد الوهاب الذى رأى والد زوجته مكتوفا وعلم منه أن من كتفوه داخل بيته فدخل علينا وبعد أن رحب بنا أخبرنا أن الرجل المكتوف هو نسيبه والد زوجته فحللناه واعتذر كل منا لصاحبه بعدم المعرفة. يتنا الليلة عندهم وفي الصباح بارحناهم على رواحهم ثم وصلنا فركه ورحلنا منها بعوائلنا الى صرص التى استقمنا بها حتى جاءنا ولد النجومى .

أوغلنا فى أرض الحجر والتحمنا مع الترك :

وفى صرص رأى عمى على شكاك أن تنفصل من راية مكين النور ومن راية على حمد السيد الرباطابى وتتبع راية عبد الحليم مساعدو فعلا تبغناه وذلك لأسباب اقتصادية وقد صار عمى على شكاك وكيلا للراية وصرت أنا كاتباً نائباً للشونة وأمين الشونة يدعى فرح صاحب محمد والباشكاتب بابكر كرم الله عبده وبالنسبة لكثرة عائلتى وقلة الغلال صرت أختلس الغلال كل يوم صرفية مع من آمنهم حتى جمعت أكثر من أردب جعلته فى عدلين تمارتين ووضعتهما بغرفتى الخاصة بى وزوجتى البقيع بنت عثمان فاشتبه فى أمين الشونة وأخبر عبد الحليم الأمير الذى قرر رفتى فاتهمت عمى على شكاك وأخبرت والدى الذى حكم قياسا بخلقه ونهائى أن أعتقد ذلك فبعد قليل أراد عبد الحليم مساعد ارسال مراكب للسكوت والمحس لتأتى بالغلال والتمر وعلف الخيل فكتبت اسمى ضمن مندوبى هذه المأمورية وعرض الكشف على عبد الحليم الذى أقره مبدئيا وبعد ما قابله عمى على شكاك بعد يوم شطب اسمى واسم قريتنا عطا المنان القويضى وهو عديل عمى على وبينهما خصام فعارض عطا المنان عبثا وقال للامير انت ظالم لأنك تسمح لابن أخيك هاشم سنويا يمر على القسمين فيرجع منها غنيا أما أنا لم أتكلم ولكن أقنعت والدى أن عمى على هو الذى سعى فى هذا التأخير وقبل قيام المراكب توجه به عبد الحليم لغرفة الهجرة فدخلت معه فيها وصارحته بما يأتى يا عمى عبد الحليم نحن ما خرجنا من رأيه مكين ولد النور وفارقنا أهلنا الرباطاب الذين بقوا بها الآن الا لنال منك بعض الراحة فى عيشتنا لقدرتك لأنك تعلم أن الدين واحد فى كلا الرايتين فأنت يا عم عبد الحليم رفتى من الشونة والآن شطبت اسمى بعد ما صدقت مبدئيا فهذا العمل يشين سمعتى زيادة على تضيق عيشى مع علمك بكثرة

من أعولهم فإذا كنت مصمما على هذه المعاملة لى فانى أنصحك بأنى وكل من فى
مقدومية على شكاك ينفصلون معى حتى شقيقه محمد أحمد شكاك فاسأله أن
شئت فارسل له أمامى وسأله عن صحة قولى فقال له عمى على شكاك والده
موجود معنا وهو كبيرنا فإذا أمرنى نفسى بأن انفصل منك لا يمكننى أن أخالفه
وخرج عمى على شكاك فقال لى عبد الحليم أنت تسافر فى المراكب قلت والآن
عائلتى عريانه فاكتب لى لبيت المال كسوة فقال لى اكتب ورقة من كل نوع
قطعة واحدة فكتبت عشرة أنواع والعبادة يكون الأمر بالصرف هكذا :
« المحترم أمين بيت مال صرص - أصرف الأشياء الموضحة أعلاه لفلان ازالة
ضرر » فعرضت له الورقة فمضاها بخطه فأخذتها وحفظتها الى آخر يوم
تسافر فيه المراكب ليلا لتصبح فى شلال سمنه صباحا فجعلت يمين كل عدد
صفرا ومشيت عند الغروب ومعى صباح الخير لمحمد حمودى طلبت منه صرف
الاذن فقال لى : أنا ماشى للجامع تعال غدا فقلت له لا يمكن أن تتحرك قبل
أن تصرف لى فلما رأى صباح الخير معى وهو وحده رجع وصار يرمى لنا
كل نوع حتى يكمل العدد يرمى لنا غيره حتى أتمنا الصرف فربطت من كل نوع
تسعة وسفرت بها أخى موسى للعرض فباعها واشترى لنا من ثمنها ناقة وحملها
غلالا وجاء بياقى النقود وجعلها رأس مال دخل بها السوق جزارا مرة وتاجر
فاتورة مرة أو غلال وهكذا ونحن سافرنا سحرا بالمراكب كان عامل دلغو محمد
الحاج الخضر قىلى من جيران شيخنا الفقيه أحمد الكراس ومن سكان رفاعة
فلما رآنى رحب بى ترحيبا حارا وعاملنى معاملة جعلتنى عنده واسطة خير لمن
جاءوا معى فأعطانى أردبين غلال وثلاثة أراذب تمرا وأرسلنى فى المركب التى
تصعد شلال كاجبار حيث المندوب بها الصافى ود حاج عبد الله الذى هو فى
قيد الحياة بمشرع أبى روف فأعطانى بدوره أردب تمرا ومائة كليفة قصب
لحصانى ورجعنا لدلغو فجعل الجماعة يكلفوننى أتوسط لهم عند محمد الخضر:
صار يقول لى اعطه كم ريالا أقول له ريالين ثلاثة يعطيه فبعد مرتين قال لى
(سجم أمك) فعلمت أنه يعطيهم مما قرره لى فأمسكت عن الوساطة وجدت
ما بقى واحد وعشرين ريالا من ثلاثين ريالا التى كان قررها لى هدية فأخذت
كل ما أعطيت ورجعنا بالمراكب فحاول عبد الحليم أن يجردنا مما معنا ولكننا
وسطنا له الشيخ العاقب قاضى السرية الذى هددناه بأنا نشكيه عندك فنصح

له بقوله أنه اذا اشتكوا له يحكم لنا ضده فتركنا وشكرنى أخوانى على رأى. هذا وبعد ما سافرنا بالمراكب شكانى محمد حمودى لعبد الحليم بأنى ضايقته وهددته بعبدى أخيرا وأخبره بالأعداد التى استلمتها منه فبعد رجوعى طلبنى عبد الحليم وقال لى أنت صلحت الورقة قلت له أنت حينما صدقتها كنت محموما وهل مثل عائلتى يكفيها عشر قطع وكان القاضى حاضرا وهو رباطابى ويعرف أفراد عائلتنا بالأسماء والذوات . فقال لعبد الحليم لا يمكن أن تكسى عائلتهم بأقل مما استلم وانتتهت المسألة بعد قليل اشتد الجوع وحصروا عدد العائلات بدقة فاحتجنا الى عدلى التمر اللتين اختلستهما حينما كنت بالشونة فوجدناهما فارغين فعلمت أنه أخذه من لا يرده ولا أستطيع أن أتهمه ثم أعذر اليه لأنى لا يمكن أن أستغنى عنه فى اشتداد هذا الحال الذى بلغ فيه الربع المصرى من الغلال أربعة ريال مجيدى - رأيت بعينى الشريف سليمان العبيد يخرج كل جمعه جوالا من الغلال يقسمه على الناس خارج بيته فى الشارع عدة جمع متوالية ولم أر ازدحاما من الناس غير اعتيادى حتى يؤذى بعضهم بعضا فجعلت أتعجب من كرمه وقناعتهم البادية فى نظامهم .

فكان موسى أخى وصباح الخير يأخذون الحمارة والناقة يتوجهون ليجلبوا رطب التمر أو كلما سمعوا بأن الأهالى يريد قتل السمك فى بعض الترع يحضرون بينهم فيأتون بسمك كثير ناكل من طريقه وتقدد الباقي لحفظه . خرجت سرية برئاسة عبد الحفيظ شمت فغزت طابية خور موسى باشا وبعد ما دخلوا القيقر جاء المدد من عنكش وأخرجوا الأنصار بعد ما قتل أكثرهم وقد رأيت عبد الحفيظ وبه أربعة عشر جرحا بالسنج تداوى كلها بالسمن المغلى وهو يستأنس مع عواده كأن المحمى عليه غيره .

واقعة الجميزة :

لم يسكت عبد الحليم على هذه الحادثة وندب سرية أخرى برئاسة حسين ولد جبارة ببعض الناس ليكونوا كقاعدة يرجع اليهم وانتدب عثمان أزرق غازيا فلما قربنا من خور موسى باشا قال قائل منا الأحسن نقلب قضيب السكة الحديد لنحتاط اذا فشلنا لئلا يقطع العدو علينا خط الرجعة فأخذنا نمسك الفلنك فلا نستطيع تحريكه لاتصاله ببعضه وربطه بالقضيب فلما تعبنا قال لنا

عبد الرحيم أحمد الرباطي أنا كنت دفنت مفتاحا يفتح القضيبي عن بعضه
فليمش معي خمسة من الفرسان يقفون خلفي لعل أجد فمشيت ضمن هذا
الحرس وبعد دقائق رجع لنا عبد الرحيم ويده المفتاح ففصلنا به قضيبيين عن
بعضهما وصرتا نقلب القضيبي بسهولة حتى قلبنا نحو ميلين أو أكثر ثم نزلنا
خور موسى باشا حيث صلينا الصبح أول الفجر وقرأنا الراتب الصغير ومشينا
حتى طلعت علينا الشمس وكلما مرت قبلة على رؤوسنا نجرى وراءها ونقول
لها سلمى سلمى فبعد وقوعها على الأرض يغوص بعضها فنأخذها من الأرض
ونفك مساميرها بواسطة من يتقنون فكها منا ثم نفرغ بارودها ونحفظه ولكن
لا ينفع وبعد ساعة على وقوفنا صفوفنا والخيال ترقص لمسافة وترجع للصف
كأننا في عرضة الجمعة إذ رأينا حركة غير اعتيادية نحو عنكش فتأكدنا أنه
استعداد جيش للخروج علينا فكررنا راجعين ولكننا راجعين بغير طريق البحر
فندب منا خيل كنت من ضمنها لتسير على طريق البحر الذي جئنا به لربما نجد
مريضا أو فترانا أو خائنا يريد الدخول للقيقر وصحب جيشنا ليتوصل به
لغرضه وفعلا وجدنا ما ظننا فدرجنا العاطل وبعد ما تعدينا ما قلبناه في سكة
الحديد جنوبا اطمأنينا فوجدنا نخلة بها رطباً ومشرا سها لسقى الخيل فنزلناه
وطلع صباح الخير النخلة يرمى لنا الرطب ونحن نأكل مطمئين إذ رأيت ذيل
حصان أبيض في ثنية جبل فقلت لصباح الخير انظر شرقا ماذا ترى فصاح :
« أخوانكم معكم » وهي جملة مصطلح عليها تنبئ بوصول العدو فألجمنا
خيلنا وركبنا فلما تقدمنا قليلا رأينا السوارى والهجاة قريبا منا فالتفتنا لهم
وكررنا عليهم ونحن قليلون فهربوا منا وطلعوا الجبال فطلعنا وراءهم فأصيب
حصان أحدهم المدعو أبا يزيد ادريس من أخواننا الدناقلة فكسرت رجل الحصان
الذي رفعها وجرى نحو خيل العدو فأخذ أبو زيد خمسة من جمال العدو وكانت
باركة في سفح الجبل وأصحابها بعيدون عنها يحاربوننا ولما طلعنا في سهل بين
الجبال ضربت أحدا بحربتي الكبيرة فانشى سنانها فرميت بها كما أن ثوب
غطائي وقع في الأرض أثناء المقاتلة مع العدو فرأيت مكانه بقرب الحسرة
واشتغلت عنها بما هو أهم منها وكنت طعنت عسكريا مصريا ونحن بالأرض
فوقع على جسر السكة حديد قبل طلوعنا فلما طلعنا الجبل معهم صار العدو
وهو أضعافنا إذا هجمنا عليه يتقهقر وإذا تركناه يقدم علينا وما زال كذلك

حتى سمع جيشنا الذي سار بغير الشاطئ صوت السلاح فقدم اليينا وفي هذا الكر والفر قتل بكباشا انجليزى وأخذنا جمالا منهم وما زالوا يدرجوننا حتى أوصلونا البيادة عند رأس السكة حديد المقطوع فوجدناهم مصطفىين فلما رأنا ورأيناهم قال أحمد أبو سن أمير اللحويين لعثمان أزرق الأمير العام الأحسن أن نقف وراء هذا الجبل وتترك العدو يقدم علينا فنهجم عليه في هذا السهل ولا نمكنه يؤذى الخيل والناس فرد عليهم عبد الحفيظ شمت « الخيل خيل المهدي تموت في سنة المهدي » فسكت أحمد أبو سن ووضع رجله على قربوس حصانه فلما استعد العدو رمانا بطلق متحد فهرب عثمان وعبد الحفيظ وغيرهم وأنا هربت معهم ولكن بعد ما تقدمت مسافة قليلة التفت فرأيت أحمد أبو سن ومعه ابن عمي المدني مصطفى والطاهر اسحاق الزغاوى واقفين مكانهم فرجعت لهم وقلت لأحمد أبي سن لماذا أنت واقف ؟ فقال : خيل المهدي تموت في المهدي — فأخذت لجام حصانه وقدته ورجعنا ولكننا نزلنا بطريق البحر فوجدنا عمي محمد أحمد شكاك ومعه كثير من الرجال فلما وصلنا مكان العسكرى المقتول على جسر السكة حديد قطع عمي محمد أحمد رأسه وقد أدخله في مخلاه فلما قابلت الطريق الذي صعدنا به في الجبل صعدت به رغم معارضة عمي محمد أحمد لأخذ ثوبي وحررتي وصعدت فعلا فوجدتها ووجدت بجانبها برنيطة بهلالها ولما وصلنا صرصر راجعين أرسل الجمال ورأس العسكرى وبرنيطة البكباشى لود النجومى الذى أرسلها بدوره لخليفة المهدي • هذه الواقعة تسمى واقعة الجميزة •

بعد قليل عينوا عثمان أزرق أميرا علينا ونحن سوارى وبيادة مجموعنا أربعمئة رجل غزونا في بلد يدعى — سبرى — شمال حلفا بالغرب • دخلنا البلد عند شروق الشمس ونهبنا بهائمها ومحصولاتها وكان البصل كثير فتعرض لنا رجل يدعى خليل ابراهيم وأظنه مستخدم حكومة برمى رصاص بندقيته علينا فدخلنا عليه في مكتبه وقبل أن نصله رماه أحد المجاهدين برصاصته فقتله وبعد قليل حضر الوابور يحمل بلكا من الجيش فواقعهنا على بعد السلاح ولم نختلط بهم ولما اشتد الحر كررنا راجعين قبل أن تتزود من الماء الكافي فعند الغروب قسموا لنا بصلا خفف علينا وطأة العطش ومضينا سائرين أكثر الليل حتى وصلنا شونة الحديد جنوب حلفا بالغرب حيث يربط بعضنا

هناك فشربنا وارتحنا ثم استأنفنا السير لصرص حيث قسم عبد الحليم ماوصلنا به من متاع على الرايات بالتساوى الشيء الذى لم يرض به الأمير حموده ادريس الهباني نائب مساعد قيدوم بصرص ولكن عبد الحليم لم يبال فكتب حموده لمساعد بالأردى الذى أرسل كتابه لخليفة المهدي .

بين خليفة المهدي وولد النجومى :

طلب الخليفة عبد الله من عبد الحليم أن يحضر الى أم درمان ومعه ولد النجومى فى دوره الأخير فلما وصلوا أم درمان عتب خليفة المهدي عليهما ولما رجع عبد الحليم لصرص قال له عمى على شكاك ليتك أخذتني معك لأرى خليفة المهدي فقال له عبد الحليم والله لو مشيت معنا ترجع منكرا فيه مما تسمعه وما تراه من غيره . قيل ان خليفة المهدي وبخ ولد النجومى بقوله « انت يا ولد النجومى هوين أخوانك الذين معك كلهم استشهدوا فأنت الى متى تحيا خائفا من الموت . وبرجوع ولد النجومى صار الخليفة يرسل له ما يسميهم بالأمناء لينظروا فى الخلاف الذى بينه وبين مساعد قيدوم حتى آل الأمر الى ارسال يونس الدكيم رئيسا عليهما معا فلما وصل يونس الأردى وقرأ أمر تعيينه بالجامع فى حفل حافل بعد صلاة الظهر بأن يكون كلا من ولد النجومى ومساعد ليونس كالميت بين يدي المغسل فما كان من ولد النجومى تلو انتهاء القارىء الا أن تقدم ليونس الذى كان جالسا بالمحراب فسلمه سيفه وحرابه وقالوا أنه سحب سكينه من ذراعه الشمال ووضعها مع ماقدمه من سلاحه فشكره يونس الدكيم بقوله : « بارك الله فيك أنت يا ولد النجومى من أبكار المهدي عم — ومن أعظم قوادنا المنصورين ثم تلاه مساعد قيدوم فعمل مثل عمله فانقاد ولد النجومى اقيادا تاما وترك السياسة تركا باتا حتى وانى رأيتة يخرج من بيته للصلاة ويرجع منفردا مما أدى الى احترام يونس له اما مساعد قيدوم فانى رأيت يوما يونس فى العرضه يوم الجمعة يناديه قائلا له مساعد كى : انزل خذلك طلقه المعنى ، انزل من حصانك وخذ حربتك وأجر برجليك مسافة ثم ارجع جاريا دون أن تقف وهكذا يفعل صعاليك القوم فعندما ينزل مساعد قيدوم ويبعد قليلا يلتفت يونس الى من معه قائلا : « الله عليك ما خليت لأك عبيد » سخريه به فيرجع ويركب حصانه فبعد قليل يكرر له هذه العبارة مرتين أو مرات كان سلاح النار أيام ولد النجومى برئاسة

حسن بن عمه فلما جاءه يونس عزله عنه وولى عليه أحد عبيده ثم أطلق يده فعزل كل عمال ولد النجومى من تحصيل الضرائب وأبدلهم بعبيده فى الأماكن الطيبة والأماكن الأخرى كالمحس والسكوت يعين فيها من يقدم الهدية الكبيرة أو الخدمة الجليلة وإذا نafs بعض عمال ولد النجومى بعد عزلهم سجن وضرب وبعضهم جمع له العقابين ومن ضمنهم من يدعى محمد نور الكتيابى عامل الخندق فقد أمر بضربه خمسمائة سوط فضرب على صلبه حتى تفرع وورم ثم ضرب على بطنه حتى أصبح يؤتى به منبطحا على حمار فنظروا الى مكان يضرب عليه فلما لم يهتدوا له قال لهم اتم نسيتم لسانى وأخرجه لهم فتم الضرب على رأسه وضرب الشيخ عوض الكريم بن على الذى كان يدرس العلم الى عهد قريب بالمعهد العلمى بأم درمان ويؤمن بعض المصلين فى صلاة المغرب فى شارع الأربعين الى اليوم ضرب خمسمائة سوط لأنه كتب نصيحة وألقاها ليونس دون امضاء فاتهم بها العمال الكبار المعزولين لأن عوض الكريم اذ ذاك كان عمره فوق العشرين سنة قليلا أو فيها - فلما رأى أن غيره سيعاقب بجريمته وخصوصا القاضى عثمان عبد المطلب الذى وجهت له التهمة أكثر من غيره كما اعتبرها يونس جريمة قدم نفسه له وأخذ جزاءه فهذه شهامة ونباله عظيمنتان .

يونس ودالكيم أميرا عاما :

فى أيام يونس اشتدت علينا وطأة المجاعة بصرص حتى صار بعض الأنصار يرحلون من صرص فاجتمع أمراء الدناقلة عند عبد الحليم فتحادثوا فيما يرفع الجوع ويهجموا حلفا يموت من يموت ويرتاح الحى من هذه الحالة فقد رأيت شيخ ادريس أحمد هاشم وهو على حصانه الكبير الجسم الجميل الصورة وقال يا أصحاب المهدي أن جيم الجوع مقرونة بجيم الجنة فى كل أنحاء السودان خصوصا فى ثقور الرباطات فمن أراد أن يستريح من الجوع فليقلع الجبة ويدخل حلفا أو ماوراءها فيرتاح من الجوع فكانت هذه الجملة نهاية المجلس الذى كان معقودا على ظهور الخيل فى مكان العرضه وفى رمضان سنة ١٣٠٥ هـ أرسل ولد النجومى جانبا كبيرا من الأبل التى غنمت من قبيلة رفاعه أبى روف لنا فى صرص فقسمت على الرايات وذبحت فتعشى الناس من

لحمها ولما جاء وقت السحور أنا في ذلك اليوم ما صحوت للسحور ولكن زوجتي وأخواني وكل جيرانا قالوا انهم رأوا كهرة تنبعث من اللحم حتى انك لترى في فم الماضغ المضغة يمزغها كأن الوقت نهار فما العلة يا ترى في هذه الظاهرة وكيف يعلمها العلم أما تعليلنا لها في وقت حدوثها فانا نعتبرها كرامة لنا كما اعتبرنا الضوء الذي يلمع من رؤوس الحراب ليلا والنار التي تأكل أجسام من تقتلهم .

من ضمن عمال يونس ولد الدكيم بالمحس سعيد أخى الأكبر الذى كان يندبه الأمراء بدقيلة ليحضر لهم الرماح للحراب من كركوج فلما تحقق قرب قيام ولد النجومى من العرضى لغزوة القطر المصرى جمعنا والدى وقال الأحسن أن تعطونى العائلات أسكن بها مع سعيد بالمحس وأتتم سافروا مع ولد النجومى . اذا قتلتم الترك فاحضروا لنا الوابورات البحرية لنصلكم بها وأن هزمتهم تكونوا خفافا ترجعوا لنا فنجتمع وكانت والدتى الصماء العقيدة فى المجلس فهجمت على والدى وقبضت على خده وقالت له « هوى يادا الراجل الكافر صد براك من الله نحن ما صادين شى » فضحك والدى ورجع فعلا لسعيد وبقي معه حتى هزمتنا ورجعت له زوجته الثانية فأخذها وتوجه لكر كوج . كان والدى يقول ذلك وهو على يقين أن جيشنا سيهزم ومن أقواله ان ولد النجومى بليد يسافر بلا مؤونة قالت له والدتى لا تتكلم فى ولد النجومى رابع الخلفاء وما زالت مؤمنة الى أن توفيت بأم درمان وهى تقول « أحيى يا رقيده فى ضل القبه » المعنى واشوقى الحار التمنى رقدته فى ظل قبة المهدي « عم »

كنت فى ليلة أقرأ فى كتاب الحريفشى على ضوء عود من خشب الفلنك المدهن وكان رأسه المضىء لأعلى وزوجتى بجانبى فلما أطلت القراءة أخذت العود وطمسسته فى التراب وقالت : « كفاك قراية » فوضعت الكتاب على الأثافي وقمنا لننام ففى سحر تلك الليلة ضرب النحاس فركبت حصانى كالعادة وسافرنا لجهة حلفا ، لما بلغنا أن الترك يتحركون لصرص فأقمنا فى هذه السفرة ثلاثة عشر يوما ما فككنا الكرايات ولا قلطنا الجيب وفى كل ليلة لنا خفراء ورباطنا وصل الى ما بعد حلة جمى ولما لم يأتنا أحد رجعنا فوجدنا أن الديم بصرص تحول غربا استعدادا للسفر مع ولد النجومى عندما يصل صرص ووجدت فى محل منزلى عليه ردم السقف فما استطعت الحصول على كتاب الحريفشى

لضييق الوقت فانتظرنا ولد النجومى بالغرب وسافرنا معه يوم ٢٨ رمضان
سنة ١٣٠٦

واقعة أرقين :

حينما رحل الديم للغرب سافر يوسف أخى وهو وقتئذ تحت البلوغ
ومعه صباح الخير الى العرضى ليأتونا بمؤونة فلما رجعا وجدانا سافرنا فعلا.
قبل أسبوع أخبرنى يوسف وهو صادق كما يعلم عارفوه أنه قال « لم أقتنع
بسفركم حتى عملنا طوفا من الفلنك وعبرنا النهر للغرب فدخلت الديم فوجدت
صاحبى المدعو ماسكا رجلا من شخص ميت معه فى البيت
ويمضغ فيها فلما قربت منه لم يعرفنى وناديته باسمه فالتفت على ولم يعرفنى
فعلمت أنه فى غيبوبة فتركته ورجعنا للشرق حيث توجهنا لوالدى بالمحس
فأم درمان » أما نحن فسافرنا مع ولد النجومى وأميرنا عبد الحلیم فلما وصلنا
شونة الحديد قضينا فيها الليلة وعند السحر ضرب النحاس وفى أثناء الاستعداد
للسفر طلع الوقت فصلينا الصبح ولم نقرأ الراتب فواصلنا سيرنا . فما طلعت
الشمس الا ونحن قبالة أرقين حيث نرى النخل على مسافة ثلاثة أميال تقريبا.
نزلنا الى البحر فوجدنا النخل حمله كله نيا فقطعناه لأننا جائعون وأخذنا الماء
للعائلات بالديم ورجعنا لمقابلة العدو الذى ما كان يعلم أين نزلنا ورتب الجيش
كالآتى : -

ولد النجومى ووزيره عبد الحلیم بقيا فى الديم - حسن جباره بسلاح
النار قبلى أرقين بالغرب من قبالة التوفيقية - الأمير ولد أبيض بحرى البلد
مع الطبجية والمدافع استعدادا للوابورات التى تجيء من الشمال والفرسان
والقراصة فى الوسط . بعد قليل نحو الساعة ٣٠ ظهرنا قد ظهرت الوابورات
والبيادة فهجم علينا البيادة فلما هجمنا عليهم تقهقروا حتى قابلنا الوابورات
وصرنا نحن والعساكر الذين رميناهم فى شاطئ البحر تتحارب والماء الى وسط
أجسام بعضنا أو أعناق البعض ومكاننا به زرع ذرة فكان يعيقنا ولما علم القائد
الانجليزى بأن لنا مدافع صوب على غرفها مدافعهم فهدت قذائفهم المدافع ومن
يستعملونها ولم ينبج منهم أحد وكنا نظن أن حسن جباره ينجدنا بسلاح النار
ولكن أرسلت اليه أرطة ضربته فانقسم جيشه أقسام بعضهم ماتوا وبعضهم

هربوا لديننا وأكثرهم سلم للأرطة لأنهم سودانية وتلك الأرطة رجعت إلينا
في جنوب الوابورات والأرطة التي كنا نحاربها من بحري فلما كان نحو الساعة ٥
هجمت الفرسان منا على الأرطة الجنوبية ففى نحو عشر دقائق لم يبق رجل
وحصانه سالمين الا قليل منهم ونحن القراية (البيادة) اضطررنا الوابورات
والأورطة الشمالية للتقهقر .

الكوز مجيدى :

سبق فارس يدعى عبد القادر العجب بالخبر لولد النجومى الذى كان
ومن معه واقفون خارج الدير فلما قال له عبد القادر ناسنا كلهم ماتوا رد عليه
ود النجومى مغضبا « أنت مالك مامت » أى لأى سبب أنت لا تموت مثلهم •
رجعنا للدير ليلا مهزومين • ثم بتنا ليلتنا وأصبحنا مامنا أحد له رغبة في الجهاد
ولكن بعض الناس لهم عائلات مثلنا باكروا النهر وأخذوا الماء قبل أن تحضر
الوابورات التي وصلت نحو الساعة ٦ صباحا ومنعت الناس من أخذ الماء أو
التمر النيىء فلما صار النهار الساعة ١٢ صار كوز الماء بريال مجيدى قول
شاعرهم من القراريش مظهرا شمتتهم علينا :

مهير ود هاوس اب حيلة شديدى حجر المويه خل الكوز مجيدى
من قصيدة أثرت فينا أثرا سيئا لم أحفظ منها غير هذا البيت وقد رأيت
بعينى أحمد عبد الحليم طلب من موسى أخى ماء يشربه فملاً موسى له الكوز
ملئاً • انظر لكرم موسى رحمه الله حتى فى أضيق الساعات • فى تلك الساعة
كان الياس ولد أحمد الزين - أمين بيت مال ولد النجومى - فى النزع ووالده
الشائب معه فدخلت عليهم فى خيمتهم ووجدت ولد النجومى معهم يقول لوالده:
يا عمى أحمد الياس الحمد لله منح الشهادة • فانا استشهد من بنى عمى وأولادهم
فلان وفلان وعدد نحو سبعة أشخاص فرد عليه أحمد ولد الزين : يا شيخ عبد
الرحمن أنا لا أحتاج الى تسلية - اسكت بارك الله فيك أنا ماجئت من بلدى
لا أكسب مالا أو جاها وانما جئت بأولادى وخرجت عن عمارتى للموت وفى
ساعتنا تلك توفى الياس فجهزناه ودفناه فى قبر وحده فذكرنى ابعاده البيت
الذى يضرب به مثلاً للتعقيد اللفظى فى علم البلاغة :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

في تلك الليلة انعقد المجلس الأعلى للحرب بعضهم حسنوا الرجوع حيث
أنهم هزموا في أول موقعة وأعظم قوتهم ذهب فتورطهم في بلاد العدو يعتبر
انتحارا وكان من أهل هذا الرأي بعض أقارب ولد النجومى وعبد السلام
الحاج بله والبعض الآخر ومنهم ولد النجومى قرروا الاستمرار في السفر .
ففي تلك الليلة رجع بعض ممن حسنوا الرجوع فألحقهم ولد النجومى من
ردهم . وفي صبيحة يوم ثالث الموقعة بارحنا أرقين بعد أن حرقوا المثقات
كالخيام وبعض سروج البهائم التى ماتت وعنقريبات . وحينما مررنا على
جروف فيها بامية وملوخية فكنت من المتأخرين فكان من سبقونا يأكلون البامية
وورقها وفروعها ولما أتينا بعدهم قلعنا العروق ومضغناها نستحلى طعمها ولم
نأنف من لزوجتها التى لولا شدة الجوع لما ساغها فم ولما قبلتها معدة فوصلنا
فرص وما تكامل الجيش بفرس حتى الساعة ٣ بعد الظهر مع أن المسافة لا تزيد
على سبعة أميال تقريبا فوضع الديم كالعادة على بعد أربعة أميال من النهر
خوفا من سلاح الوابورات وناهيك بأن الزمن فيضان والوابور يكشف بعيدا
وكان عمى محمد أحمد شكاك مجروحا في ركبته والمدنى وهو ابن عمى وزوج
شقيقتى الكبرى السهوة مضروبا في ابهام يده اليمنى فلم يبق معى غير موسى
أخى الذى بينى وبينه أربع سنوات ومعنا غيره - أختى وبناتها ووالدتنا وأختنا
الحسنى وعمرها نحو اثنتى عشرة سنة وأختنا أم طبول والبتول وزوجة والدى .
فعملنا بيتا من حرام وأثواب وسكنا نحن جميعا فيه وفي المساء نزلت
البحر وأحضرت الماء على أحد حمارينا وفي الصباح قال لى موسى أما أن تأتى
بالماء وأنا آتى بالتمر أو العكس . أختار موسى الماء ثم رجع فقال لى أنا أعرف
ظلوع النخل أكثر منك فأنت اذهب للماء وأنا أذهب للتمر توجهنا معا كل على
حمار حتى قربنا من النهر فموسى توجه نحو النخل فوقفت مكانى أنظر اليه
لأنه لا يعرف طرق الحرب حتى رأيته طلع النخلة ولم يكن أحد هناك من العدو
فذهبت للماء فوجدت كثيرا من الناس واقفين وراء المنازل ورأيت وابور البحر
وسط النيل فوضعت سيفى وحرابى عند من أثق به وربطت سرج حمارى جيدا
وضرته بالعصا فلما وصلت الشاطيء وجدته عاليا فحملت الحمار من صلبه
ودحرجته حتى وصلت النهر وهنا أقول الواقع ولا أحمل الناس على تصديقى
فيه حملا والله يعلم انى ما أقوله وأكتبه هو الواقع وضعت القربتين في الماء

وجلست بين الرصاص حتى بليت القربتان ملأت أحدهما وأوصلتهما قريب
السهل خوفا من أن تظهر فيأخذها أحد ثم رجعت للقربة الثانية فملأتها وبدأت
أربطهما فانقطع حبلها ولا أدري ما قطعه ولكنى فى تلك الساعة تصورت أنه
قطعه رصاصة لكثرة الرصاص حولى ولكن الله سلم • فرغت القربة وطلعت
أكفى بالأولى ثم تذكرت انى أربطها بدكة سروالى فرجعت للنهر وصرت أملا
القربة فوقف من فى الوابور عن ضربى ولكن حمارى المكتوف ضربته رصاصة
فى عرقه فأخرجت القربة الثانية بجوار أختها ورجعت للحمار وضربته بالعصا
فوقف نشطا فسقيته وطلعت حملت عليه القربتين وذهبت مسرعا • سبقت موسى
أخى فشرب الناس وبعث من الماء ستة أكواز بستة ريالات مجيدى • اشتريت
بها لحما جقودا ثم حضر موسى بالتمر فأخذت السهوة تعد لنا الطعام وهو مركب
من التمر الأخضر واللحم الجقود أى لحم الجمال التى فترت من المشى لضعفها
تطبخه معا فى قدر النحاس •

فى شأن الله والرسول :

لما جاء أخى موسى شرب وأخليت له مكانى وجلست فى صدره وزينب
بنت السهوة جلست فى حجره ونحن على تلك الحالة اذ وصلتنا شظية جله من
المدافع التى نصبها لنا العدو فى الشرق فضربت أخى موسى فى صلبه
بعد ما خطفت رأس البنية التى ماتت وهى قاعدة لم يحصل منها حركة غير صم
فبها أما موسى فكسرت صلبه فبهتنا جميعا من رجتها فكل منا ظن أنه الذى
ضرب • فبعد ثوان قلت من يكشف الحقيقة غيرى فقممت وهزرت بدنى
فوجدته سالما ورأيت البنية وأنا عارفها ورأيت أخى موسى يئن فالتفت الى
الباقيين وقلت لهم كلكم سالمون الا موسى وزينب فأخذت والدتى حربة صغيرة
كانت بجانبها فهزتها وقالت موسى ولدى وهبته لله تعالى • دفنت البنت وأصبحنا
مقيمين لكثرة الجرحى وفى الليلة أحضرت لموسى مديدة غلال قليلة رقيقة فأطعمته
ايها كأنى أجرعه ماء وحيث لا اسعافات ولا أطباء أصبح الجراح متعفنا وحالة
الجريح متغيرة فى تلك الساعة ضرب النحاس وقام الجيش وقام معه المدنى
وعمى محمد أحمد وعلى شكاك والمنصور أبو كوع وموسى الشامبى وكلنا
كنا فى تاية واحدة وركبت السهوة على حمار والحمار الثانى حملوا عليه الأمتعة

وربينا أنا وأمي والحسنى مع موسى فجاءني عثمان أزرق الذى كان مسند اليه
تنفير الناس من الديم مهما كانت حالاتهم لئلا يؤسرون فيقتلون لأن الترك في
أول أمرهم كانوا يقتلون الأسرى فلما قابلنى عثمان أزرق قال لى قم قلت وهذا
وأشرت الى موسى المحتضر فقال لى أتركه لى الله قلت لماذا لا تترك حاج أحمد
أخاك وأركبته فى « شبرية » هودج كالعروس فضحك وفاتنا ثم أنى أخذت
قحفا ووردت البحر وأتيت بالماء فيه سقيت أمى وأختى وصرت أنقط الماء لأخى
فى حلقه حتى فاضت روحه فكفنته فى فردته الدمور وفروته التى ربطتها عليه
وحفرت الرمل من خلفه حتى انهار جسده فى الحفرة فقلبته نحو القبلة وهبلى
عليه الرمل وودعته بما قرأته له ومشينا عنه فلما خرجنا من الديم وكنا آخر
من خرج منه لحقنا فارسان من الشايقية على ما أظن فلما قربا منى أجلس
والدتى على حجر وكانت ضعيفة البصر فبعدت عنها نحو الفارسين ومددت
البندقية نحوهما فرجعا عنا فأخذتها ثانية وأومات لهما بالبندقية فرجعا نهائيا
فأخذت ييدها وجعلت أمشى كمشيها فاذا عثرت على حجر قالت : « فى شأن الله
والرسول » رافعة بها صوتها بحماس (أنظر يا قارئى لهذه العقيدة التى تجعلنا
لا نشعر بفقد الصديق الشقيق المفيد فقد فى وقت الحاجة اليه ثم مات ميتة غير
اعتيادية ثم دفن دفنا رخيصة بلا أحد يضمه ولا صلاة ولا غسل ونحن فى حالة
مجاعة وعدم أمن وفقدان نصر وكل هذا لم يؤثر فى عقيدتنا ولم يضعف من
معنويتها هذه والله هى التعليمات القيمة والقيادة الدينية الخالصة) . ولما مشينا
نحو الساعة ارتفع النهار واشتد الحر وتعبت والدتى • لذلك تركتهما فى ظل
جبل عال على قارعة الطريق ومشيت بنفسى فلحقت الجيش الذى وجدته نازلا
قبلى حلة بلانا شمال أبى سنبل نحو ميل أو أقل - قصدت صديقى وابن عمى
وابن خالى عبد الله حاج الحسن قديلاوى قلت له أنى تركت أمى والحسنى
أختى فى ظل جبل لعجزهما عن متابعة السير وجئتك تعطينى جملك أوصلها به
فقال لى أقعد حتى يأتى الجمل من البحر • وبعد قليل حضر الجمل وعليه قربتان
ملائتاه ماء فقال لى اركبه فركبت لما وقف الجمل بى سمعت والدته تقول له
يا عبد الله تعطى بابكر الجمل وعليه قربتا ماء فوقفت لأسمع رده عليها
فقال لها الجمل اذا سلم بابكر وأوصله البلد ابتاع رخيصة بل بيع بأعلى ثمن •
سررت لرده هذا ولكزت الجمل برجلى فانطلق بى حتى وصلتتهما • ركب

والدتي والحسنى خلفها وقدت الجمل ولم أسقهما ولا غيرهما من القريبتين
حتى أنزلتهما بمنزلنا وأدخلنا الجمل لصاحبه وقلت لوالدته عمتي الحاجة آمنه:
هذا الجمل وهذه القريبتان لم يحل وكاؤهما فانكسفت وقالت لى : الجمل
ياولدى جملك والماء مأوك فلم أذكر لها ما قالت وانصرفت شاكرًا عبد الله الذى
مكنى الله تعالى من مكافأته حينما احتاج لى وأنا غنى بحمد الله .

أنا والحمار بين الماء والنار :

فى المساء نحو الساعة ٤ أخذت القريبتين والحمارين للبحر الذى وصلته
بعد ثلاث ساعات لضعف الحمير فوجدت الوابور بعرض النهر فربطت الحمارين
وأخذت قربة واحدة ربطت فمها فى رقبتى وتدحرجت حتى وصلت الماء فرقدت
فيه حتى بل ريقى ثم شربت وملأت قريبتى على مسير التيار مخافة أن يسمع
من فى الوابور صوت الشلبة فيضربونى وبعد ما ملئت أو كادت ربطت آخرها
فى صلبى وصعدت ما شيا على أربع يدي ورجلى دون أن أقف .

لو ترى يا قارئ ما قاسيته من الصعوبة لعجبت لم أجراً أن أسقى
الحمارين ولا ملأت القربة الثانية وما وصلت الديم الا قرب الفجر حيث
صليت الصبح ونمت قليلا فلما صحوت بعث فى القرية ستة أكواز بستة ريالات
مجيدى اشترت بها تمرا أخضر ولحما جقودا كما بعث أحد الحمارين الذى
كاد يموت لمن يذبحونه ويأكلون لحمه بعته بخمس ريالات ورجعت مساء ذلك
اليوم بالحمار الثانى الذى لم أجراً أيضا أن أسقيه فى البحر ولكنى حينما
قعدت فى الطريق لصلاة العشاء أعطيته قليلا من القربة فى قرعة وفى ثانى يوم
أيضا بعته بسبع ريالات لمن يذبحونه وصرت آخذ القربة بنفسى كل يوم نحو
الساعة ٣٠ ر٤ تقريبا وأسير الى البحر لأملأها بطريقة ربطها فى بطنى بحيث يكون
فمها الذى تملأ منه مما يلى صدرى والثانى وهو الواسع الدائم الربط الى
صلبى فاصل البحر وأجد كثيرا من الناس واقفين خوفا من الوابور الذى يكون
وسط البحر فى المشرع فأضع حربتى وأتدحرج وأنا راقد يعنى أتدردق حتى
أصل الماء الذى أجد برده ألد ما يكون وأنا بملاسى لتساعدنى رطوبتها على
ترطيب جسمى المحرق من العطش وتعب المشى وحر الطقس فاذا بليت القربة
فتحت فمها تلقاء التيار وسقت اليها الماء بلطف كما تقدم لئلا يظهر صوت جلبقة

الماء فينتبه لى من فى الوابور ثم أصدد ذلك المرتفع على أربع والقربة تجول فتضربنى فى حنكى وبين وركى فاذا صعدت تمت وحملتها فى كنفى وأخذت حربتى وسرت قليلا وأستريح حتى أصل الديم سحرا بعد العشاء وفى مرة وصلته ضحى لأن بعض الأنصار من جماعة الغرب لاقونى فى الطريق فأرادوا أن يغتصبوا منى القربة بمائها فتأخرت عن ميعادى فى منازعتهم فجزع أهلى جزعا شديدا وحزنوا على ظنا منهم أنى قتلت فلما رأونى سروا سرورا عظيما - كما وأنى بعثت فبعد وصولى أبيع كل يوم ستة أكواز بستة ريالات أشتري بها التمر الأخضر «القلوت» بلغة أهله ولحما جقودا لغذائهم الذى هو الوجبة اليومية . وهكذا دواليك من العشرين يوما التى أقامها الجيش فى بلانا .

حوادث :

أعطتنى حماتى يوما سENA صغيرا لأملأه لها ماء فلما وصلت البحر كعادتى وصلت الماء بطريقتى المعتادة . أخذت حربتى وملأت السعن وغرزت له الحربة على الشاطىء وهو فى الماء فتحركت الوابور بقرب الشاطىء فاخبتأت فى حرش قريب منى لئلا يرونى والقربة فى بطنى لم تملأ ف ضرب الموج السعن وقلع الحربة فانساب السعن وغرق فى الماء فلما رجعت لمكانى بعد أن بعد الوابور لم أجد السعن والحربة ملقاة فمما أصابنى من الخوف من حماتى الصعبة قلعت جبتى وجعلت أغطس فى البحر بلباسى حتى كدت أغرق وما وجدت السعن فلما وصلت الديم وجدت حماتى بمنزلنا وابنتها بجانبها تنتظر حضورى للسعن فأخبرتها بضياعه وسببه وبحشى عنه فصرفت وجهها المغبش عنى وقالت « هه » بعته بكم ؟ . فاضطربت ابنتها كاضطرابى لأننا أحسسنا بشر منها وهرولت راجعة لبيتها وأخبرت أولادها وبنتيها الكبيرتين وطلبت منهما اما أن أترك كل عائلتى وانقطع لنفقة بنتها أو أطلقها فراجعها ولدها أحمد فلم تقتنع وصارت تعلو صوتها بسب أولادها وسبنا فاضطر أحمد أن يأتينى متكلمة معى وهو خارج البيت لأنه أبى أن يدخل وبالصدفة كنت واضعا رأسى على فخذ زوجتى لتخليل شعرى من الغبار فقال لى يا بابكر قلت : نعم قال : الآن صار الناس الذين كانوا فى قرية صاروا فى مكان بيت كبير والذين كانوا فى

حوش صاروا في مكان غرفة وغالبهم مكشوفون بلا حواجز ومتقاربون جدا قلت صحيحا قال : ان أمي صممت على أن تطلق البقيع أو تترك كل المتعلقين بك وتنفق عليها وحدها والأولى ممكنة فأنا جئتك لأخبرك • وكثر سبها لنا ولكم فالسامعون يظنون أنا مكشوفوا حال فلأجل أن نسكتها أنا جئتك طالبا منك طلاقها على شرط ألا يتزوجها غيرك أن حيننا وأن متنا أفرقنا جميعا فقلت له : أما يرضيك غير طلاقها على شرط ألا يتزوجها أحد ؟ قال : نعم فرفعت رأسي من حجرها وقلت له طلقته فبكت وأبكتني ولكن هي بدموع عينيها وأنا بدموع قلبي وافرقتنا الى اليوم وسيأتي في مكانه ما حصل بخصوصها من تطور وأخذ ورد . طبعاً في تلك الساعة تذكرت كلام صخر خصوصاً البيت الشهير :

فأى أمرىء ساوى بأم حليلة فما عاش الا في شقا وهوان
وأنا أهم بالحزم وأستطيعه . أخذها أخوها وبقيت مع أهلى أعولهم .

الهمة عالية والمعدة خالية

عين ولد النجومى جيشا برئاسة عبد الحفيظ شمت ليغير على قرية سرى الذى سبق أن غرنا عليها وعبد الحفيظ شمت كان معنا ولما كنت أتأكد من أنهم لا يأتون بفائدة منها لم أصحبهم فيها ولكنى سبكت حادثة الحمامة وخبرها أنى طلبت من جارنا على حمد الرفاعى حمارته لأصحب بها السرية وما آتى به من الثمر عليها يكون بيننا مناصفة فأعطانيها معتمداً ذلك ولكنى أبعدتها عن منزلنا فى منزل خالى مصطفى عبد القادر بجوار منزل عبد الله حاج الحسن وكتفتها بين حجرين فظلت راقدة وأنا أجيء اليها يوميا وأحتفظ لئلا يرانى على حمد قبل أن تعود السرية فلما أزور الحمامة خالى مصطفى يقول لى : يا بابكر الحمامة هذه لا هى ملكك تريد منها فائدة ولا هى لغيرك تخاف الله فيها أقول : والله لا هى ملكى أريد منها فائدة ولا هى لغيرى أخاف الله فيها فيقول لى : « الكلام ده أنا ما فاهم فيه شيئاً . » أى كلامك هذا غير معقول فانظرها وارجع وبعد أيام رجعت السرية بخفى حنين فظهرت لعلى حمد الذى سألنى عن حمارته فقلت له أنها فترت وتركتها وراء ذلك الجبل فصدقنى واقتنع بكلامى ولكن أهله حرضوه على أن يشتكيني للقاضى وفعلاً شكاني للقاضى فأخبرته بما قلته

له فطلب على حمد من القاضي أن يلزمني بالذهاب لها اذا وجدت لها حية أدرجها وأن وجدت لها ميتة أجيء له برأسها فطلبت منه ماء وزادا يوصلني للجبل ويرجعني ونويت اذا أعطاني الماء والزاد أبيع الحمامة لمن يذبحونها وأخرج رأسها من البيع وأحضره له فقال للقاضي ما عندي ماء ولا زاد له . قال له القاضي وهو غير ملزوم أن يخاطر بنفسه في الحصول عليها فاقتنع وبعث الحمامة بستة ريال.

لننظر ما حصل بيني وبين على حمد في أم درمان سنة ١٣١٤ . ثم بعد ذلك لنا جار عنده ناقة وما عنده قرية للماء فقلت له أعطيني نافتك أسقيها وأحمل عليها الماء بالنصف فأعطاني اياها فصرت أجلب عليها الماء أياما . ففى بعض الأيام بركت في الطريق وتمرغت على القربتين فوصلت الديم بماء قليل مشيت لعمى عبد الحليم مساعد طلبت منه قربتين بالنصف فأعطاني اياهما والناقة بالنصف فلما علمت والدتي ذلك قالت لى : « الناقة لها النصف والقربتان لهما النصف . » وأنت تدلك الدرب » وما علمت حيلتى التى نويت عليها فعلمت قربتى المخرقتين فى عمد البيت خروقا لا على وصرت عندما أتى من البحر سحرا أغشى بيتنا أولا فأفرغ أحد القربتين فى قربتى والبقاى فى المواعين وأجعل فى كل قرية من قربتى عمى عبد الحليم نصفهما وأظهر له ولصاحب الناقة انى لا أستطيع حمل القرية ملأى ولذا تأتى ناقصة بعد أيام ماتت الناقة قبل قيام الجيش بيومين لما أردت أن أرجع القربتين لعمى عبد الحليم حلف على المدنى مصطفى زوج أختى طلاقا لا أرجعهما له بل نبيعهما وننفق ثمنها طعام يوم فعلا بعناهما وقلت لعمى عبد الحليم الذى لم يعلم بموت الناقة عندما جعلت الماء فى القربتين غرقا من ضرب الموج للشاطئ . أخذت هذه الحيلة من غرق السعن المشئوم فاقتنع بذلك وقال فدتك القربتان والحمد لله . وفى اليوم الذى بعده أصبحت مهموما كيف أطعم هؤلاء الناس فأرسل لى عبد الله الحاج حسن فمشيت له حالا فقال لى خذ فرسى هذه وبعها بالسوق وكانت فرسه حرة جميلة أعطى فيها فى بربر مائتى ريال فما رضى بيعها لأنها مولودة عنده وعزيزة عليه . أخذتها للسوق فعارضنى أحمد ولد بشاره ألا أبيعها كأمر ولد النجومى الذى يعرف الفرس جيدا ويعرف عدم حاجة عبد الله لثمنها وذلك لأن ولد النجومى من زوجاته كلثوم بنت حاج الحسن شقيقة عبد الله فقلت له يا سيدى

عبد الله اذا ما هزلت الفرس لدرجة عدم النفع لا يرضى أن يبيعها وركبتها أمامه ولزرتها برجلي معا فما نهضت بل طأطأت رأسها ولوحت ذنبها فصادق على بيعها فبعتها بثمان عشرة ريالاً فأعطاني منها ستة ريالات فقلت هذا رزق المساكين بعد أن مضى على سبعة وعشرون يوماً لم أذق فيها طعام العيش ضعف بدني رغم نشاط همتي وهمي بأهلي خصوصاً بعد العصر حتى صرت أزحف لأقطع الجمار الخفيف بعيداً عن النساء وأرجع زاحفاً وأتيمم وأصلي تكبيرى كان آتينا ومع ذلك اذا عرض لى المصحف أحلف عليه أنا نفتح مصر فانظر لهذه الروح المعنوية وانسبها أن شئت للعقيدة أو للطيش أو الجنون لأنك لا تستطيع أن تنكر وجودها •

فى بعض الأيام كنت جالسا كعادتى أمام منزلنا الذى يمر الطريق شرقه فجاء ولد النجومى ومعه نفر قليل فأدركتهم صلاة المغرب أمام منزلنا فأمرهم ولد النجومى وبعد أن كبر أصابه دوران وأظنه من الجوع فجلس فى الأرض بعد أن سلم فقلت له الله يعزك يا ولد النجومى بعد هذا الذل ثلاث مرات بأعلى صوتى فالتفت الى ووضع يده على فمه وتبسم ثم نهض قائماً بعزم وكبر بأعلى صوته وصلى وتم صلاته بأحسن ما يكون • ومن الحوادث ان بعض النساء صرن يجمعن بذرة القرظ ويغلينها حتى يلين يحمصنها ويبيعنها فى السوق فكان ملء فنجان بقرش صاغ ورأيت أحد الأمراء الممتازين ومن أعقلهم وأعظمهم وأشهمهم جالسا وسط النساء اشترى فنجان فأكله • ومن الحوادث أن اشتريت يوماً لحماً من السوق ولما طبخ وجدنا له خيوطاً لم نألفها فى لحم الابل وبالسؤال علمت أنه لحم حصان فلم أشتري بعدها لحماً الا سهماً من جمل ولكنى سررت حيث انى ذقت لحم الخيل فى عمرى • ومن الحوادث فقدت أختى من أبى وكان عمرها نحو خمس سنوات فما فقدتها أمها حتى وقت الغذاء فأخبرتني عنها فبحثت عنها حتى وصلت بعد أبى سنبل حيث وصلته حران متعباً ورقدت فى ظله على الرمله الباردة كدت أنام ثم رجعت بطريق آخر فوجدت البنية ميتة فدفتها من غير غسل ولا صلاة ورجعت وأخبرت والدتها التى لم تبد أى تأثير فقلت •• لله در الشدة . هذا من فوائدها كما قال المثل السودانى ان جاتك من أم سمبولك تنسيك أمك وأبولك • أى اذا أصابتك الشدة فى ذاتك تلهيك عن غيرك •

لا تجدوا عندنا الا جبة متروزة وحرية مر كوزة :

فى هذا الديق جاء لولد النجومى كساب من قائد الجيش الانجليزى يقول له ما معناه أن الخليفة عبد الله عزلك وولى ابن عمه يونس مكانك وأرسلك بلا ذخيرة ولا مؤونة وغرضه يرتاح منك ومن جيشك لأنكم قوة يخشى بأسها فأنى أنصح لك أن تسلم فستجد منا ما يسرك وعدد له أشياء تغرى غير ولد النجومى فأخبرنى محمد نور كاتب تحريره وهو جد مكاوى أفندى سليمان المصرى لأمه أنه أى ولد النجومى قال له اكتب له فقل له أنا بايعت المهدي وخليفته على الجهاد وسأستمر مجاهداً - فان قتلناكم نجد عندكم ما حكيته لنا فى كتابتك وأن قتلتمونا لا تجدون عندنا الا جبة متروزة وحرية مر كوزة وفى هذا الديق جاءنا عبد الله سعد والعباس العبيد مددا بجماعتهم • ومن الحوادث أنه قد جمع ولد النجومى يوما الا مرأ فى ظل جبل شرق الديق وسمعتة يقول لهم وهو واقف • من أراد الرجوع منكم فليرجع فانى لا أمنعه اما أنا فانى بايعت المهدي عم على الجهاد فى سبيل الله حتى الموت وسأموت شهيدا حيث لا أمل لنا فى النصر وانى أنصحكم أجمعين الا ترجعوا فوالله من رجع لا يكون « عائلة ولا مجاهدا » أى يعامل معاملة الذل ولا يمكنه أن يدفع عن نفسه هذا سمعتة من لسانه رحمة الله عليه فذكرنى كلام عبد الحليم مساعد لعمى على بصرص « اذا مشيت معنا ترجع منكراً » • رجع من هذا الديق عمى على شكاك • ترك امرأته وأخاه جريحا وموسى ولد الشامبى ترك زوجته ووالدته رجعا معا مع المنصور ولد أبى كوع الذى حمل خادمه على جملة وركب حماره وغرضهما يتوصلان معه • علمت لما وصلوا شونة الحديد وهزل الجمل فذبحوه قبالة خور موسى باشا بالغرب مساء أكلوا دمه أولا بعد أن نضجته لهم الخادمة أولا وباتوا يشوون ويأكلون من لحم الجمل حتى أصبحوا ، حملوا ما تبقى منه حتى جلده وعظامه فصدقوا المثل القائل : « أربعة شالوا الجمل والجمل ما شالهم » .

بعد خطبة ولد النجومى أخذ الناس يرجعون ومن رجع منا البتول أختى وزينب بنت شيقوق زوجة والدى فنجيتا من الأسر • تحرك الجيش من بلانا بعد عشرين يوما بحالة نهائية فى الضعف • من ذلك أنى أعرف رجلين وزوجاتهما

تركوا ولديهما الهزيلين لعدم استطاعة الولدين على المشى وعدم استطاعة الرجل وامرأته على حمل ولديهما لأن عمر كل من الولدين بين السابعة والعاشرة لا أعلم بالضبط عمريهما فأخذ الولدان يصيحان يا أمى يا أبى تركتمونا وهل تلدون أكبر منا والوالدان كأن لم يسمعا حديث ولديهما يا ترى على من يقع اثم موت هذين الطفلين البريئين •

وصار السير بطيئا وقد ترك الترك قتل الأسرى فلما تأكد الناس من هذا الخبر صار كثير يتعرض للأسر أما رغبة منهم أو ينزل للماء أو ينزل للنخيل للتمر فيؤسر وأنا والمدنى مصطفى لنأتى بالتمر من النخيل الذى صار الجيش يقطعه ويكدسه على الشاطيء ويخبىء العساكر أنفسهم على بعد منه فاذا حمل الأنصار التمر وكروا راجعين ظهر لهم هؤلاء فأسروهم • حملنا التمر ورجعنا ومعنا أربعة آخرون فلما أشرقت الشمس أحاط بنا نحو عشرون عسكريا سودانيين وبيدهم بنادقهم فلما رأيناهم على بعد جلسنا على الأرض علامة التسليم لأننا لا نستطيع الجرى منهم فضلا عن الهجوم عليهم فأسرونا ومن العجيب لم يأمرونا برمى السلاح والابتعاد منه هوأنا بنا فأرسلوا معنا أربعة منهم ونحن ستة بجرا بنا حتى وصلنا محل الأسرى أدخلونا على ضابط يدعى خير الله أفندى مصرى بكباشى أمر لنا برغيف يابس • فلما مد لى نصيبى قلت لهم لا أريد طعاما لأن بالى كله شغل بوالدتى التى تركتها فى الخلاء وشقيقاتى والطفلين - فقال الضابط : اتركه هذا لا يأكل طعام الكفار قلت له أنتم لستم بكفار وإذا كنتم كفارا فطعامكم حلال لنا • قال الله تعالى : « وطعام الذين أتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » قال لى : أنت تحفظ القرآن ؟ قلت : نعم : قال : اقرأ لنا ربعا فبدأت من أول البقرة فلما وصلت « ان الله لا يستحى » • قال الضابط : صدق الله العظيم ، ثم نادى يا أمباشى عفيفى هذا الرجل ينزل البحر ويأخذ البلح وينتقل فى المعسكر كما شاء ولا يحجز الا اذا مشى للدراویش فنفعنى القرآن العظيم - تذكرت بهذا الموقف قول الرجل الذى صحبته لمدنى « القرآن لا يرمىك واذا رماك يرمىك على برش » ثم خرجنا من عنده من المعسكر فوجدنا كثيرا ممن عرفنا وكنا ظننا انهم ماتوا ففى تلك الساعة قال لى المدنى الذى ترك زوجته وبناته بالجبل ولا يعلم عنهن شيئا فطلب منى

بالحاح أن أحضر له تمرا من الكوم الذى بالقرب منه فذهبت وأحضرت له
التمر ولما رآنى لا آكل صار يلح على فى الأكل « يا زول انت كافر » الزول
يموت والده ووالدته ولا يبطل الأكل وأخيرا حلف على طلاقا وأكلت قليلا بلا
نفس . وفى عصر ذلك اليوم جاء حسن حبشى صهر عبد الحليم وبسط للقائد
حالة الجيش وكان يوم الخميس فاستعدوا فى يوم الجمعة وفى يوم السبت
سحرا تقدموا ولما صار نحو الساعة ٤ مساء جىء بجناسة ود النجومى فى
أسرنا وعرضت للتأكيد من شخصيته وكان ما ظهر من ضربه جلفة فى ساقه لأنه
كان لا بسا جبته والغبار بلحيته الجميلة كأنه رجع من العرضة لم تظهر عليه
كآبة الموت رحمه الله رحمة واسعة وقد قال شاعرهم بعد موت ولد النجومى
شعرا كثيرا أذكر منه بيتا واحدا :

ولد النجومى التى كانت مصيبتنا الله موته فى طوشكى ياخيـنا
ولا تسأل عما أصابه هذا الشعر فى نفوسنا لو كنا نستطيع دفاعا أو
اجابة ما تأخرنا .

وفى صباح اليوم الثانى جاء عسكرى مصرى فأمسك بيد ستنا امرأة
الأمين ادريس الرباطى وكانت جميلة بقيافتها لحضورها فى السرية الأخيرة
فأتبعها زوجها وسرنا معه أنا وأولاد الياس وأولاد رحمه ولد الحمىلى حتى
وصلنا باب السور المحيط بصيوان الضابط الكبير فصار العسكرى قابضا
على يدها الشمال وزوجها يمسخها من يدها اليمين فالعسكرى يريد ادخالها
السور ونحن وزوجها نجدها للخارج فلما رأى الضابط منازعتنا للعسكرى
خرج لا بسا قميصا ورداء ورأيناه كلنا منعظا . فلما وصلنا قال بلهجة قوية
أطلقها فطلقناها كلنا الا زوجها فلم يطلقها فرجعنا وأمسكنها معه فقال الضابط
لزوجها : مثلك لا يتزوج مثلها . فقالت له : والله هو زوجى وابن عمى . وفى
أثناء هذه المحادثة رأينا وود هاوس باشا قادما على جملة ولكن الضابط لم يره
لا تجاهه عكس الجهة القادم منها حتى وصلنا وود هاوس باشا فلما رآه الضابط
ترك البنت وجرى ليلبس رسميا فلما حضر وجد وود هاوس باشا قد عرف
القصة منا كاملة فلما قدم التعظيم الرسمى قال وود هاوس باشا أنا البكبasha
وأنت اللواء ثم أمر بالرجل وتوجه معنا وجعل للنساء موضعا خاصا منعزلا عن
مكان الرجال وأمر ألا يصلهن رجل قط .

وفى صباح الغد امتلأ المعسكر بالأسرى فأمرُوا بنقلنا الى الشرق وقد كان العسكرى الخفير علينا فى المعديّة ينظر الى كلما رفعت رأسى له - ثم انه انتقل بجانبى فقال لى ما جنسك فقلت رباطابى قال من أبوك قلت واد بدرى • قال لى : انت بابكر ؟ قلت نعم . قال : هل عرفتنى ؟ قلت : لا • قال : أنا العسكرى الذى أخرجنى والدك من قيقر صالح وأقمت معكم وكنت يوما حلفت بسيدى الحسن وأنت قلت تضربنى حق الله قلت له : انت أحمد ولد على قال : نعم • قلت الحمد لله لأنى فى غاية الحاجة اليك قال هل معك أحد من أهلك ؟ قلت : ذاك المدنى مصطفى • ذهب له وسلم عليه ثم رجع لى فلما خرجنا بالشرق فى المعسكر جاءنا أحمد على وقال : أنا أمرت أن أذهب لسجن حلفا بالبوستة اليوم فهل لكم حاجة بحلفا ؟ قلت له لنا حاجة بين هذا المعسكر وحلفا وهى أن يكون طريقك بالغرب فتسأل عن أمى والسهوة وأم طبول ومن معهن اذا وجدتهن فاعمل اللازم فى تعديتهن للشرق بكل وسيلة فاخبرهن أنا والمدنى هنا وسر فى طريقك فاذا رجعت من حلفا بالشرق فتمكن من وصولهن لنا فسافر بالغرب ولما اجتمع بهن وأوصلهن الشرق وأعطاهن علوق جملة فسررن هن تحت الظلام حتى وصلن حلة أشكيت حيث حللن على العمدة ذهب الذى سمح لهن بأن يأخذن الزعف من النخيل فصرن يعملن مقاطف ويحملنها على رؤوسهن الى سوق التوفيقية يعنها فيشترين بها الطعام والأدام وهكذا •

الى سجن الشلال :

أما نحن ففى صبيحة يوم سفر أحمد على أرسلونا لسجن الشلال فى « مركب الحوادث بين المعسكر والشلال » لما وصلنا بلدة قبل كورسكو بها نخيل به رطب وكانت جمعية من النساء تحت نخلة جاءنى العسكرى الخفير علينا من المصريين وأمرنى أن أطلع تلك النخلة وآتيه منها برطب وأعطانى منديله فلما وصلت الرطب طلب منى أولئك البنات الجالسات تحت النخلة أن أرمى لهن رطبا فصرت أرمى لهن تارة وأجعل فى منديل العسكرى أخرى فرآنى الضابط الرئيس على الرسالة من الأسرى فصاح على أن أنزل فأخذت فى النزول وكان بيده سوطا عنجا فوقف تحت النخلة وأوسعنى ضربا وأنا نازل من النخلة ولما وصلت الأرض قال لى اشبط النخلة وكان صدرى عاريا فشبطت النخلة

وصار يضربني حتى أدمى ظهري ولما تركني قلت له أنا مظلوم فصفعني على خدي فكررت له أنا مظلوم فقال لي : من ظلمك فقلت : ضربتني قبل أن تسألني قال لي : رأيته بالنخلة قلت أمرني هذا العسكري فأنكر العسكري أنه قد أمرني فقلت للضابط هل عندي منديل هذا منديله فاقتنع وأمر بحبسهم قسلاقا وهذا الضابط على أفندي ابن حسن باشا الجويسر الذي كان مديرا لكرديان في التركية السابقة وفي أثناء الرحلة ولا زلنا بهذه المركب أتحد عني محمد أحمد شكاك مع آمنه زوجة أخيه على شكاك الذي هرب منها وتزوجها فعلا ولما وصلنا كروسكو أعطاني الشيخ العاقب ريالاً كبيراً وقال لي اشتر لنا منه زادا من السوق وكان عمي محمد أحمد رآه فأخذ مني الريال وحلف طلاقاً لا يرجعه لي فرجعت إلى الشيخ العاقب وقلت له الريال ضاع مني فسكت ولكنه ظهر على وجهه أنه اتهمني بسرقة ثم قال لي : أنت ولد بدري ماذا أقول لك انظر ماذا آل الأمر بخصوصه في ما بعد في كروسكو جاءنا موسى اشامابي الذي ترك زوجته وولدها ووالدته معا ببلانا جاء من السودان لأجلها ووجدتها تزوجت برجل من كروسكو قبل يومين فقط وولدها من موسى توفي فقابلته حماته عائشة بنت قشلابي فجاء لأمي يوسطها لها ليوافقانه على رغبتها فيه دون الزوج الجديد وقال لها أي لأمي أن سعيداً ولدها صاحبه يدخله في المحس بيته ليأكل معه ويوسف ولد بدري ما يدخل معه فقالت له أمي « هوى يادا الزول أنت صاحبك ده تشكر فيه ولا بتنبش فيه » • أي يا هذا الرجل هل بقولك هذا أنت تمتدح صديقك هنا أم تعيره ورفضت التوسط له • وصلنا الشلال نحو الساعة ٤ مساء فورد علينا الأهالي وكل حامل بيده ما يؤكل وأكثره رغيف قمح طازه وصاروا يرمون ما عندهم في النهر لأن المركب بعيدة من البر ولا سقايل عليها فجعل المساجين من الأسرى يعومون في البحر ويلتقطون ما يرمى اليهم وكنت جالسا مع الشيخ العاقب على سطح مؤخر المركب « البطونه » ورأينا محمد الفضل ومعه آخر بينهما رغيف إذا أخذه الآخر يغطسه محمد الفضل فيطلق الرغيف من يده فاذا طفى الرغيف ورفع محمد الفضل يده من عنقه أسرع فقبض المغطس الرغيف قبل محمد الفضل وهكذا • فقال لي شيخنا العاقب قم جئنا برغيف نأكله نحن جائعون فقلت له : يا مولانا إذا جئتكم برغيف بهذه الحالة « وأشارت إلى محمد وصاحبه »

انت تأكله مطمئنا فقال لى بشهامة لا والله لا آكله شائب • أخطأ وشاب أصاب
فما برحنا مكاننا واذا بمنديل به رغيف ورطب رماه صاحبه فوقع بيننا فأكلناه
وبعد أن صلينا المغرب فى مكاننا •

ماهر بك فى سجن الشلال :

أخرجونا حيث دخلنا السجن بالشلال وهو سور مربع لم يكن به مايظل
غير مكتب الحرس فجعلوا النساء فى سور آخر به غرف ومظلات والرجال فى
السور الكاشف •

حوادث السجن

دخلنا السجن ووجدنا غذاءنا الذرة اليابسة لكل شخص كوز قدر رطل
فى الضحى بعد مأمورية الصبح فى الخدمات المتنوعة وكوز عند غروب الشمس
نأكله عليقة كعليقة البهائم أما المجروحون والمرضى يصرف لهم بكسمات فطبيخ
فلما طال بنا مضغ الذرة عينونى لرش بيوت الجيران فأعطانى صاحب المنزل
قرشا اشتريت به سكرا من دكان بقرب السجن والسبب الذى جعلنى اشترى
السكر هو أن العسكر المعينين الحرس علينا يسألوننا عما اذا كان معى عرق
محبه ويصفوه لنا بأنه حلو الطعم وكان عندى جراب صغير قديم فجئت بالسكر
وجعلته فى كوز وأخذت عروقا من جميزة واقعة عند باب السجن وجعلتها فى
الكوز بالليل كله ثم أخرجتها حتى ييست فجعلت من فم الجراب قطعة صغيرة
من الجلد أخرزها فى العرق وأحك جانبا من الجلد على شىء خشن مثل حجر
ومرة على ظهر قدح خشب حتى يبدو طرف العرق ليذاق طعمه وجعلت عمى
محمد أحمد شكاك سمسارا يدلهم على وصرت أبيع العرق بقرشين الى أربعة
قروش ونشترى الرغيف من خارج تارة ومن طباخ السجن تارة • واتفق أن
اشترى منى عسكرى يدعى ابراهيم بحيرى عرقا بأربعة قروش وظلمنى فيها
فاشتكيتة للجاويش الذى وبخه وأجبره بالدفع فحقد على ولما جاء يوم عاشوراء
طلبنى وأوقفنى فى ميدان المجرمين أمام الحجارة الكبيرة التى يرفعونها
ويضعونها كعقوبة وقال لى « بير » لا رفع الحجر فما قدرت على رفعه وصار
يضربنى بكفه حتى سال الدم من أذنى الاثنين على عنقى فجاءه الشيخ العاقب

وعاتبه عتابا شديدا وهدده فلما جلست بمكانى ملأ مقظفا كبيرا من البليلة التى عملت للنساء ذلك اليوم من القدر مباشرة وأمرنى بحملها فحملتها وسار ورأى حتى دخلنا سور النساء فجعل يأخذ لكل امرأة كوزا من البليلة وهى على رأسى أحس بغليانها فى مخى لشدة حرها حتى فرغت كلها وهو يريد أن يعذبنى بها ولكن الله أرادها لى علاجا فانى لم أشعر فى أذنى ألما بعدها ولكنى حدث اذا عمت فى البحر مدة طويلة يخرج الدم يابسا من أذنى مدة ثم انقطع - فى هذا السجن مرض عمنا الفضل الصادق ومات به ليلا فأصبح للظهر حتى سمعت به توجهت لأولاده وعمى محمد أحمد شكاك وأحمد عثمان حملنا الجنازة لدفنها خارج السور فلما حفرنا الحفرة وأردنا ان نعمل اللحد قال لنا العسكرى الخفير علينا ادفنوه وكادوا ينصرفون فحبستهم حتى صليت عليه وهو فى قبره • قلت نأكل الذرة عليه ولكن لما زار ماهر بك السجن وودهاوس باشا كنا نعرف يوم زيارة أحدهما بأن العساكر ينزلوننا البحر نغتسل ويحضروا لنا طعاما غير الذرة فما نسمح فى الأكل حتى نسمع الكركون يقول : « كركون سلاح » فيدخل ماهر بك أو اللواء وودهاوس باشا فيجدنا نأكل البقسماط غالبا بالطبخ • فشكونا لماهر بك بخصوص الصلاة على أمواتنا فقرر الصلاة والكفن والغسيل •

كنت دائما فى المتقدمين الأوائل للخدمة فأجيب الماء أو نمشى للفحم أو غيره من الخدم العادة ، ففى بعض الأيام تأخرت عمدا ظنا منى أن من يتأخر يرتاح فكان دورى أن أحمل العذرة بسور النساء فلما علمت ذلك ولا يسعنى الا الطاعة ندمت ولكن حدث وأنا ماشى أنظر يمينا وشمالا لآلة آخذ بها العذرة من الأرض فلقيت قطعة حملتها مع القصرية وجلست بعيدا والعساكر الثلاثة الحرس علينا وقفوا بعيدا بعكس جهة الريح وجماعتنا وضعوا القصرىات يتعدون ويتذمرون • ناديت أحمد عثمان من بينهم وأعطيته الصفيحة وقلت له املا قصريتك بهذه قبل أن يأتى العساكر فعمل بمشورتى وعلى حين غفلة حمل العساكر صارخين وصار كل واحد يأخذ العذرة بيده ويضعها فى قصريته ونحن حملنا قصريتنا أمامهم للمكان المعد لوضعها ونزلنا البحر كلنا اغتسلنا ورجعنا السجن ومن ذلك اليوم صرت أبادر لأخذ الجردل حتى نقلت لسجن أسوان •

كان بجزيرة أصوان الملك طمبل من ملوك أرجو وعبد النعيم الذي
 تسميه الأنصار عبد القيوم بالقرب من كيمتو بالمحس هاجرا مع مصطفى باشا
 ياور في صلب الجيش الانجليزي فأرسل الملك طمبل ولده ليخرج أسراء
 الدناقلة بضماتته وكذلك عبد النعيم أرسل ولده لأسرى المحس وكان الكاتب
 المقرر بالشلال احمد الحكيم من الاسرى وكان صديقي فقدمت نفسي مع
 الدناقلة وكتبت اسمي ونقلنا اجمعين لشونة اصوان وفي العصر جاء ماهر بك
 ليصدق كتابة الاسماء والاجناس والصفات الخاصة لكل واحد في الاسرى
 لتدون في الدفتر الخاص بالأسرى المضمونين ومن يضمنوهم فلما دخل قال
 لصالح بن عبد المنعم أين جماعتك ؟ فتقدموا له وكانوا قليلى العدد فسمح بهم
 وقال لأبن الملك طمبل أين جماعتك فاصطفينا صفوفنا فلما رأى ماهر بك كثرة
 عددنا التفت الى ابن الملك طمبل وقال له ابوك ماهيته ثلاثون جنيها يسـسـكر
 بعلمى في الشهر بـ ١٧ جنية كيف يؤكل بالباقي واوماً اليه بمنش كان في يده
 فانطلق جاريا ورددنا الى الشونة ليضمننا أصحاب المروعة فاضطجعت على ظهري
 وصرت اقرأ القرآن فمر بى ماهر ووقف قليلا وسمع قراءتى فتحول لوجهي
 فقمت مسرعا فقال لى تحفظ القرآن كله ؟ قلت: نعم والحمد لله . فقال لى أتحب
 أرسلك مصر لمنزلى وتقرأ فى الجامع الازهر وتعيش مع أولادى قلت كان هذا
 خيرا سعادتك ولكنى تركت والدتى وشقيقتى فى الجبل وأريد أن أخرج من
 هنا لأتحسس خبرهن اذا وجدتهن قدمتن أتخير فى أمرى واذا كنا فى مكان ما
 بالقطر المصرى اسعى فى اجتماعى بهن واذا رجعن السودان اطمئن عليهن لأن
 والدى وأخى الأكبر موجودان فسر من حديثى معه وقال جميل والله يجمعك
 بهن ودخل الناس الراغبون فى أخذ الأسرى بالضمان فجاء رجل يدعى على أبو
 محمود من جعافرة دراو ورغب فى أخذى وجاء بالضمان فلما عرض اسمى
 على ماهر بك قال لعلى أبى محمود هذا يحفظ كتاب الله وأنت وعمك موسى
 تخدمونه فى المزارع فقال على لماهر بك تتركه يعلم اولادنا فقال ماهر بك أنا
 سأتى بدراو اذا وجدته متعبا قصم ظهرك « بهذه العبارة » فقال على أبو محمود
 حاضر ياسعادة المدير . أخذنى وليته لم يأخذنى بتنا تلك الليلة بأصوان عند
 أحد معارفه وحينما جاءوا بالعشاء رغيف قمح بسمك قال لهم على أبو محمود
 أتم تأكلون بالسـمـك « المثلوث رغيف القمح . » نحن فى دراو نأكل رغيف

بطيخ فسررت لأن الرغيف عندنا ما كان من قمح والطبيخ عندهم كل ما آدم
الطعام ولو ماء . كان صاحبنا في رحلتنا من أصوان الى دراو الميرلاى فرج بك
أبو زيد راكبا جملة وكان اذ ذاك بوظيفة ملازم أول فلما آلمنى المشى لبعده
عهدي به شرعت أقص غزوة بدر وأكلف نفسى السعى مع زامليتهما وصارت
تشربنى حجارة العقبة حتى أكاد أقع على وجهى ورغم ذلك لم أقطع حديثى
فلما صار صوتى يتقطع تبعا لنهوضى المتكلف رق بى فرج بك حيث أوقف جملة
وتناولنى من ذراعى بيده وأردفنى خلفه وهو على جملة لم ينخه .

مبروك عاد يا بابكر الفيه خير ييدى :

وصلنا دراو ليلا فلما أصبحنا صار الناس يأتون أفواجا وكل متفرج منهم
يقول لعللى أبو محمود : جبت ليك وحيدة ؟ فيجيبيهم : نعم
يقولون : وين هو عاد ؟ فينادينى : بابكر تعال سلم أبوك ، ولو كان طفلا
الزائر : اسمك مين ؟

أنا : اسمى بابكر

الزائر : بابكر - مبروك عاد يا بابكر الفيه خير ييدى • ومعنى هذه
المحادثة باللغة الفصحى هى :

الزائر : يا شيخ على هل أتيت بأحد الأسرى ؟

يقول : نعم

يقولون : أين هو ؟ فينادينى • يا بابكر تعال أقبل لتحية أبوك وحينما أقابله
يسألنى ما اسمك ؟ أقول : اسمى بابكر .

يقولون : بابكر أن شاء الله تكون مبارك والذى فيه خير يظهر

مكث معهم ثلاثة أيام لا عمل لى وطعامى قليل وغير منتظم المواعيد

قلت لامرأته : يا مدينه ، أين الأولاد الذين أعلمهم ؟

قالت : الأولاد يقرؤ عند أحمد أبعط الله شى .

قلت : وأنا أعمل أى شىء ؟

قالت : أنا عارفنك . الرجال مافى الخلا شى .

قلت : لكن أنا جىء بى لأعلم الأولاد القراءة •

قالت : بيه الولد عند أحمد ابعط الله انت روح الغيط .
ومعنى هذه المحادثة باللغة الفصحى اننى قلت لامرأته : أين الأولاد
الذين أعلمهم ؟

فقالت : - الأولاد يعلمهم أحمد أبو عطا الله ولا يمكن أن يخرجوا
منه • أنت اذهب للغيط اعمل به كالرجال .

ومن ذلك الحين انقطع منى الطعام وأمرت أن آتى بالماء من التربة وهى
على مسافة نصف ميل على الأقل . أجيء فى كل يوم بأربع عشر قادوسا على
كتفى واذا طلبت الأكل قبل الذهاب للماء تقول لى : - يا بابكر ما حميناش
أى ما أوقدنا النار فى الفرن للان واذا جئت بعد كمالة الماء تقول لى يا بابكر
ما تتقدم شى ياود الناس العيش خلص

يأتى زوجها وينادى مدينى .

تقول مدينه : نعم

يسألها قائلا : بابكر أتعش

مدينه : ما عارفنه كيه

أبو محمود : ما عارفنه شى

مدينه : ضلك ما فضل شى غير عيش عاشه

أبو محمود : هاتى له رغيف عاشه

فتقوم ومفرقها لها صوت وغبار وترمينى ببتاوه .

أبو محمود : بتاوه صغيرى تفطر بها عاشه العظيمه

أبو محمود : ضلك يأكل بأيه .

مدينه : مافيش طبيخ بار أنا عارفنه

أبو محمود : جيبيله راس بصل

فقامت مدينه ورمتنى ببصلة واحدة • فقلت الحمد لله .

ومعنى هذه المحادثة أنه كان تقول لى عندما أطلب الأكل قبل الذهاب

الى الماء : بابكر للان لم نوقد النار فى الفرن للخبز . أمش انقل الأربعة عشر
قادوسا وأحضرها وتقول لى أنت تأخرت والأكل توزع للآكلين ولم يبق لك

منه شيء فاطوى . وفى بعض الأيام حصلت بينها وبين زوجها المحاورة التى اكتبها بلغتهم حينما جاء من الغيط فوجدنى عند الباب راقدا على الطوبى التى أرقد عادة عليها فقال لى تعبت ؟ قلت لا . وما كان يسألنى ولا يسأل عنى فلما وصل فى المحاورة لقوله : . . . له راس بصل . قلت فى نفسى : يريد أن يرسلنى برأس البصل للنبرو لأن كلمة رأس البصل عندنا معناها حمل الانسان . فلما كانت النتيجة بصلة واحدة سررت لئلا أمش ليلا وأنا حامل البصل للنبرو هذا هو اليوم الوحيد الذى سأل عنى فيه فلما اشتد على الجوع ذهبت معهم للنبرو فقال لى أحدهم امش افتح الماء فى الحوض ورجعت اليهم فملا الماء الحوض وانكسر حين وصلنا الماء عند النبرو وبطريق الجدول الكبير فلما رأى الماء قال لى : يا وقعت الشوم . وجروا كلهم فسدوا الماء فرضخت تحت ضغط الجوع لأخدم أى خدمة توصلنى للاكل وقلت لنفسى اذا كانوا هم أنفسهم متعبين فكيف أطلبهم بأن يطعمونى دون أن أعمل معهم مثل ما يعملون . ففى بعض الأيام أمرونى بأن أرحل البوص « قصب الذرة » من النبرو الى قطيع بآخر السور فأخذت الجمل للنبرو فحملوه لى قصبا فاذا وصلته باب السور أثقله على كتفى للشونة والمسافة لا تقل عن مائة متر فلما رحلت خمسة جمال وأدخلتها الشونة وكنت قبلها ملأت الأربعة عشر قادوسا اضطرب جسمى من الجوع والتعب دخلت على ست مدينه طالبا الغذاء لأننى صرت مستحقا له بما قدمته من الخدمة فكان الجواب ما تتقدمش ياود الناس . حينئذ بلغت الروح الحلقوم . رجعت بالجمل ورحلت جملين سددت بهما باب المنزلين المتقابلين لأمنع كل داخل بأحدهما من الدخول وخصوصا الرجل الكبير موسى أبو محمد على والد ست مدينه الذى يأتى بعد الغروب دائما على حماره سددت البابين وجلست جانبا فلما جاء الشيخ موسى وجد البابين مقفولين . قال وهو على حماره .

محاورة موسى الرموز له ب م . وبابكر الرموز له ب ب :

م . من جاب دهنا

ب . أنا بابكر

م . بابكر الاله ما دخلته يا ولدى عاد

- ب • ما بقدر
- م • بس تقدر تدرس البتاوه
- ب • أنا لاقى بتاو أدرسها
- م • لاه عأشن ك بلا خدمة
- ب • أنا راضى أخدم
- م • تسوق العود .
- ب • ما بقدر
- م • تحول الميه .
- ب • ما بعرف
- م • تحرث الأرض
- ب • ما بقدر
- م • بس تحلل لقمتك بيه عاد
- ب • يا عمى موسى اتركونى أمشى السوق وأشتغل صنعه وأعيش وأبيت عندكم
- م • ياك نحن مستيسرنك انت شجار .
- ب • لا
- م • جلاد
- ب • لا
- م • خياط
- ب • لا
- م • تشتغل آيه عاد
- ب • عيني فاتحه كل البشوفه أعمله •
- م • حد عينه مقدوده ماكل الناس عينها قايدنهاش
- ب • أنت بس خلونى أنا بعيش نفسى
- م • ياك نحن مستيسرنك .
- بعد هذا حضر الخدامون من الغيط فادخلوا القصب وفسحوا لعم موسى الطريق دخل بيته ولم أقف له على أثر بعدها « محاولة على وزوجته وأشتداد الجوع على . »

من ينس نكس :

جاء بعده على أبو محمود الذى كرر نفس الفصل السابق مع زوجته • لم تسمح لى برغيف عيش هذه المرة ورقدت على طوباتى ثم تذكرت كلام يوسف أخى بخصوص صديقه ووجه الذى يمضغ فى رجل جاره الميت فقالت لى نفسى أهرب مثل العبد فى بلد أجهلها فيلحقونى ويرجعونى ويضربونى ثم قالت لى نفسى قم ليلا فاشحذ الطعام فى البيوت قلت فى نفسى لا يمكن ذلك - ربما أتوطن بينهم وأتزوج وأولد منهم يسبون أولادى فى المستقبل بقولهم «يا أولاد الشحاذ» - قلت لنفسى الأحسن أن تصبرى وتضيفى هذه الأيام على أيام بلانا حيث لم تذوقى طعام العيش سبعة وعشرين يوما وأنت مكلفة بمعيشة من تعرفينهم • فرقدت تلك الليلة تنازعنى ثلاثة عوامل واحد منها يكفى لهذا الجلد وهى ولوعى بوالدتى وشقيقتى الذى والله يلازمنى فى كل حاله ويطغى على كل مشقة أو يكافئها والثانى تباريح الجوع الذى أحس أن أمعائى ومعدتى يصعدن ويهبطن - الثالث موقفى الأخير بين الأمل والخيبة حينما أصبح هل يتركوننى أسعى لرزقى أم يمنعونى وإذا رفضت البقاء معهم هل يرجعونى للسجن أم يخلو سبيلى وكيف يخلو سبيلى وهم واضعوا ضمانتى فى الحكومة فهذه الوسوس لا تجعل للنوم سبيلا لعينى . وقبل الفجر بقليل ذهبت الى التربة أتوضأ وصليت وجعلت أقرأ فى الراتب فاذا مر بى أحد أخبرنى أن السيد عشريا جاء البارحة من الغابة ونزل عند ابن أخته سلامة أفندى فقامت من وقتى وعبرت التربة وذهبت للغابة قبل أن أجلب لهم الماء كالعادة لأجس نبضهم هل يسعون خلفى أم يتمسكون بى أو يهملونى فيردون بغيرى ، فلما وصلت السيد عشريا وبعد امهاله قليلا قلت له أنا جائع فأمر لى بأكل فجئ لى بطبيلة عليها ستة أرغفة وفى وسطها انجرى به مش فأشرت له بأن يخلى لى المكان فوزع الأولاد بعد أن جئ لى بالماء فلا اكتنك أيها القارىء أنى أكلت حتى كل فمى من المضغ وأن بطنى لم تشبع فجعلت استريح قليلا من المضغ ثم أعود اليه حتى أكملت الستة أرغف فقال لى السيد عشريا لا بارك الله فيمن أجاعوك هذا الجوع فرجعت منه وعمت التربة وذهبت للمنزل المشئوم - ولكن الله أتى لى بالفرج منهم . اضجعت يوما ضحى كالمعتاد فشرعت أقرأ القرآن وأتذكر كنت أقرأ فى سورة « اذا جاءك المنافقون » اذا مر بى ولد يدعى

نور الهدى ما رأيته قبل ذلك فوقف قليلا ثم قال لى : باك أنت حافظ القرآن؟
قلت : نعم . قال لى ما معناه لماذا لا تزور الكتاب ؟ « الكتاب فى اصطلاحنا جمع
كتاب . » قلت له وما الكتاب . قال : المكان الذى يقرأ فيه الأولاد . قلت أرينيه
مشى معى حيث وجدت الأولاد يكتبون ألواحهم فتناولت لوح أحدهم لأكتبه
له علامة للفقير الذى لم أجده وقتئذ ليعلم من كتابتى زيارتى وانتظر ماذا يصنع
أياأتينى فأعيد له الزيارة أم لم يعتنى به فاقصر منه ؟ فوجدت اللوح : « ان الله
تعالى يدفع عن الذين آمنوا » فى سورة الحج فقرأ « ربع حزب » فكتبته
وشكلته ولكن برواية على لا عمر وهم يقرءون برواية حفص فكانت علامة
ثانية ورجعت لمكانى فاذا الفقيه أحمد عطا الله على أترى فأخذنى وعاد بى الى
كتابه وجاء لى برغيف وبيض مما يجلبه له الأولاد عادة فأكلت منه رغم أكلى
الكثير بمنزل سلامه أفندى فلما فرغنا من الأكل حكى لى قصته ومعه شخصان
من أهله انهم كانوا بققرة الأبيض وانهم هربوا ليصلوا الخرطوم فقبض عليهم
أحد عمد النيل الأبيض وقيدهم بالحديد فزرعوا له غلال الصفراء ولما رأى
اخلاصهم فى الخدمة فكمنهم القيود وما زالوا حتى نضج الزرع حيث تزودوا
منه وهربوا للخرطوم وختم كلامه بأنه ذاق مثلما ما أنا فيه الآن وألح على ألا
أستحي منه فانه يفطرنى كل يوم وسيجمعنى بالشيخ حسن ود على أبو حاج
عمدة دراو وهو أى حسن يجب المساكين أمثالك خصوصا اذا اتسبوا للدين
لأنه دين فتنتسمت الفرج من الله الذى لا يتركنى لأولئك اللئام وأنا مهاجر فى
طاعته ففى أول رؤيتى لحسن أبى حاج يوم الجمعة لأول مرة صليت الجمعة
بالجامع فى خلف الصفوف لأن جبتى لا تزال عليها أثر مخ رأس البنية ودم
موسى أخى فخفت أن يستقذرنى الناس فجاء الشيخ حسن ولد على أبى حاج
متأخرا فجلس بجانبى وبعد أن سلم الامام أسرع بالقيام لأنى لا أعرف حسن .
ففى يوم زرت السيد عشريا عائما للترعة وحينما خرجت منه رأيت جملا بوصا
متجها نحو نجع العرب فقلت يلزم أن تكون على الترعة قنطرة يمر عليها هذا
الجمل فأمر منها وارتاح من سباحة الترعة فتبعت الجمل ولحظى لما وصل
القنطرة توقف من المرور عليها ورمى القصب فاشتغلوا فى وضعه عليه حتى
وصلتهم .

عند رجل المروءة حسن على اب حاج :

ياكل عماى بابكر بدليقيناته ديل .

فلما رآنى الشيخ حسن سلم على ببشاشة وأنا بدورى بادلته طبعاً
البشاشة لأنى محتاج لها لصالحى وعرفت أنه الرجل الذى صلى الجمعة الماضية
بجانبى وبعد تبادل التحية قال لى : انت من جماعة ولد النجومى ؟ قلت نعم قال
بلغنى أن أحدهم عند على أبو محمود وأنا أريد أن أقابله فقلت أنا هو فقال
لى ما اسمك ؟ قلت اسمى بابكر بدرى قال نعم انت هو ومن أين أتيت الآن ؟
قلت : لى صديق قديم اسمه السيد عشريا نازل عند سلامة أفندى قال اركب
خلفى على الحمارة . فركبت وأخذ يسألنى عن كيفية قتل جيش ولد النجومى
فحكيت له الأسباب التى يسمح لى الوقت والمكان بسردها له وظننت حسن
ولد على أبى حاج الذى بيته عند جامعہ وكتابه فلما مال بى الى أحد الشوارع
فسلكه مغرباً حتى وصلنا منزلاً أناخ جملته عنده أدخلوا القصب فى شـونته
فداخلى الشك فى أنه حسن المعنى ثم جاءت والدته فقال لها يا مدينة هذا بابكر
من جماعة ود النجومى اذا جاءكم صباحاً أم ظهراً أو ليلاً أو فى أى وقت قدموا
له طعاماً واذا ما عندكم اشتروه من السوق وان لم تجدوه فى السوق اشحتوه
من الجيران والآن هاتوا ما عندكم فذهبت وجاءت برطب ورغاف قمح فأكلنا
ثم قام برجليه وأخذنى معه قائلاً هذا منزل والدتى وزوجتى الكبرى معها
أما بيتنا الكبير فنريكه الآن . مشينا حتى وصلنا فاذا هو البيت الذى عرفته
بيت العمدة فأدخلنى الحوش - سور المنزل - وأرانى غرفة عند بابہ وقال تنام
هنا فاذا جاء العبادۃ أو غيرهم من الضيوف العاديين فاتركها لهم وأدخل نام فى
ديوان جلوس والدى فسلمنى مفتاحه وذهبت الى الفقيه أحمد أبى عطا الله
الذى أوصاه بى بعد أن شكرته قلت له أنى أخاف أن بقيت مع حسن عقاب
موسى أبى محمد على وابن أخيه على أبى محمود فقال لى لا تخف هذا سيدهم
لا يستطيعون معارضته . اجتماعى بالعمدة على طعام : فلما جاء الليل جلس
والده على العمدة على دكته وجاء الأعيان من أهله جلوساً أمامه وأخذوا فى
الحديث وأنا وحسن على مسطبة الجامع حيث صلينا المغرب حتى وضع الخادم
لأبيه الطعام كعادته ثم نادانى : بابكر تعال . فقممت له فوضع لى كرسيًا وقال

لى أجلس وتعش فجلست وأكلت مع والده الذى لا يخاطبنى كأنه لم يشعر بوجودى . فلما رفع يده من الطعام نهضت قائما وبودى لو طال الزمن فلم يلتفت الى واستمر على هذه الحالة يومين آكل معه الثلاث وجبات وفى عشاء اليوم الثالث حينما أكلنا قليلا وكان سيدى موسى أبو محمد على ضمن الجالسين أمامه . وفى هذه الليلة التفت الى العمدة قائلا من هذا : قلت بابكر . قال : بابكر مين ؟ وين دا قلت : من جماعة ود النجومى قال من جاء بك هنا فاضطربت وتمنيت أنى بقيت فى جوعى ذاك فقلت فى صوت خافت جاء بى حسن وقال مفتخرا حسن ولدى قلت نعم ثم التفت الى حسن وقال من جاء بهذا يا حسن ؟ قال : جئت به أنا . لأى شىء ؟ قال : لياكل معاك . قال وهو رافع رأسه ورفع يده أنا يا حسن عبد الرحيم دبلون ما ياكل عُمَاى «أى معه» وطه أبو محمود ما ياكل عُمَاى وأبو سيف أبو حاج ما ياكل عُمَاى وموسى أبو محمد على ما ياكل عُمَاى — ياكل عُمَاى بابكر بدليقيناته ديل « هذه » قال حسن « نعم » صفق يديه على بعضها وقال « حى حى » أنا عندى بئر حلوه — عذبة — وعندي ولد صالح ثم التفت الى وقال يا بابكر حسن مو صالح شى اذا كان حسن ما صالح (الزيك أنت) أى الذى مثلك يقبله أحد بدليقيناته ديل وبعد ما رفع يده من الأكل فنهضت كعادتى . نادى قائلا : يا نسيم هات لبابكر سمن يشربه المتل بابكر ده لا يشبع بس يستحى جيب له سمن فجاءنى بفنجان شاي ملآن بالسمن فشربته فصار راتبا لى كل ليلة حتى قنعت معدتى من كثرة الأكل وصارت اعتيادية أوقفته برفضى له . صار يقول لى كل يا بابكر لا بارك الله فى بيت لا يأكلك ولا فى خير ما يسعك أنت يا بابكر لا ياكلونك لأنك ود ناس تكافىء ولا يؤكلونك لله ولا يؤكلونك لأنك تمدح فى المجالس كل يا بابكر قال يا بابكر الكباب عندكم فى (موجود) قلت لا وعدد أطعمة العشاء فجاء فى بالى أنه يريد موسى أبا محمد على الذى عجز أن يطعمنى البتاوه بعيدا عنه فهو ذا يطعمنى من هذه الأطعمة على مائدته وصدق ظنى وصرت آكل معه كل الوجبات واذا أردت أن أتحلل منه يزيدنى تأكيدا بالاستمرار فى الأكل معه ولم يجرأ موسى ولا ابن أخيه على التكلم معى ولا مع غيرى بخصوصى .

ففى يوم الثلاثاء الذى هو يوم السوق الجامع قال لى حسن نمشى السوق

معا ، وفي الطريق قال لى معنى كلام والدى عنك بدليقيناته ديل - يعنى بدلقوناته هذه يقصد انى أكسوك فلما وصلنا السوق اشترى لى لباسا وقميصا عربيا أى قميصا مفتوحا كبيرا يلبس فوق العراقى الذى يلى الجسد وهم يسمون القميص الكبير العرى وثوبا ومركوبا وعمامة . وبعد أيام مشيت لمنزل على أبى محمود وكانت معه حماته بمنزل واحد ولما زرتها وهى تسمى رنى فلما رأتنى اندهشت وقالت لى من كساك هذه الملابس يا بابكر قلت كسانيتها حسن ولد على أبى حاج قالت حسن صالح اذا كنت للان مع موسى يكسوك ؟ ما يكسيك شى (شيئا) ثم قالت مدينة أم موسى وركابى أبو موسى وعلى أبو موسى وسيده أم موسى وخديجه أم موسى تعنى أولادها • قلت أعرفهم جيدا قالت موسى يرجع لبيته الكبير وأنا أعطيك نصف بيتو قلت الأحسن يا عمتى رنى ان تتصالح يا عمتى رنى أنا لا أعرف الكتابة من هذا النوع اذا كنت أعرفها كنت أكتب موسى لنفسى وانت ما عندك نصف بيتو تعطينى اياه اذا كان عندك تكسى بيه بناتك رحاطه وانصرفت عنها فذاعت هذه الحكاية فى نجع العرب وشهرتنى عند من أعرفهم وصاروا يأتونى أو يلقونى فى الطريق فيسألونى عنها مع انى لم أخبر بها أحدا ولا كانت لها عندى قيمة . صرت أركب مع الشيخ حسن وأجلس معه فنقرأ فى الكتب دخل العمدة على أبو حاج فوجدنى جمعت بعر حصانه فى طبق لأضعه على شونة الزبالة فقبض على الطبق بيديه وقال لى مغضبا لاه لاه (لآى سبب) تحرق يا بابكر بيتى بالنار انت تحفظ القرآن وتعرف العلم وتنقل بعر حصانى واستلم منى الطبق وشتت البعر بيديه كما كان ثم غسل يديه • جاءنى مرة ابنه محمد الكبير سحرا وقال لى أمش مع جماعتنا لتقلعوا مركب الجزيرة التى غرقت فقمى ووقفت مع الجماعة استعدادا للمشى فجاء حسن ووجدنى واقف معهم قال لى : لماذا واقف هنا ؟ قلت لأمشى مع الجماعة لقلع المركب . قال : ومن أمرك بهذا ؟ قلت محمد أخوك فدخل على والده وأخبره فجاء العمدة يجر توبه ووجد محمدا واقفا فقال له مغضبا : أنت قلت لى بابكر أقلع المركب مع أولاد حجازى فقال : وماله • فقال له العمدة : مله فى جنبك بابكر يدنقركه (وهو يشخص تماما) ويقلع المركب مع أولاد حجازى • بابكر اذا أهله يقلعون المركب حفظ القرآن وهو كه

وحفظ العلم وهو كه (هكذا بهذا الحجم) اشارة الى أنى حفظت القرآن صغيرا • ثم قال يا محمد ماك مبسوط من بابكر وقراءته عم حسن (أى مع حسن) وركوبه عم حسن ومن صلاته عم حسن ثم التفت الى وقال أمش الجامع فذهب محمد بياقى جماعته ولم يطلب منى بعدها أى خدمة • رأيت رجلا رث الثياب المقطعة جاء من السودان وأظنه من المحس فوجد العمدة جالسا على مصطبة فقال له : أنا عريان والوقت برد والناس كلهم يقولون لى من حلفا اذا وصلت عمدة دراو يكسوك ، فجئت لكسوتى الله يطول عمرى ، فرأيت العمدة ارتجف أريحية وقال له : من حلفا الناس تقول لك عمدة دراو يكسيك ؟ قال الرجل : نعم والله فقلع ظعبوطه الذى لا يقل ثمنه عن خمسة جنيهاً وأعطاه اياه فدعا له ومشى به فسمع ولده محمد بهذا فأعطى الرجل ظعبوتا من نسج وصوف دراو وقيمتة جنيه وأخذ منه ظعبوت والده فرجع الرجل للعمدة وأخبره بما حصل فى الحال . فطلب العمدة ولده محمد وقال له : يا محمد كان أبى يعطى وأنا أسرق وأعطى مثله انت يا محمد أنا أعطى وأنت تقلع (ترد) يا محمد ظعيتى ما مالكنه عماك (ظعبوتى الذى على جسمى لا أملكه معك) يا محمد خلينى أموت واستلم كل شىء هات الظعبوت فجاء به ضمه للظعبوت الرخيص الذى سلمه اياه الرجل ومدهما الاثنين وقال لمحمد امش اشتر زعبوط لرقبتك وظعبوط لبيك (لأبيك) بالتصغير فأخذ الرجل الظعبوتين وذهب لطريقه .

حصلت بين ابراهيم السلواوى ومحمود بك حسين باشا خليفه قضية فى طين ربحها محمود بك بعد زمن كبير ومصاريف باهظة من الاثنين فاجتمع كبار نجع العرب فى ندوتهم وقرروا أن ينتصروا لابن عمهم ابراهيم السلواوى بأن يدعوا أرض الغابة التى يسكنها أولاد حسين باشا بأنهم ملكهم من آبائهم ويطلبون من الحكومة ردها لهم وطلبوا من العمدة موافقتهم على ذلك فقال لهم اكتبوا الطلب لا سمع حجتكم فيه فعينوا الشيخ محمد على الأزهرى ليكتبه فلما قرأه الكاتب للعمدة قام العمدة وصعد على سلاله فى الندوة معدوده للخطابة فقال أحمى يا دراو فيك الاجمل واحد والباقى نياق (دالوكت) — أى ذا الحين — كتبتم للحكومة تعطيكم الغابة لأنها ملك آبائكم وأجدادكم

طلبكم هذا منقوض من وجوه الأول انكم بطلبكم هذا تقضتم تصرفات
آبائكم وأجدادكم فتفضحون عند القبائل هذا اذا نجح طلبكم - ثانيا انهم
مكثوا أكبر مدة يعتبرها القانون للتمليك - ثالثا - لو سلمنا جدلا ان الحكومة
حكمت لكم فهل تقول للعبادة الساكنين نحو مائة سنة خدوا أشياءكم
(أنقاضكم) وقوموا والا مع المجاملة لكم تقول أعطوهم خسائريهم فمن
يشترى منزل محمود بك يشتره موسى أبو محمد على ياكل فيه البطيخ قرداحا
أنا عندي لكم رأى أحسن من رأيكم وهو ان تدفعوا ثمن الأرض وعلى ان
أراضى محمود بك يأخذ القيمة ويعطى ابراهيم الأرض فانفضوا عندما سمعوا
دفع القيمة . هذا رأى رجل أمدى لا يحسن الكتابة ولا القراءة . كان العمدة
المتولى تطهير الترعة . ففى سنة سبعة عربى كان المأمور على شوقى بدر او
فاتفق مع أحمد بك خليفه أن يتولى تطهير الترعة فلما بلغ العمدة ذلك ركب
حصانه وسار وسار للترعة فأخرج الناس من العمل فى التطهير وقال لهم انزلوا
الغيظ فلما سمع أحمد بك أخبر على شوقى فأخبر ماهر بك المحافظ بأسوان
فجاء ماهر بك وطلب العمدة بالضابطية وسأله لماذا منع الناس من تطهير الترعة
بواسطة أحمد بك مندوب الحكومة فقال له انى أرى العمدة هو المسئول
للحكومة عن الجماعات والامن والأمراض الوبائية والذى يعرف رعيته المحتاج
منهم والمريض هو الذى يباشر عملية تطهير الترعة وكل عمل تحتاجه الحكومة
وعلى كل حال أنا لى رأى فى عملية التطهير وهو ان تجعل على كل فدان قرشين
يدفعها كل صاحب فدان يروى بالترعة ويجعل للناس أجرة يومية قدرها سبعة
قروش صاغ يأتى الرجل طائعا مختارا فى وقت فراغه من عمل فى زرعه ومعه
أدوات الحفر والغرف ويرجع ليلا لأولاده حاملا لهم مؤونة يومهم والمنتفعون
بالماء يدفعون النقود مقابل نفعهم اما طريقة السخرة بالنوبة فلا تخلو من نوع
من الظلم حتى بواسطتى اما أحمد بك فلا يعرف فى الناس الذين يطهرون الترعة
فكيف ينظم نوباتهم وان ادعى معرفتهم فليذكر عشرة من الذين حفروا بالأمس
وهم كثيرون فوافق ماهر بك على هذه الفكرة وكتب بها للداخلية وصودق
عليها وجرى بها العمل حتى توفى العمدة سنة ١٣٠٩ هـ .

غزا الأمير الحسن سعد العبادى أرض العبادلة فهربوا للنيل وكثير منهم

جاءوا البلدة دراو وكان أكثرهم يأتي لخيمة العمدة على ليقسم لهم البتاو
 والبطيخ للعشاء فكثرت الموت فيهم والحكومة ألزمت أحمد بك بدفن من يموت
 منهم على أن تصرف لهم الكفن فلما تعب طلب من علي أفندي أن يمشي معه
 للعمدة للتضرر في وجود العباددة بدراو ويطلب ترحيلهم لمكان أوسع فزار أحمد
 بك والمأمور العمدة بمنزله وبعد القهوة خرج معهم وكان المأمور والعمدة
 متماسكين اليدين فقال المأمور للعمدة ما سألتنا عن سبب مجيئنا لك فقال جئنا
 زائرين ؟ قال نعم ولكن عندنا غرض بسيط عندك قال له : غرضكما مقضى قال
 أن تكتب للمدير وتطلب منه ترحيل العباددة لمكان أوسع من « دراو » لأن
 المصابين منهم وكثرة الموتى تسبب العدو للوطنيين . فنفض العمدة يده من
 المأمور وضرب بها على صدره وقال له أنا جعفرى يا شوقى أفندي ورجع منهما
 فسأل شوقى أحمد بك ما معنى أنا جعفرى ؟ فسر لها له بأنى لا أطرده ضيفى
 مثلك أنت فاعتبر على شوقى هذه اهانة له وقدمها لماهر بك الذى حضر وطلب
 معرفين يفسرون هذه الجملة فلما ادعى على شوقى أمام الحاضرين قال العمدة
 أمانة فى ذمتكم يا أيها الحضور أنا مانى جعفرى ؟ شى قالوا جعفرى تمام
 فقال على شوقى تقصد أنا لا أطرده ضيفى مثلك . قال له سمعتها منى قال : لا
 ولكن فسر لها لى أحمد بك وقال تقصدنى أنا يا رجل يا أهبل فقال له العمدة
 نحن شيايب تتناز متل النسوان فلنفر كالعرب قوم أذكر محاسنك فقال
 بعض الجالسين للعمدة قم انت يا شيخ العرب فقام فكف يدي قميصة وأخذ
 عصاه فبرمها وخطا خطوات وقال : انت متلى أنا يا أحمد بيك طابنتى تحمى .
 وقدرى يهدر والذى يجىء فى بيتى أقل ما يجد طبيخ بى رغيغ العباددة الذين
 تطلب منى طردهم أهلى ولا أهلك أنا أعطيتهم الأكل انت عاجز من دفن الميت
 الذى تصرف لك الحكومة كفه انت مثلى أنا يا أحمد بك جدك الحاج محمد
 لما كتل الرقبة فى العباددة وهرب للنيل جى لى جدى عيسى أعطاه أرض الشطب
 عمل فيها بيوته ولما نزلت بهايمة لكوم أمبو الجعافرة قطعوا أذانها وأذنايها
 فشكا لجدى عيسى وأعطاه عيسى فداناً يرعى فيه بهائم لا ضلكانى فدان الحاج
 محمد قبله لكم طين غريه لكم طين بحريه لكم طين شرقيه لكم طين جاء جدك
 خليفة لعمى بدوى أعطاه أرض الغابة بنى الصفين فيها ثم سكت • وقد كان

الناس معجبون بفخره ثم قال يا أحمد بك قم وأفخر فقال لا أفخر مع أهبل
مثلك فضحك الناس وانفض المجلس وضحك ماهر بك من فخره وكان دائما
يبدأ فخره بقوله : أنا بحاج أنا عمدة « دراو » وأنا سيد البلد أقره جاى
واقبله جاى ويقلب يديه .

سبق أن قدمت شيئا عن حسن على بحاج . استمرينا فى الاخاء حتى
وصلنا لدرجة رفع الكلفة وصدق الألفة ولكنى لا يمكن أن يخلو ضميرى من
وخزة فقدان شقيقتى وأمى . ففى ذات يوم عنده ضيوف فلما جاء الغداء
وكشف غطاءه فاحت منه رائحة بخار الديك الرومى فغلبتنى دموعى حينما
ذكرت أنى آكل مثل هذه الطيبات من الطعام وأمى مجهولة الحال فغطى الخادم
الأكل وأزيع من مكانه فحجبت ووبخت نفسى على سوء معاملتى لمن أحسن
الىَّ ثم توضأت وصليت ركعتين وتكلفت البسط ودخلت عليهم فقدموا الطعام
وبعد انصراف الضيوف رفع حسن يديه وقرأ الفاتحة وقال انشاء الله بركة
الشيخ اسماعيل النقشبندى فى هذا اليوم تجد خيرا عن أمك . فأمنت على
دعائه وتوجهنا للسوق ففى طرف السوق لقيت رجلا يدعى عبد الحليم خيرى
من الأسرى ولكنه بفمه تنباك فسلمت عليه سلام جفاء ثم قال لى لقيت خبر
أمك وأخواتك قلت لا قال هن ببلده اشكيت عند العمدة ذهب فأقبلت عليه
بغير ذلك الوجه ورأيتة فى غير تلك الصورة ووددت لو قبلت فمه بتنباكه فلما
سمع حسن بكلامه كتب جوابا للعمدة ذهب وأرسل داخل الجواب بنكنوت
جنيه مصرى وطلب منه ارسالهن بمركبته وحينما تقوم بهن المركب يكتب جوابا
بالبوستة ولكن ذهب حول الجنيه راجعا وقال صحيحا كان هؤلاء النسوة
عندنا ولكنهن بارحننا منذ شهر ولم نعرف لهن خيرا فرجعنا لارتباكنا لكن
لدرجة أخف لضماننا حياتهن وكونهن فى القطر المصرى ومطلوقات التصرف .

وفى شهر ربيع الأول مشينا السوق نشترى بهائم المولد لقينا ابراهيم
عوض الكريم القرشى جاء من حلفا فأخبرنى ان والدتى واخواتى بالتوفيقية
بحلفا فكتب حسن لصالح منقاش وأنا كتبت لملك العربى وأرسلت له نسخة من
قصيدة مدحت بها الزبير باشا وعبد الله بك حمزة ومحمد صالح ثروة وصالح
منقاش فعرضها على صالح منقاش وهؤلاء الأربعة هم الذين خدموا الأسرى

من أغنياء السودانين بمصر فأسرع صالح بارسالهن بمركب ورد هو ومالك
الجواب بقيام المركب فأصبحت في الانتظار على مثل جمر الغضا • وذات يوم
سافر العمدة لأسوان ولما رجع أخذت الحمار وقابلته في المشرع فقال لى أين
جماعتنا قلت كلهم في الخارج للزرع فأركبنى خلفه ثم التفت على وقال لى
جيئتني بالحمار قلت نعم قال أنا جئت لك بخبر ناس أمك فاضطربت من الفرح
واستمر قائلاً جاءتنى أختك الكبيرة ومعها ابنة عمك وأخبرتاني أن أمك وباقي
العائلة في بيت بعيد لا يمكن لحاقهن والوابور يصفر للقيام فطلبت أولاد حجازى
وأكدت عليهم بأخذهم بمركبهم بحيث يصلن دراو قبل شروق الشمس والا
أقصم ظهركم فإن شاء الله يصلن في الميعاد فلما وصلت البيت أخبرت حسنا
فسر جدا وقام سحرا كعادته فلما صلينا الصبح أعطاني حمارته وقال لى امش
البحر اذا وجدتني فالحمد لله والا أصلهن بأسوان وشهلن بمعرفتك فلما
وصلت السوق رأيت السهوه أختى الكبرى التى لم أعرفها لولا انى رأيت أمى
تقودها الحسنى وبقية أخواتى لأنها تغيرت كثيرا من التعب اذ صارت رقيقة
سوداء انطمست شلوخها فدهشت وصمت ولم أدر ذلك الصمت أمن السرور
أم بهتنا أم لما رأيته من اثر التعب عليهن حتى وصلنا البيت فوجدنا حسنا أخرج
والدته من بيتها وأدخلهن فيه وأحضر أردب غلال وخروفين بارك الله فيه حيا
ورحمه رحمة واسعة ميتا .

وردت مرة للجروف فلما رجعنا رأيت منصور الجميلابى ومعه جماعة
من أهله وهم من قبيلة الرباطاب فنزلت وسلمت عليه فلما وصلت حسنا سألتنى :
هؤلاء من أهلك قلت لا فتأخر عنى كأنه يقضى حاجة الانسان مائلا عن الطريق
حتى وصله منصور ومن معه فسألهم عنى فقالوا له قريينا فقال : ما جنسكم ؟
قالوا رباطاب ، فجأئنى وسألنى عن جنسى ولم يسألنى قبل منه فقلت له
رباطابى . فعاتبنى على نكرانى لمعرفة منصور ومن معه وصار يسير على سيرهم
حتى وصلوا بيت والده فأدخلهم وأكرمهم مدة اقامتهم •

واجتمعت مرة بفاطمة بنت منصور المشهورة بالنية • أمها رباطابيه وأبوها
أصوانى ومعها بتول زوجة المرحوم التوم أخو النية فصرت أزورهن حيث
لا يوجد في نجع العرب من الأسرى غيرى وهما . ولا أزورهما الا بعد المغرب

لكثرة ملازمتي لحسن ولما أخرج عنهما يقدماني حتى الى خارج الحوش ويرجعن فجئتهما مرة كعادتي ولما قمت قامت معي النية وحدها فلما جئنا في الدهليز المظلم ارتجفت وقبلتني فضربتني بكل كفى ضربة مؤلمة فمسكت رأسها وجلست في الأرض وسرت في طريقي وانقطعت منهما زمنا طويلا ثم عاودتهما فلم أجد للحادثة أثر عندهما ولا عندي والحمد لله .

رأيت والدتي تحتاج الى ثوب فذهبت للشيخ حسين أبي أحمد التاجر بدر او فطلبت منه أربعة عشر ذراعا ولايه بالقيمة أقسطها له لأنى أصبحت مرة خياطا ومرة جلادا فذرع لى الأربعة عشر ذراعا طبقها ورماها لى وقال أعطيكها لوجه الله رددتها عليه وقلت لا أقبلها صدقة ومشيت منه فأرسل خلفي وبحكم الضرورة رجعت له فقال خذها وقسط ثمنها كما تحب فقلت في كل سوق أسبوعى أدفع قرشين قال : جميل فدفعت له الثمن كالاتفاق فله الشكر .

أرسل لى عبد الله بك حمزة خطابا من الرمادى لأتقل له بعائلتى بالرمادى وكنت لى علاقات بدر او حيث انى أصبحت كصناعى أطلب وأطالب فما رددت عليه ثم انه خاطبنى ثانية بنفسه وأمر من يعرفنى أو من ارحامى ممن معه فى كنفه أن يكتبوا لى فاقتنعت بالتوجه له خصوصا انى وجدت فى نفسى ميل عظيم تجدد عندي بعد اجتماعى بأسمى وشقيقتى بالنزوع الروحى الى مراجعة زوجتى التى أحبها والتى أخذت من بين فكى وخصوصا بعد ما علمت ان أمها توفيت حيث ما بقى لى من السعى اليها الا أن أطمئن على من معى فى معيشتهم وصياتهم وما دام الفقيه محمد المدنى وبابكر كرم الله وغيرهما من الرباطاب وكثيرا غيرهم من الأسرى الذين أعرفهم وآمنهم هناك فلا مانع ان أتساهل فيما أطلبه من غيرى من نقود وأضحى بما عندي لأدفع ما على وأتقل الى الرمادى هذا هو رأى الدافع الى الانتقال يقابله رأى المانع وهو انى قد عرفت بدر او ووجدت كنف العمدة القادر المخلص لى وصداقة حسن ولده الذى لا يبخل على بماله ولا بباله ودراو بها سوق كبير فى الأسبوع وصغير فى كل باقى الأيام وبها تجار مشرين من مهاجرى دقلا أمثال منزلاوى يمكننى بسهولة بعد سنة أو سنتين أن أتقل من الصناعة الى التجارة خصوصا وان دراو بها العبابده المتصلون بالسودان وبقاؤنا يجعل لنا فرصة معرفة أخبار

أهلنا وهى ثغر سهل الوصول للسودان اذا أمكننا ذلك . انا فى الترجيح بين
الرأين اذا عبد الله بك يرسل لنا ولده حمزه بنفسه لينقلنا بمركبته التى ذاهبة
الى أسوان لترحيل محصول وبيعه وبرجوعه يأخذنا بالركب فوافقتة وكان معى
بدراو (بالغابة) رحمة الله وأبشر ولدا الياس عمر الرباطابى وحضر لهما الفقيه
محمد المدنى صهرهما وابن عمهما وشقيق زوجته وشجعنى على النزول للرمادى
ولكنى أخذت بالحزم مشيت أنا والسهوه أختى قبل مجىء حمزة لأنظر أنا حالة
الرجال وسبل المعيشة غير الاتكالية على عبد الله بك فى المستقبل قريبا أو بعيدا
لأن دوام الحال من المحال . فرأيت اما أن تأنف نفسى من كلمة أسمعها أو حالة
أراها فأرفض دمجى فيه واما أن يمل هو استمرار الصرف على الناس الذين
لا علاقة لهم به الا الوطنية الواسعة . أخذت السهوه فبتنا يومنا ذاك بحلة سلوة
عند رجل رباطابى يدعى أحمد عبد الله مولود هناك وله أولاد وخيمة ضيوف
عرفنا أحد أولاده فلما أخبره جاءنا وبعد التحية سألنا عن بلدنا وجنسنا وعرفنا
فى الحال انه رباطابى سنجرابى وسنجر كما يقول النسابون هو أكبر أولاد رباط
وله قصة طويلة يرونها ويزعمون ان له أولاد فى ادفو .

أخذنى الرجل وأدخلنى فى بيته مع أولاده وأختى مع بناته فلما جاء
العشاء أمسك بصحن اللحم فى حجره وترك الطبلية فلما فرغنا من أكل الطعام
أخذ يقسم اللحم بيده ويمد لكل واحد نصيبه ومد لى بأكبر نصيب ولما كنت
ما رأيت هذه العادة الا عند شيخنا الفقيه أحمد الكراس وكنت أراها هى
الوحيدة التى تعلم الدناءة من معاملاته لنا وأنا طفل ، رفضت أخذ نصيبى من
اللحم منه فألح ما ألح على وشرح ما شرح وحسن ما حسن ولكن نفسى لم تقبل
أكله بل أخذته منه لحرمة على ووضعتة فى مكانه فضحك وتركنى .

قمنا صباحا من سلوة وعبرنا النهر ومشينا فوصلنا الرمادى نحو الساعة
٣ بعد الظهر فدخلت السهوه على نساء الأسرى ودخلت أنا على عبد الله بك
حمزة بوكالته حيث وجدت معه جماعة ممن يميزهم من الأسرى ومن أهل
الرمادى ومنهم الأمين ولد العنودة أبو مشالى فلما فرغنا من التحية والتعارف
أخذ عبد الله بك يسألنى عن أثمان بعض البضائع بدراو فأرد عليه بما أعلم
وبالسكوت عما أجهل فاقتحمنى الأمين أبو مشالى بسؤال عن النساء فقلت

لا أعلمه فقال اطلب أختك يمكن تعرفه ولم يرد عليه عمى عبد الله بك الذى كنت أنتظر أن يرد عليه فلما كرر لى السؤال قلت له : نحن اخواتنا لا يعرفن مثلما نعرف فضلا عما نجهل ، بل أخواتكم هن اللاتى يعرفن ما تعرفون وما تجهلون . فقال لى اطلبها نسألها فقلت اطلبوها فأن جاءتكم فهى كما تقول فارسل لها عمى عبد الله بك خادمة له فلم تأت ثم أرجعها لها فلم تأت فأرجعها ثالثة فرجعت الخادمة ثالثة قائلة له ان المرأة أخذت مقطفها على رأسها وخرجت من البيت وقالت لى قولى لأخى يلحقنى بالطريق فانى راجعة لدر او فضحك عمى عبد الله بك وقال للامين هذه نساء السودان الحرات وأرسل لها بابكر كرم الله الذى كان من الجالسين وهو ابن عمنا فأرجعها بعد أخذ ورد فبتنا ليلتنا وفى الصباح رجعنا (ولا أكتمك يا قارىء انى ما كنت أتى الرمادى لولا أملى القوى وغرضى الملح فى مراجعة زوجتى) وصلنا در او بعد فتور شديد .

وجدت صعوبة فى اقناع السهوه بالمشى للرمادى وبعد أيام جاءنا حمزة وأخذنا بالمركب حيث تركنا غالب أهل در او آسفون لفراقنا خصوصا حسن الصالح ووالدته مدينة • وصلنا الرمادى فى أوائل شعبان • وعبد الله بك لم يطالب الأسرى بخدمة قط • يصرف لكل شخص كبير كان أو طفلا (ولو وضع بيومه) ثلاثة أرباع مصرية أو ٣٧٥ رطلا فى الشهر وهذا يكفى ويصرف لعائلته الكبيرة وخيوله الكثيرة • فمحصوله من ساقيته وأطيانه لا يكفى بل يشتري مؤوته السنوية من كل نوع فى موسم حصاده أو كساده ويحفظها فى مخازن وكالته المعدة لحفظ تجارته ومؤوته .

حادثة : كنت أقرأ له فى مقدمة ابن خلدون التى كان يحبها كثيرا كما انه كان يحسن معاملتى حتى يهذر معى أحيانا وأرد عليه بجرأة فلا يغضب حالا ولا يترك هذارى مالا . فى مرة كنت أقرأ له وضممت الكتاب لأقوم فأشرب من الزير فقال لى اشرب من قللى فى الصينية ولا تقطع القراءة فرفعت قلة لأشرب منها فقال اشرب من الثانية الوسطى فشربت منها شرابا أشبه بالسوييات فاذا هو العسلية فلما رجعت أحسست بدبيب خدر فى رأسى وزوغان فى عيني حتى صرت أقرأ سطرا وأترك سطرا فلما ضحك عمى عرفت ما مكره بى فتركت الكتاب وخرجت فلما وصلت الشارع الموصل بين الوكالة وبيتنا صرت كلما

رأيت أحدا وان كنت أميز شخصه لكننى أراه صغيرا جدا فى عيني وان نفسى
تحدثنى أنى اذا أمسكته يمكننى أن أكسره فلما وصلت والدتى قلت أنا
سكران فخرجت وقالت الله يكفيننا شر السلب بعد العطاء قلت اتركونى أنا
ولا توقظونى للغداء فنمت الى العصر فصحوت عاقلا صباحا فلما رآنى ضحك
منى وقال لى (ماعنوك ضيق) أى ماشربته غير مسكر . وفى يوم أمر مكى
البريأبى الذى انتخبه من الأسرى لتأديب خيله أو ترويضها فبدأ بركوب مهر
فطرده مكى فلما سمع العم غضب وقال له لا تطرد الخيل فتتعبها كما انتخب
الفقيه ولد المجذوب ليدرس أولاده القرآن

ففى يوم ضرب ولده آدم فطلبه وقال له لا تضرب الأولاد وتنفرهم فقلت
له يا عمى عبد الله بك انت عجيب خليك تؤدب بلا طرد وولدك يعلم بلا ضرب
فضحك جدا وقال للفقيه اضربهم وقال لمكى اطرده الخيل ثم التفت الى وقال لى
انت حكيم . فى مرة أراد أن يعمل بساقيته سياجا بيناء مؤقت من اللبن وكتل
التراب القديمة ولم يجد العمال لبنائه فقررنا نحن الأسرى وأولاده القيام
ببنائه بواسطتنا فكان معى الفقيه محمد المدنى وولده ابكر - محمد يأتى
باللبن والكتل وابكر يعمل الطين وأنا ابنى فجاء ينظر عملنا وهدم ما بنيتـه
ووقف كالمغتضب والمتحير فلما جاء المدنى باللبن ووجد البناء مهدوما قال بحده
من هدم هذا رد عليه عمى عبد الله بك بقوله : أنا هدمته فقال محمد لماذا ؟
فقال له من بناء قال بناء بابكر قال العم ليه يبنيه معوجا ؟ رد عليه هل كان
عند أهله بناء ؟ قال العم : كان ملكا . قال محمد الانسان اما أن يكون ملكا
واما أن يكون بناء . الا توجد درجة وسط يعيش فيها ؟ فضحك العم حتى
جلس على الأرض وقال لى : ابن يا سيدى فاعدنا البناء ورجع العم عبد الله
عن باقى مروره حتى أتممنا السياج لم يعد اليه .

بعد أن اطمأنتت على أهلى عزمت على السفر مصرا بناء على آخر جواب
مؤرخ يوم ٤ شعبان بخط أحمد عثمان يقول لى فيه احضر لترجع زوجتك
وبرجوعك نصحبك أنا والحسن أخى لأتزوج أنا أم طبول ويتزوج الحسن
الحسنى اختيك ونعيش معا كما كنا ويخبرنى ان المدنى مصطفى زوج أختى
الكبرى وعمى محمد أحمد شكاك معهم بمصر وان والدتهم توفيت فكل هذه

العوامل الدافعة عجلت بى للقيام ومن المشجع ان مركب عبد الله بك قائمة لمصر ورافقنى فيها عمى حجازى وأبو شمه صديق عمى على شكاك حينما كان عاملا بالمسلمية فنزلنا على بركة الله ونيتى نسييت ما وراءها وتوجهت لمن هو أمامها واشتدت بى الصبابة والحلم الحلو والأمل المسلى فصرت أتمثل مجنون ليلنى وما نسب اليه حتى قلت قصيدة على روى يائيته أذكر منها :

تذكرت أياما لنا ولياليا	مضت بهزاء وسرور تواليا
وحين عيون الحاسدين غوامض	تلهت بما قد كان فيه تلاهيا
الى الله أشكو ما ألقى من النوى	بفقد حبيب كان للود راعيا
ومنها : -	

وجودى يا بقيع بزورة	لتشفى مستقوما له فقدكم اعياء
وان الذى أرجوه يا سيدة النسا	بأن توصلى حبلى وان كان واهيا
ولا تعتبى ستى بما قد جنيته	فقد قل مادام الوداد تصافيا
ومنها : -	

فيارب سو الحب شطرين بيننا	لتصلى بنار الحب كى تدرى مايبا
ويارب يبقى العمر ماقد كتبتة	وعند (بقيع عثمان) تبقى وفاتيا

ولكن انقلب الحب الحلو مرا وخاب الأمل فانقلب بعد التسلية حزنا حينما وصلنا أسيوط ولقين بها من الأسرى من أخبرنى أن البقيع تزوجها الزبير باشا نفسه فى يوم ٢٧ رجب أى قبل تاريخ خطابهما لى بسبعة أيام فأشار على رفيقائى بالرجوع للرمادى ولكنى رأيت هذا اظهار للجزع وفواتا لاداء واجب العزم .

فصممت على وصولى القاهرة وعالجت نفسى فى الطريق حتى سليتها تماما ووصلت القاهرة بحالة هادئة وفكرة واعية والفضل فى ذلك لتربية المهدي « عم » الذى كان يفسر قوله تعالى « لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتيكم » بقول يدخل فى القلوب فتضمه بصمامتها قبل أن يدخل فى الاذان فلما دخلنا مصر أشار عمر حجازى بأن ننزل عند حميد باشا وكيل دائرة حيدر باشا فرفضت أن أنزل فى غير بيت الزبير باشا لأن نزولى عند غيره من مظاهر

الحزن والجزع اللذين لا أحب حينذاك أن يرى أحدهما على فيزداد الشامت
شمتا وقرأت بيت الهزلى :

وتجلدى للشامتين أريهم انى لريب الدهر لا أتضعضع

دخلنا منزل الزير باشا وقابلناه نحو الساعة ٥ مساء فرحب بنا وأولانى
بعض العناية الخاصة ثم خرجنا حيث صلينا المغرب فى جامع السيدة زينب
ورجعنا وصرت أصلى الأوقات فى الجامع كلها . وفى اليوم الرابع صليت الصبح
فلقينى الزير باشا عند باب الجامع خرجنا معا وهو لا بس بنطلون وكبوت
ومكاويه على رأسه بعمامتها ويده سوط يضرب به رجله ويده اليسرى ممسكة
بيدى اليمنى حتى دخلنا بيته حيث وجدنا بعض من الأسرى نائمين فى غرفة
خارجية فصار الباشا يضربهم بالسوط فهبوا كالخيران ولما رأوا الباشا خرجوا
من الغرف فجلس فى برندة سرايه وطلبهم فاجتمعوا حوله وأنا معهم فقال لهم
موبخا الزير باشا عمل لكم المصاريف حتى الفحهم وأجر لكم ييوتا بالجيزة
بعائلاتكم . الزير باشا الى متى هو حى لكم ياناس كفيتكم هم المعيشة
ما تشبعوا لى بنات عمى (نيك) يا ناس ما تسعون فى حرف تعيشون منها فرد
عليه بابكر كرم الله عبد الله فقال يا سعادة الباشا الحرف فى مصر كلها تحتاج
الى مفتاحا وضمانا ورأس مال كل هذا ما عندنا ؟ فكان رد الباشا عليه : أنا
عارف لكم حرفة لا تطلب واحدة من هذه فقالوا ماهى يا سعادة الباشا ؟ قال :
الواحد منكم يمشى حارة اليهود يوم السبت ينيكوه ويعطونه قرشين فخرجت
من بينهم وهم يضحكون مما قال وتفرقوا فخرجوا الساعة ٨ صباحا فى هذا
اليوم طلبنى وهو فى غرفة الجلوس بسرايه فوجدته جالسا على كرسى له
عجلات اذا اتكأ عليه يجرى فى البلاط فأشار على بالجلوس على كرسى مقابل له
فجلست وبدأت بيننا هذه المحاوره : —

ز — لأى سبب جئت لمصر ؟

ب — انت يا سعادة الباشا الناس يتزودون ويخاطرون فى المخاوف ليروك
وأنت فى السودان فلما كتب علينا أن نسكن القطر المصرى لمدة لا نعلمها جئت
لأراك وتعرفنى بشخصى واسمى حتى اذا ما داهمنى ما أحتاج لمساعدتك فيه

كتبت لسعادتك كتاب من تعرفه .

ز : ثم ما السبب ؟

ب : أولاد عثمان أولاد خالي واخواني ووالدتهم توفيت جئت أعزيهم •

ز : ثم ماذا ؟

ب : المدني ابن عمي وصهرى وزوجته وأولاده معي ومحمد أحمد

شكاك عمي جئت أبحث عنهما •

ز : ثم ماذا ؟

ب : جئت أزور السيد الحسين وآله .

ز : ثم ماذا ؟

ب : لا شيء .

ز : انتصب بعد اتكأة خفيفة ثم قال لى ان المرأة التى تزوجتها أنا قالوا

امراتك .

ب : بل مطلقتي .

ز : لا امرأتك .

ب : سبحان الله يا سعادة الباشا أنا الزوج الأول أعترف بالطلاق وأنت

الزوج الثانى تدعى ضده فهذا معكوس .

ز : اسمع يا بابكر انت قلت جئت لكل من ذكرت والحقيقة انت جئت

لامراتك أو لرجوع مطلقتك .

ب : من أين أخذت هذا يا سعادة الباشا ؟

ز : أنا رأيت كتابتك التى جاءت منك بالرغبة ورأيت الجوابات التى

راحت لك بالاجابة .

ب : لما رأيت كل هذا لماذا تزوجتها ؟

ز : متهيجا يا ولد ضحوى يا رضوان يا ود المجذوب تعالوا اسمعوا هذا

الكلام من هذا الولد الذى تقولون صغيرا لا يعبأ به أنا والله منذ كنت الزير

ما سمعت مثل هذا الكلام ما هذه البلادة « شفت كتاباتك » « عرستها ليه

لما شفتها ؟ » (ما بلاده) أشهد على نفسى ثم خرج الجماعة الثلاثة والتفت الى .

ز : اسمع يا بابكر المرأة دى أنا صرفت عليها نحو ثلثمائة جنيها من مصاغ الى لباس الى فراش شىء يليق بمقامى أنا والآن عزمت أطلقها وتبقى معى حتى تستعد وأرجعها لك بما عملته لها وأنا الزبير أنا أعمل لك هذا كله .

ب : متحمسا انت والله هذا ليس لك بفخر .

ز : انت تعمل هذا .

ب : نعم أنا ما عندى مال كهذا ولكن اذا تكتب لى خطابا تطلب منى طلاق زوجتى وارسالها لك اعمل فانظر أنت أصعب الزوجة أو المال .

ز : سكت مليا ثم قال لى ان كنت تجبر خاطرى وتعتبرنى كوالدك تقبل منى طلاقها ورجوعها لك لأتدارك غلطتى .

ب : يا سعادة الباشا هذه البنت كانت ترى بيتنا أكثر من بيت أبوها والآن صارت فى بيت الباشا الذى هو أكبر بيت سودانى الآن فلا ترضى بى .

ز : على الطلاق راضية بك لأنى حينما أخبرتها بوجودك جرت مدامعها وبدأ عليها أثر الحزن .

ب : يا سعادة الباشا نحن الآن فى أسر ولا غرض لنا فى النساء فاذا رغبنا الزواج بعد حين فالسودانيات موجودات عند الاغريق وعند العبيد وكثير منهن (مكتعبات) أى صابرات على حرارتها أما النساء اللاتى دخلن بيتك لتخلص من تخلص وتبقى الحره على حرارتها أما النساء اللاتى دخلن بيتك فهؤلاء حفظن وان كن يأكلن الطعام ويضمن الكسوة فضلا عن صارت زوجتك فانى أقول لسعادتك هذه المرأة التى تراودنى عليها لا أتحمل من شأنها هذه المنه منك ومن اخوانها ما لها فى قلبى ما يضطرنى لتحمل هذا وأنا أقول لسعادتك اذا كانت كحواء وكنت كآدم يتوقف على اجتماعنا كزوجين حفظ النسل البشرى فأنا محرما مهما حلت لى .

ز : وضع يديه على رأسه كالعامه وقال أعوذ بالله من هذه الجرأة ثم نادى أحمد عثمان أخوها الكبير له يا أحمد اسمع .

ز : بابكر قال انه جاء يرانى ويعرفنى وهو كذاب وقال ما قال حتى كرر كلامى الذى قدمته له سببا ويقول وهو كذاب جاء لامرأته يرجعها فأنا الآن عزمت أن أطلقها فتستعد ونرجعها له بما معها من أمتعة .

أ : يا سعادة الباشا حينما طلبت أنت زواجها نحن ما تجاھلنا بأبكر عرضنا عليك الكتابات التي دارت بيننا وسعادتك سمعت كلام غيرنا وقلت رغم هذا زوجونيها فنفذنا ارادتك فالآن وقد حضر بأبكر للغرض الذي ذكرته وعزمك الذي عزمته فنحن لا نوافق عليه بأبكر اذا كان بحاله السابق الذي نعرفه عنه اذا طلقته له فمحال يتزوجها واذا تغير عن حاله فنحن لا نبالي به يغضب أو يرضى فاذا كنت سعادتك قنعت منها فطلقها تعيش في بيتك كماخواتها .

ز : على الطلاق كلام بأبكر أحسن من كلامك وهو أرجل منك وأعقل منك .

ب : يا سعادة الباشا آباؤنا وآباؤهم جيران في بلدنا نحن تزوجنا منهم ثمان نسوان وهم لم يتزوجوا منا امرأة واحدة فلهم الفضل علينا في سابقتهم فاتركنا يا سعادة الباشا لئلا نجفوا بعضنا أما أنا وسعادتك فعلى قرارنا .

ز : امشى عاد لأرى رأيي فخرجت وبعد أيام بلغني انه عزم على طلاقها وصدفة اجتمع عنده الشيخ مضوى ووالدنا الشيخ العاقب عصرا فقلت لهما أخبرا سعادة الباشا أنا بيدي نقود أصرف منها على نفسي حينما نزلت بيته فاذا طلق البقيع أنا أرحل من بيته أو أسافر اليوم من مصر قبل العيد فلما أخبراه طلبني وقال لى بلغتنى وصيتك ورجعت عما عزمته عليه لكن رأيت في كتاب كتبه لك أحمد عثمان أن تأتي بأختيك يتزوج أحمد واحدة والحسن الثانية فاني أطلب أن تنفذ هذا وأنت تتزوج أختها آمنة وتعيشون في كنفى فأزعجني قوله : كنفى فقتربت منه وهمست في أذنه انى لا أستطيع حارة اليهود يوم السبت فضحك وقال لى : همسا اسألهم هل ترى أحدا منهم يذكرها قلت همسا أظنك يا سعادة الباشا أكثر من أمثالها عليهم حتى ألفوها فضحك ورجع للجماعة قائلاً ماقولكم فى انه يتزوج أختها فقلت : يا سعادة الباشا ان صح شرعا فلا يصح عرفا فحكى انه رأى قبيلة فى دارفور تكونت من رجلين من الأشراف نزحاً لدارفور بزوجتيهما فأحدهما توفى عن ولد واحد والثانى توفى عن سبع بنات فالبنت الكبيرة تزوجت ابن عمها حتى حملت منه فطلقته وزوجته الثانية حتى حملت منه وزوجته الثالثة حتى دار عليهم ثلاث مرات

فقلت كيف كونوا قبيلة ان لم يدخلوا غريبا بينهم وهم كلهم اخوان من أب واحد . فالتفت لى سعادة الباشا وقال : والله يا ولد الحرام ما انتبهت لهذا الانتقاد فأسألهم عنه . ثم قلت له هؤلاء اضطروهم عدم جنسهم ولكننا بحمد الله عندنا نساء عند الاغريق والعبيد وكررت العبارة التى قلتها له فلما رأى عزيمنى سكت وبعد هنيهة سألنى الشيخ مضوى عبد الرحمن : هل تعتقد ان المهدي هو المهدي ؟ قلت وأنت لا تعتقده وانت الذى قبضت على لحيته وقلت لأهلك ولغيرهم بكر كوج والعليفون اذا لم يكن هو المهدي فاقبضوا على لحيته هذه هكذا وقولوا والله غشنا مضوى . قال لى : نعم قلت هذا حينما رأيته بقدير قائما دين الله تماما فلما توفى ورأيت التغير أنكرت . قلت يا مولاي هل أخبرت الناس الذين آمنوا بايمانك أن يرجعوا برجوعك ؟ قال لا . وضحك الزبير باشا حتى ضرب على أوراكه وقال ولد الحرام ده من وين فقال له الشيخ العاقب : هذا بعض من ذكاء والده وانصرفنا فلما كانت الجمعة اليتيمة من رمضان وخرج الخديوى توفيق باشا بأبهة عظيمة للصلاة فى الجامع العمري وأنا كذلك ذهبت للصلاة به وبعد ما صلينا خرجت فرأيت تلك الأبهة والعظمة من السلاح والرجال * كان اعتقادي فى أن جيشنا الذى يأتى بعدنا فى أن يفتح مصر ويخلصنا من الأسر أقرب عندي من أن نرجع للسودان هذه ظاهرة من أثر العقيدة الصماء لما جئت مصر حاملا جوابا من عمى على شكاك أرسله لى بيد أحد لا أذكر اسمه أخبرنى فيه بأنه سيحضر المقطر المصرى مع المنصور أبو كوع ليرحل زوجته التى تركها ببلانا وبوصولى مع زوجته شقيقه محمد أحمد شكاك متزوجا بها فلما عرضت عليه الجواب انفصلا عن بعضهما فتزوجت هى أحمد عثمان الذى أيس من أختى وتزوج محمد أحمد آمنة عثمان التى عرضها الزبير باشا .

ثم صممت على السفر للرمادى بعد العيد مباشرة فلما ودعت سعادة الزبير باشا الذى كان الناس يتنبئون لى بهدية عظيمة منه أمر لى بجنيهين ونصف ثوب دبلان فأخذتهما وظننت أن صراحتى معه بما لم يسمعه من غيرى أثرت فى نفسه . سافرت بمركب وكنت أعلم قبل سفرى من أولاد عثمان أن بنت خالتهما فاطمة بنت الفضل وولدها دفع الله شببكة الصغير ومريم زوجة أبيها الفضل

الذى مات بالشلال موجودون عند أولاد أبى ستيت فى ضواحي مدينة البلينا
وسافر معى المدينى بزوجته بنت الكلانى فلما وصلنا للبلينا طلبت من ريس
المركب أن ينتظرنا حتى نرجع من أولاد أبى ستيت فتكرم فوصلتهم وطلبت
منهم السفر معى فامتنعوا فلما أخبرت مريم بابتها حفصه انها بأصوان كما
رأيتها مع سرية خالها أحمد عمر التى تزوجت بياتين الشاعر قالت لى سألحقكم
فرجعت وسافرنا وفى طريقنا أخبرنى بعض الأسرى انه رأى الروضه بنت محمد
ابن عمنا وأمها فاطمة بنت حاج الحسن قديلاوى بأصوان صممت على انى
أتوجه اليهما فلما وصلت الرمادى جئت أودع عمى عبد الله بك فقال لى :
ما تريد من أصوان حكيت له غرضى فقال لى : البنت لا تأتى معك قلت له :
ستأتى . فكرر النفى وكررت الايجاب وأخذت معى آمنة بنت الحرم النمايية
والدة الجزولى والشاذلى لتكون همزة اتصال بينى وبين الروضة وفعلا جاءتنى
بها فوعدتنى انها تمشى معى وعدا جعلنى أطمئن ثم جاءتنى غدا وقالت لى
امشى معى لبيتى تتعدى معى فمشيت معها وهى فى المطبخ دخل عليها زوجها
العبد وكانت آمنه وراء المطبخ فسمعتة يقول لها أنا خبرت الباشا وسيضعهما
فى السجن الرجل والمرأة فأمنه من مكانها ذاك خرجت من بيتها وسارت للبحر
حيث وجدت مركبا مسافرا دخلت فلما وصلت الرمادى أخبرتهم انى فى السجن
بينما أنا فى انتظار الغداء اذ جاءنى بوليس وقال لى ودهاوس باشا طالبك
والمرأة التى معك والبنت الروضه فبحثنا عن آمنه فلم نجدها وتوجهنا أنا
والروضه حيث وجدنا زوجها بخيت موافى أمام الباشا فوقفنا معه فقال لى
الباشا بلسان عربى انت جئت للبنت ده ؟ قلت : نعم هى أبوها ابن عمى وأمها
بنت خالى . سألها صحيح هو عمك ؟ قالت نعم وصاحب خالى كمان - فقال لها
تمشى معه أو تبقى مع زوجك ؟ قالت : ابقى مع زوجى . فضحك وقال : هى
مش عاوزاك . قلت : أنا مش عاوزها وأخذها زوجها بيدها وفارقانى فقصدت
البحر لأبحث لى عن مركب أسافر بها مكسوفاً ووصلت الرمادى . دخلت على
عمى عبد الله ووجدته يقرأ فى جريدة أمسك بيدي ومجلسه حافل فقال : من
هذا تهكما قلت بابكر قال البنت جاءت معك قلت لم تأتى قال انت مجنون
البنت وجدت زب العبد الأخرش تخليه وتتبعك (جاءتنى نوبة الصراحة)

قلت له البنت زب العبد مخلوقة له ومخلوق لها وهي صغيرة أخذت قهرا لها
أعذار . فأخذ يقرأ حتى انصرف عنه الناس فطلبني فجئته فقال لى بابكر تعيرنى
أمام ناس البلد يحفظون على ما قلت لى قلت انت الغنى الموظف الكبير فى
سنتك وفى مقامك وثروتك تزيدك شرفا على شرف ونحن الأسرى الضعفاء
والفقراء تزيدنا احتقارا على احتقار هذا لا تجده عندى وانصرفت عنه، وجلست
على جدول ساقيه خارج الوكالة فجاءنى الأسرى الذين حضروا وسمعوا
الحادثة قالوا لى يا بابكر أغضبت علينا عبد الله بك الرجل المحسن فىنا وهو
وراء الباب يسمع ما أقول مما جعلنى أظن انه بعثهم لى فقلت لهم بصوت
مسموع مغضب عبد الله بك ما يكفيه ان الله أحاجنا له من قبائل شتى وممكنه
من أن يأسر قبائلنا باحسانه لنا ان لم يعرف أبى فلا شك انه يعرف عمى مالك
الذى كان يرافقه فى اسفاره وانا من هذا اليوم اذا قعدت فى كنفه أكون
(ولد حرام) وهو يعمل لى ما يشاء انصرفوا عنى فانى لست ممن يحمى له
جميله أكثر مما حمل هو لى برضاى ابقى قعيده . وبعد هنيهة طلبنى فوجدت
عشاءه أمامه فقال لى اجلس كل فقلت لا آكل فهم أن يقف فيجلسنى فقلت اسمع
يا عمى عبد الله بك أنا اذا صرت غنيا مثلك وجئت عندك ضيفا ما أكلت طعامك
اذا أكلته أكون (ود حرام) لا تتعب وخرجت .

لم أنم تلك الليلة هادئا وبمجرد شروق الشمس نزلت للشاطئء أتنظر
مركبا تحملنا لأسوان فجاءنى وطلب منى أن أرجع فلم يسكن فأعطانى جنيها
للأجرة والزاد فرفضته وهو معى مرت مركب رفعت لها يدى مالت علينا فأنزلت
أهلى والمدنى ودفعت للرئيس الأجرة مقدما فأيس من رجوعى وأخيرا قال لى
كنت أريد أن أعمل معك مصاهرة فى أختك الصغيرة فقلت آه ما كنت أعطيها
فقال ولم قلت لأنى سمعتك وأنت متزوج بنت الختام وأمها بنت الفقيه أحمد
ولد هاشمى قلت من فتح الباب بتاع الخيل قيل لك فتحه محمد الختام قلت ولد
الختام مين الله يلعن أمه يا شيخ . فضحك وقال اسـتودعناك الله (ما فىك
بصاره) .

وصلنا أسوان وما بيدي غير ٧٢ قرشا أجرنا غرفة واحدة بعشرين قرشا
ودخلنا فيها عند الغروب وفى الصباح ذهبنا للسوق والبحر أبحث عن عمل

فوجدت أكثر اخواننا الأسرى عمالا باليومية في العمارات اليوم بقرشين فجال
في بالى هذا الفكر ومعى جاز بنت مصطفى وزينب عبد الله ولد مالك واخوانى
الثلاثة وأمى اليوم قرشين لا يكفيننا أكلا مهما اقتصدنا وان كلفت النساء
بخدمة لأكلهن لا أدري ما يحصل لهن أثناء الخدمة ونحن فى نيتنا الرجوع
لبلدنا فاذا تعودن منقصة هنا تخالف عوائدنا وديننا لا آمن أن يعملن هناك
ولو من غير قصد فتفضحن فى بلدنا . تحت ضغط هذا الفكر ملت على رجل
سمكرى بسوق الحاج حسن بأصوان قلت له انى أريد أن أشتغل معك وما
أصنعه أنا يكون مناصفة بيننا آخذ فيه النصف والنصف لك نظير المواد والدكان
وافقنى على ذلك فعدت أنظر اليه كيف يلحم فمسكت الكاوى ولحمت به كوز
ثم رأيته يقطع الصفيحة كبيرة ويقص منها قليلا قليلا بالمقص فيتأخر فى العمل
نهاره زيادة عن تبذير الصفيح أحضرت ورقة مقواة من صندوق جزمة
وقسمتها الى سنتيمترا أجعل له خطا أحمر ونصف السنتيمتر خطا أخضر ولما
أراد أن يلحم كوزا رطلا تناولته منه وأخذت طوله وعرضه وحفظته جيدا
وصرت أمسك لوح الصفيح وأعلم من حافته الطول والعرض وأوصل بالخط
برأس المقص ثم أقطع فيقول لى الأسطى خسرت أقول له ان خسرت اخسره
منى ثم ألقه على السنداله وألحمه وأعمل قعره ويده فيملأ كوزه ماء ويصبه فيه
يجده تماما فصرت أصنع أربعة أكواز الى خمسة وهو لا يكمل اثنين وقال لى
يوما علمنى طريقتك فى الشغل فقلت له أنا أهلى علمونى العلم والحساب هل
ممكن أعلمك الآن وبعد أيام وجدت ايرادى منه لا يكفى لضيق العمل وقلة
التصريف تركت السمكرية وذهبت للخياطين ومكثت معهم أيضا أياما فما
وجدت منهم فائدة تركتهم ثم بلغنى أن بسوق الحارث بأصوان سودانى جلاد
فمشيت له وقلت له أنا أعرف الجلاده وأريد أن أشتغل معك آخذ نصف
ما أصنعه وافقنى وكان يقدر فى سير رقيق فخرج وقال لى خلص السير هذا
الى أن آتى فمسكت الموس وصرت أقدر ببطء حتى اعتادت يدي فلما أتى وجدنى
ماهرا فى قد السير فاقتنع بآنى جلاد والجلادة صنعة نافعة كثيرة الزبائن واسعة
العمل المتنوع بأعداد كثيرة لأن العبايدة يطلبون زينة أدوات جمالهم بتنافس
سروج ورسانة وقلائد وسيوف وسكاكين وأسواط أو بيض نعام وغير ذلك
وبعدما عرفت اسمه على ود سعد وانه ميرقابى وعرفنى انى رباطابى ومعى عائلات

أشار على بل سمح لي أن أأخذ الشيطان مكرني أسعفها بالخير والبر
أجرتها لي فجعلت آخذ المائة سوط وأجرتها مائة قرش وأشتري الجلد غير
جلود الدكاكين وأقدها سيورا وعلمت البنات كيف يلففن والمدني كيف يعقد
وصرنا كلنا نشتغل المائة ونخلصها بين يومين وثلاثة ليالي فتوسعنا وبدأنا نحسن
طعامنا ففي يوم أخذت أجلد في سكنين بلدية فقطعت الجلد قدر المحيط للمكان
العريض منها ثم عملت الشيطان وكسوتها بالجلد وأردت أن أبرز الشيطان
يصغر الجلد وإذا أتممت الجلد ببطنها تنمحي الشيطان وهو ينظر الى فلما
تعبت أخذها مني وقال لي انت لست جلادا ولكنك نبيه فقطع الجلد كبيرا ثم
أبرز الشيطان بالمحرات حتى يبست ووضعها في قلب السكين وألن باقى الجلد
بالماء ومسحه بالمديدة للزقة وصار يضغط عليه بالمحرات ليجتمع على بعضه
حتى صار كأنه غير مطبق وتركه حتى كاد ييبس ثم امشى عليه المحرات ليظهر
محل القطع وسطا ورمى بها الى فقال اقطع الجلد وخيطها وما وقف على شيء
غيرها .

ترك لي على ود سعد الدكان وصار يحوم في البلد وفي السوق لمصالحه
الأخرى فصرت أنا الذى أتفق مع الزبائن في الأجرة والمسئول عن كل
المصنوعات وأكتب عدد المصنوعات وأجرتها فقط ، هو يأتي في آخر الشهر
ويجعل لي ما كنت آخذه حينما كان هو الذى يقوم بداخلة الدكان من
مشتروات وغيرها وهو يشتغل معي فقلت له يوما أنت لك على الشكران
والجميل لأنك نورتني وانما أرى لك أعمال أخرى شغلتك عن مباشرة الدكان
فتفضل بالنسبة لعملى وحملى واعطنى الثلاثين وانى مستعد أن أقوم لك بكل
العمل والحساب بدقة فرفض فقلت له انى أخاف أن نفترق فنصير خصمين
بعدها كنا كالأخوين فأصر على ابائه فمشيت لرجل صانع من اشراف بربر الخفاب
يسمى على ود المزند وحكى له مطامع على ود سعد وكان أملى أن يتداخل
بيننا ولكنه قال لي على ود سعد يريد أن يستعبدك آملا انك لا تجد رأس
مال وأمنية وضمانا . حالا قفل دكانه وأخذني معه للضبطية حيث وضع ستة
ريالات كبيرة تأمينا ووضع ضمانا على ورجع معي حيث أجر لي دكانا ودفع
أجرة شهر مقدما ثم أعطاني جنيها رأس مال فصار كل ما صرفه على ٢٨٠ قرشا

فشكرته وأصبحت صاحب دكان مستقل فاشتريت لى عدة (عدة صنعة) وعملت الباقي بنفسى واشترت جلدتين وجلست فى دكانى وتعرفت بتجار الأناثيك كأولاد عويضة ومدنى يحيى ومصطفى وغيرهم وللحظ حضر الشيخ عبد الله كريم الدين من السودان ومعه الأسواط وبيض النعام كميات كبيرة فوافقته على أن أطيع السوط وأجعل له يدا بقرشين فاشتريت القطران وجئت بالمدنى وكمال الدين مصطفى معى بالدكان . مدنى يمسح الأسواط بالقطران ويمشقتها وكمال الدين علمته كيف يقد السير واستلمت من الشيخ عبد الله كريم الدين ألفى سوط عربونها جنيهان اشتريت منها جلودا واشترت من الشيخ عبد الله ما عنده من بيض النعام وجلود الأصلة والورل والتمساح بأثمان رخيصة جدا لأنى كنت أجهل ثمنها حتى يرجع من مصر فجاءنى زبائنهم الذين يعرفون ثمنها فبعت لهم البعض من كل نوع واحتفظت بالبعض وذلك لأنى ظننت أن الشيخ عبد الله حينما يصل من مصر يحتاج الى نقود فيخاطبنى بتحويل وفعلا حصل هذا ومن ذلك الحين اتسعت صنعتنا وحسنت حالنا فأجرنا ثلاثة منازل بحارة الحدادين منزل لوالدتى ومن معها من البنات زينب بت ود عبد الله والحسنة لأن أم طبول وراز زوجتا لوطينين من الفلاحين ومنزل للمدنى وزوجته وبناته ودفعت لعلى ود المزند المئتين وثمانين قرشا بعد أن أوضحت له حالتي وشكرته وجئت بالدكان باثنين آخرين من الأسرى فصرنا مجموعة اضطررنا للنقل الى دكان أوسع بجوار رجل يدعى صالح مزينا وطباخا فجعلت لى جدولا للأعمال هكذا اسم صاحب الشغل نوع الشغل وصرت كلما وصلت الدكان صباحا أنظر فى خانة الميعاد فنشتغل كلنا فى اتمام ذلك العمل حتى اذا جاء صاحبه قلت له فى العصر جئنا وباقي الحساب بيدك فيجىء ويستلم شغله كاملا عددا وصنعة والزبون الذى يقدم شغلا جديدا أنظر قبل أن أتفق معه على الأجرة أنظر كم يوما بين هذا اليوم وآخر ميعاد لما بيدى ثم أنظر كم يوما يستغرقها عمله وأضم العددين وأقول بعد كذا يوما تأخذ شغلك تاما كاملا عددا وصنعة فكلهم قبلما يعرفون وعدى يقول يا أسطى هذا زمن طويل . أريه الجدول وأقرأه له ان كان أميا فبعضهم يقتنع ويقبل وبعضهم يستكثر الأيام ويرجع بشغله يعطيه غيرى من الجلادين فبعضهم يمضى زمنا أكثر من زمنا الذى قررناه له ولا يستلم من شغله شيئا فيرجع به لنا فقد يكون الميعاد الجديد

أكثر أياما من وعده الأول فيقبل مضطرا وبهذه الطريقة أصبح دكاننا لا يمكن أن يفرغ من العمل حتى بارحنا أسوان .

أرسل لى عم عبد الله بك حمزة لأصل له بالرمادى لأصنع له سروجاً لخياله بعضها من جديد وبعضها لقطع جلده فوصلته ووجدت جلده بقرا فنصحت له بأخذ السروج لأسوان لأجلدها بجلد الجمل الذى لا يطيع وأخذتها فعلا فجلدتها وأرسلتها له فبعد مده جاء بأسوان فذهبت له وسلمت عليه فأراد أن يعطينى قيمة عمل السروج فرفضت وقلت له أساهم معك فى تكاليف اخوانى الأسرى لأننى مبسوط وشرحت له إرادى ومنصرفى فدعا لى بالخير وتنبأ لى بمستقبل باهر فشكرته وانصرفت .

وفى ربيع سنة ١٣٠٧ هجرية جاء الخديوى توفيق باشا لأسوان مارا لحلفا عملت له زينة عظيمة فيها المراكب والسواقى بالأنوار وأمرنا بتزيين الدكاكين وكان لنا جار طباح ومزين حشاش يقال له صالح عمل الزينة على باب دكانه ولما كان دكاننا يلاصقه أخذ دكاننا قليلا من زينته فلما جئت صباحا قلت له عم أسطى صالح زينتنا جميلة فغضب وقال كم دفعت فيها زينتك يا ابن الكلب وهجم على ما بدكاننا فمزقها فأخرجت كل ما أتمست عمله بدكانى من مصنوعات وما يكاد يتم وعملت مسامير صفوفا فى باب دكانى وعلقت فيه الشيطان اللاتى حسنت صنع أيديهن حتى كنت آخذ على يد السوط خمسين قرشا للمتقن جدا . منها صفا أسفل والسكاكين مخملية بأبيات الترايش صفا والطناير مخملية ببيض النعام صفا وركزت الحراب والسيوف والدرق بعيدا قليلا عن باب الدكان فكان ملفتا للنظر فجاءت ابنتان معهما ضابطان عظيمان وأظنهما بنتى الخديوى أو من العائلة المالكة فلما رأوا زينتنا نزلا ومالتا علينا فأحضرت لهما كرسيين وكرسيين للضابطين وصرت أحضر لهما كل ما أشارتا له وكنت أملت منهم فائدة عظيمة ولعدم الحظ قام كمال الدين مصطفى الصبى بالدكان وأخذ طنبورا وغنى على نعمته فسرتا وزاد أملى لكنه أخيرا قفز بينهما وصوت صوتا أزعهما فقفزت كل واحدة منزعة وركبوا وضاعت فرصتنا فأوجعته ضربا .

جاءت مريم من بنى سويف واجتمعت بابنتها حفصة واجتمعنا . فخطب ابنتها بعض الأسرى وخطبتها من ضمنهم فقالت أنى أعطيها بابكر لأنه اما أن

يمسكها سمح أو يطلقها سمح وفعلا تزوجت بها وصرفت على زواجها مائتين
وسبعين قرشا فكان له شهرة كشهرة زواج الحردلو بن أحمد أبى سن لستنا
بت أبو عاقلة حيث جمع والده نظار السودان من حلفا الى فازوقلى لأن زواج
الأسرى يقدم بعضهم للمرأة عمته أو أحد ثيابه صداقا وهى ترده له ولم يسبق
أن أولم أحد وعقد فى جمعية عادية قبلى ثم صار منهم التجار والصناع وتحسنت
حالة الكثير منهم فلما تحسنت حالتنا صرنا نجىء كل مساء بلبشة « ربطة من
قصب السكر » نقسمها نعطي أمى أحسنها ومنزلى وسطها وأختى قريبا منها
وكانت زوجتى فى غرفة ثانى سكن ففى يوم ما كنت مدعوا فوققت فى الشارع
وقلت لكمال الدين مصطفى خذ هذه القصبات لأمى ثم رجع قلت له خذ هذه
لحفصه زوجتى وهذه للسهوة وبناتها فرأت حفصه هذا التقسيم فلم
يرضا فتركت نصيبها فى مكانه خلاف عاداتها فقلت : لماذا لا تأكلينى القصب
قالت : انت تعطى أمك الأحسن وتعطينى الزفت فكسرت وأكلت وهى غضبى
فالتفت عليها وقلت لها اذا تذكرين والدتى بسوء أو تطالبينى بمساواتها أو
التفضل عليها بعد اليوم فأنت طالق ثلاثا فمن ذلك اليوم الى أن توفيت والدتى
ما عرضت بها وانى قلت لها ذلك قياسا على قول صخر :

فأى أمرىء ساوى بأم حليلة فما عاش الا فى شقا وهوان

— فى أثناء عملنا قفلت سكة السودان وانعدمت جلود العرد والمدس التى
تلزم لسروج وأرسنة وعقاد وورق جمال العباددة فبحثت عند رجل عطار عنده
كثير من الصبغات لعلى أجد منه لونا يشبه لون المدس أو العرد فى لونهما
البرتقالى فبحثت كثيرا حتى جاءنى بعلبة صغيرة فيها زيلقون فأخذت منه
قليلا وصبغت به جلدا أبيض حتى ييس ثم أعطيته مسحة أخرى فلما ييس صار
لونه برتقاليا مسحته بالليمون فوجدته ثابت اللون ثم مسحته بدهن وغسلته
بالصابون ومسحته بالليمون وتركته فى الشمس يومين ولما وجدته لم يتغير لونه
اشتريت كل العلبة من حاج عبد الله وصرت أصبغ بها الجلود وأشتغل به كالمدرس
والعرد ولم يعلم الجلادون الآخرون من أين آتى بهذه الجلود حتى بقيت على
السفر فأطلعت عوض الله العبادى على السر وأعطينته ما بقى معى من الصبغة .
رغما عن تحسن حالتنا وقربنا من الثروة والشهرة لو أقمنا ما زالت
العقيدة تنازعنا وتدعونا للسفر للسودان أكثر من شوقنا لوطننا وأهلنا .

الرجوع الى السودان :

سمعت بأن كرار بشير العبادي صرح له بالسفر للسودان وهو بدراو فمشيت لأودعه فلما أراد أن يركب انهملت دموعي وقلت له يا كرار اخبر خليفة المهدي عم ان أصحاب المهدي راضون بكل ما حصل عليهم اذا ضمنوا رضاك عنهم وعنايتك بهم حصل هذا أمام جمع غفير ما باليت بضررهم ولا بهزئهم ثم فكرت في كيف نحصل على التسريح بالرجوع لأهلنا فعرضت فكرتي هذه في جمعية من الأسرى لا أذكر سببه فجلبهم حبذوا رأيي واتفقنا على أن نكتب طلبا لود هاوس باشا نطلب منه تسريح السفر لأهلنا فكتبنا له طلبا لم ندر ماذا حصل فيه فلما تأخر كتبنا سبع طلبات وضعنا اثنين في صندوق مكتبه الخاص واثنين في مكتب البوستة العام واثنين ناولناهما باليد كل واحد في مكان آخر وهو راكب حصانه وآخر بالشارع ففى غد طلبنا بالمحافظة فقابلنا بآجمعنا فقال بلسانه الفصيح : اتم لماذا تطلبون السفر للسودان ؟ فأجابه خالد الشعديناى وكان رجلا طويلا جسيما فقال له ياسعادة الباشا نحن جائعون هنا أسرى فقال له انت سمين ما تخدم وتأكل • أجابه خالد : نعم أنا سمين وأخدم ولكن اليوم قرشين والأولاد كثيرة فقال باتين للباشا نحن بلغنا ان أهلنا بالسودان مات الكثير منهم بالجوع والمرض فنريد أن نصلهم لنخلف من مات ونساعد الحي فقال الباشا : الجوع للان موجود في السودان فالأحسن تبقون هنا فقال له خالد اذاً اما أن تصرح لنا أو تربط لنا مرتبات أو تضربونا رصاص فغضب الباشا وقال لخالد انت بليد اذا كنا نضربك رصاص كان حينما أسرنالك ضعيفا انت خروف نسمنك لنذبحك ثم التفت الى باتين وقال له أنا أكتب على طلبكم وبعد خمسة عشر يوما أطلبكم وأخبركم وقبل يوم الميعاد سافر باتين مع بعض العبادة للسودان بمفرده لأنه كان يغنى معهم وخصوصا الخضرى المشهور الذى قال :

والواحد ييـازن سبعة
أحيمر مابتدوسك رقعه

مادام الرجال متبعه
ان جمعوها من البقعه

أجابه باتين بقوله :

ليشن يسووا ججر الضبعه

مادام الرجال متبعه

أخاف مابتنستري يا ابتفعه

ربى ان كتب لك وقعة

(ولا أدري معنى تفعه)

ولما جاء الميعاد طلبنا الباشا وأخبرنا بأنه قد صدق له بتشهيلنا للسودان وانه سيصرف لكل نفر منا كيلة قمح وعشرين قرشا ويعطينا المراكب الى حلما ولكن يجب أن تعرضوا أنفسكم ونسائكم وأولادكم لكي أتحقق من عددكم فقال بشير بك الجبران : أهالى السودان لا يرضون أن ينظر رجل نسائهم .. وقال الباشا أنا عارف ذلك أنا أجيء بامرأتى معى وهم ينظرون لامرأتى وأنا أنظر وحدى نسائهم فضحكنا ورضينا بذلك مادام وحده فانه كالمحرم لنسائنا فجئنا بشارع المحافظة حيث عين لنا مكان لا يمر به أحد وجاء الباشا وامراته وحسب الناس وكتب أسماء الرجال ومن فى عيشة كل واحد وقام الرعيل الأول بالمراكب وتأخرنا عنه لنجمع أطرافنا وتأتى أم طبول لأن جاز طلقت وحضرت لنا من زمن

وقبل قيامنا كتبت لعننا الزبير باشا أخبره فيه بأنا طلبنا تسريحا بالسفر للسودان وسرح لنا فعلا وحيث ان سعادتك قد سمعت بفناء قبائك بالسودان من مجاعات سنة ستة وسبعة وما أعقبهما من وباء بالجدرى وان من بقى من كل قبيلة ممكن عددهم أقل ممن هم بالقطر المصرى وخصوصا مع سعادتك كثير منهم فلو سرحت لهم وشهلتهم ليتوجهوا للسودان لضاعفت المنه عليهم منك فقراً عليهم كتابى وأمرهم بالسفر جميعاً *

(أم طبول) لما عزمنا على السفر علمت انا لم نعط المراكب كالدفتين السابقتين اشتريت حمارين أحدهما لأمى والثانى لأختى الجبلى - قلت للمدنى فركب الحمارين ونذهب لأم طبول بالرغامة وهى حلة شمال دراو بمرحلة لناأتى بها فتسافر معنا فأخذ المدنى يشبطنى عن السفر لها بشتى أنواع التشبيط حتى قال لى تذكر مسألة الروضة فحلفت له بالطلاق بأننى لا أسافر حتى أصلها فان

أبت السفر وجدت عذرا عند أبي وان رضيت أوصلتها أيها فركب معي فلما وصلنا حلة الرغامة عصرا سلمنا على زوجها محمود وعلى أبو غانم ولم نذكر لهما غرضنا وعند المغرب لدغتنى عقرب شغلتهن وشغلتننا عن المحادثة وأم طبول ساهرة معي الى الصبح أخبرتها بغرضنا أخذها معنا فقالت أخذتم التساريح ؟ قلت نعم ، قالت متى سفركم ؟ قلت يوم الاثنين - واليوم الخميس قالت أقوم معكم رغم رغبتى لأنك ترى منزلى ملان بأنواع البهائم والطيور الداجنة وفتحت لى مخزنها الحافل بكل ما يحتاج اليه الانسان وقالت كنت أتمنى أن تأتيني قبل الآن زائرا فنكرمك ونهديك ولكن رغم هذا أنا لا أتأخر عنك فازعجك طول حياتك وأجعلك موضع تهمة في التقصير عن واجبك نحوى فلما تأكدت منها أخبرت المدنى ومشينا الى عمنا غانم الذى يتجاوز السبعين من عمره وأخبرناه فأطال معنا الرجاء والضمان لراحتها والجدل أخيرا حتى قال أم طبول عيني فقلت له تتركك أعور ولكنها عيني الاثنين فتركتنى أعمى وبعد كل هذا لم يقتنع فخرجت من عنده وشددنا حمارينا كأننا تركناها لهم والمدنى تقدم بالخروج من الحلة وحده ومشيت لها فلقيتنى عند باب الدار بقميصها كنسائهم فقلت لها اركبى قالت آنى بحجباتى ودخلت غرفتها حالا لبست ثوبها وحجباتها وأتتنى كالبرق قالت لى ارفع لى رجلى فركبت وأسرعت بها فما علموا بسفرنا حتى صرنا راي العين لحقنا زوجها فقلت له تودع والدتها واخواتها فأتنا أنت بأسوان ترجع بها فالتفتت اليه وقالت لا تتعب أنا مسافرة السودان وبيتك كما هو لم آخذ منه شيئا فارجع الى أهلك وضربت الحمار وسارت مع المدنى وأمسكنى يتأكد من هل يأتى لأسوان فقلت له قد سمعت قولها فتركنى ورجع وهو باك ثم لحقنا بأسوان وفي آخر لحظة طلبنا منه طلاقها فأوقعه في الليلة التى نصبح مسافرين فيها .

سافرنا بالبحر مودعين أسوان بالمراكب التى يسرها الله بعد أن قنعنا منها وحمارانا معنا فى المركب الى حلطا - أسوان التى سعدنا فيها والتى لولا يوسف الذى بقى والذى اذا ذكرته فزعت من النوم والذى اذا رأيت وجهى فى المرآه يعلم الله هاجت على ذكراه . وصلنا حلطا حيث أقمنا يومين اشترينا فيها ما يلزمنا للسفر ولا أنسى ما لقيناه من اللطف من الشيخين طه مكى وشريكه

الطيب فلما بقينا على السفر جاءنى عمر الحاج من أهالى أم دوم وعرفنى ان له أخت كبيرة تزوجها بتجاويز زنجى ووعدت بأنها تسافر معنا فلنمض لها نأتى بها وبأختها الصغرى ومضيئا معا ودخلت عليهم فى بيتهم وزوجها يحادثنا أطيح حديث وأحسن ترحيب فاذا البوليس يدعونا جميعا للمكتب الذى وجدنا فيه صاغنا مصريا يدعى خير الله أفندى فأول ما وقفنا أمامه قال لنا الله يتعبكم أتعبتونا رايحين جايين وقد ملأتم البلد شراميط فقلت له أأنتم غلبتمونا رؤساء ونحن أتعبناكم أسرى فانظر أين المتعب — اما الشراميط فقبل أن نجىء نحن كل بلد بها كفايتها منكم يثبت ذلك الوثائق الرسمية ومصلحة الصحة فقال لى انت بذى فقلت لكن البادى أظلم فضحك وقال نعم حقيقة ثم سأل المرأة هل تمشى معنا أو تقعد مع زوجها فالتفتت على أخيها وقالت له لولا ان النساء يتنبذنى بأنى تزوجت العبد كنت أمشى معك ولكن لا أتحمل ذلك استودعك الله فلطمها على فمها فضحكت وأخذت أختها وتركتنا واقفين حائرين فخرجنا جريا حتى وصلنا وابور السكة الحديد الذى أخذنا لصرص .

أسرت بالقطر المصرى يوم ٥ ذو الحجة سنة ١٣٠٦ ورجعت لصرص فى أواخر رجب سنة ١٣٠٨ هـ أى بعد عامين وأشهر فقصدت محل بيتى وحفرت فى مكان الكتاب فأخرجته من تحت الردم مابه غير مس بأطراف ورقه من قرض الأرضه فأخذته واقتنيته .

من العرضى الى أم درمان :

من صرص سرننا بأرجلنا حتى العرضى كنت أقود حمار والدتى الذى أكاد أقضى المرحلة جريا معه ممسكا برقبته وفى الغالب أحمل عبد الباسط الطفل وهو صغير على كتفى حتى وان والدتى كثيرا ما تقول لى أنا أتعبتك الله يقتلنى ويريحك منى أضحك وأقول لها ألم أتعبك فى الحمل والولادة والتربية أضعاف ما أتعبتنى أرجوك أن تدعو لى بخير يريحنى ويريحك بواسطتى والسهوهر اكبها حمارها ووراءها فاطمة ابنتها الصغيرة اما زوجتى حفصه فانها سائرة برجليها ولم تبدى لى أو لغيرى ولا مرة تذرنا بل أحيانا تحمل منى عبد الباسط على ظهرها فكنت أذكر لها هذه الحسنة كلما استأأت منها فلما وصلنا صوارده

وجدنا عثمان أزرق عاملا عاما فعرضنا عليه ليعطينا زادا ومصروفات فأعطانا بعض الزاد وقال عن المصروفات (معلمين الله) فقلت قد جئنا لناس (معلمين الله) فضحك وقال لي استغفر ربك ، قمنا من صوارده للعرض فوصلناه فوجدنا العامل به محمد خالد زقل وسرعان ما غيروه بيونس الدكيم للمرة الثانية عاملا لدنقلا • ظللنا خرائب في البيوت التي تركها أهلنا ممن سافروا مع ولد النجومى وسكنا بها • بعث حمارى بثلاثين ريالاً واشتريت بشمه بضاعة مشكلة مما يتخذ اداما وطعاما وأخذت من محمد بشاره رئيس السجون أربعة جمال حملتها تمرا من صوارده من ثمن بضاعتى التى أبيعها وما يعطونه أصدقائى من الأمراء بصوارده فلما وصلتها وجدت أولاد عثمان بها فقالت لى أختهم الكبيرة زينب وكانت ماهرة فى الحصول على غرضها نحن عزمنا ان نزوجك البقيع كما أوصانا الباشا بذلك ويتزوج الحسن ولد الفضل الحسنى أختك فقلت لها زواجى بالبقيع لى فيه رغبة عظيمة اما زواج الحسنى بالحسن فهذا لا أضمنه لأنها بكر قاصر وأبوها موجود ومن الجائز أن يرسل أحد ولديه يوسف أو سعيد يأخذ الحسنى وأما اذا كنتم تزوجونى البقيع دون هذا الشرط فانى أتزوجها وأسكن معكم بدنقلا ولو نقلت أُمى التى أحبها لأم درمان لأن لها هنالك زوج وولدان فغابت عني ثم جاءتنى بأنها حتى البقيع نفسها وافقوا على طلبى فأعطيتهم مالزمهم من البضاعة وبعث باقيها فملأت بقيمتها وما أعطيته جملين تمرا وجمالان حملت عليهما غفشهما وركبت البقيع على احدهما وصرت أقود الجمل الراكبه عليه كما كان الحجاج يقود جمل هند بنت النعمان لعبد الملك بن مروان ويتمتع بالأنس معها وان كانت لا تكلمنى الا نادرا فأسر بصحبته وبجياها منى كما تستحى المخطوبة عندنا عادة من خطيبها حتى وصلنا العرض وظللنا لهم خرائب لسكناهم كنت فى تظليلها أنشط عامل ولما سكنوا طلبت الزواج من زينب فقالت الى أن يأتى الحسن أخى من دلغو وفى أثناء ذلك جاء يوسف ورحل أُمى وبناتها والمدنى وبناته وأم طبول التى تقدمت معهم الى الدبة من هناك هى وراز زينب بت ود عبد الله ومعهن جماعة من الرباطاب سافروا للرباطاب ووالدتى ومن معها سافروا الى أم درمان بطريق الدبة جاء الحسن وسافر مرة أخرى الى أرقو وزينب تتعلل بغيابه حتى اذا حرصت عليها قالوا ان اخوانها قالوا انك

متزوج حفصه التى يعتبرونها كأختهم ولا يمكن أن يزوجوك البقيع عليها
فاختراها شئت فتحت تأثير الرغبة الملحة لزواج البقيع قلت لحفصه انى أريد
طلاقك فبكت وقالت لى انى سمعت انهم يريدون أن يطلقونى منك ويماطلونك
حتى أستعد أنا يزوجونى للحسن ولد الفضل ويمنعونك البقيع وقل لهم أنا
طلقت حفصه وأنا أرحل مع أمى الى بيت خاتنى عائشة ان زوجوك البقيع أنا
مع ثلاث زوجات أقبلك رابعة لأنى ألفتك وأحببتك فنهضت قائما وقلت هذه
خادمتى وزوجتى وتلك ستكون سيدتى وزوجتى فصممت انى أقتنع بحفصه
فقبلت بنصيحتها وأمسكت عن محادثتى مع زينب بخصوص زواجى البقيع
فبعد أيام جاءتنى زينب فى بيت والدتى الذى كنت أقيل فيه دائما لضيق بيتنا
ووجود مريم حماتى به فقالت لى زينب انت سكت عن كلام خطبتك للبقيع
وأخوانها كلما خطبها أحد يقولون ان ابن عمها يرغب فى مراجعتها فاذا كنت
قنعت منها صارحهم يزوجوها غيرك لأنها يتيمة ولا تستطيع المعيشة مع زوجة
أخيها قلت لها انى سمعت كذا وكذا وصارحتها بكل ما قالته لى حفصه من
المكيدة فحلفت لى بقولها الله ياخذ أحمد والحسن وما يمتعها الله تعالى بعافيتها
هذا الكلام لم يخطر ببال أحد منا وان ناقله يريد أن يفرق بيننا وبينك فلا
تصدقه أبدا تحت هذا القسم وتنفيذا للرغبة فى زواجى بالبقيع • جئت لمريم
حماتى وقلت لها انى طلقت حفصه وهذا مؤخر صداقها ونفقة عدتها قالت لى
بارك الله فيك مسكتها سمح وفارقتها سمح • أصبحت حفصة مطلقة وعصمة
البقيع معلقة على رضاء الحسن الذى يرضى مرة ويأبى مرة وأحمد وزينب
ينصبان لى الحيل فيقربونى كلما بعدت حتى استعدت حفصة وطلبت للحسن
الفضل كما قالت ورضيت أمها لأنها كانت زوجة أبيه وبجبرها عبد الباسط
أخوه •

أتانى بابكر كرم الله رفيقى بشونة صرص ليلا وأخبرنى بكل ما حصل
ووعده بمساعدته لى فى هذا الموضوع ليبتل زواج الحسن بحفصة فقلت له
لا أحب أن أرجعها فقط ساعدنى بالوقوف على حقيقة وألاد عثمان هل يزوجونى
البقيع أو يقنعونى منها فقال لى مساء غد اطلبنى وعثمان وحمزة ولدى رحمه
ومحمد أحمد شكاك وأطلب منهم ميعاد تحديد زواجك فتظهر لك الحقيقة

فقبلت برأيه فكانت النتيجة سلبا فخطبهم بابكر كرم الله بأنهم ليسوا أولاد
 ناس فيما صنعوه معي فأسكته وأريتهم اني لست راغب فيها كما كنت لأنى
 علمت بما عملتم والله لا يحب الخائنين وقت منهم وقلت لبابكر كرم الله اختبر لى
 البقيع نفسها هل فيها لى أو عنى فجاءنى وقال هى تميل اليك كل الميل ولكنها
 لا تخالف أخوانها وأخواتها فتوجهت نفسى نحو أم درمان وفكرت فى أن أتزوج
 كلثوم بنت حاج الحسن أيمة ولد النجومى وأعددت نفسى للهرب الى أن
 جاءنى خطابان أحدهما من المنصور أبى كوع والثانى من الشيخ بانقا موسى
 يقولون لى فيه مريم وابنتها لا تتركهما وراءك ولو طلقت بنتها ويزيد الشيخ
 بانقا انى كتبت خطابا ليونس الديكىم بتشهيل مريم وابنتها فلتقابله مريم فطلبت
 مريم وبابكر كرم الله وعثمان رحمه وقرأت لهما كتابى بانقا والمنصور وقلت لهما
 اذا كنت تقبلين السفر لأم درمان فانى مستعد أوصلكما وابنتك ولا أرجعها
 واذا كنت لا تسافرين فارضى أمام هذين الرجلين ليكون لى عذر عند ناس
 أم درمان جميعا فقالت انت مأمون علينا توصلنا وأنا أعطيتك ابنتى بكرا فلا
 أمنعك منها وهى مطلقة منك وأنا مسافرة معك فقلت لهما قابلى الأمير يونس
 الديكىم وقولى له أنا المرأة التى كتب لك بانقا بترحيلها وابنتها لأم درمان فقابلته
 وجاءت منه بالتسريح واذن الصرف بزادها فأخذت التسريح والاذن وقلت لهما
 امش • قالت لى عندى معك كلام وحدك وأخبرتني بالخطبة وانها استلمت كل
 انجهاز فماذا تصنع الآن قلت لهما اذا كنت راضية الاقامة هنا فأقيمى قالت لا
 ولكنى أريد منك رأيا يبقى لى عذرا فقلت قولى لهم انى لا مانع عندى من أن
 أزوج الحسن بحفصه ولكن لى ولد بأم درمان وكل قبيلتى بها فأعطونى
 الحسن يوصلنا أم درمان وهناك نزوجه فان رضوا فارحلى بالحسن وزوجيه
 هناك وان أبوا فكل أراد ولده فسافرى واتركيهم قالت هذا تمام فسبقتها عليهم
 ووجدتهم كلهم جالسين ورأيت جهاز الزواج تحت العنقريب فخطبت أحمد
 وهو الذى يفهم معنى قولى : يا أحمد اسمع منى هذه القصة كانت أرنيب بنت
 اسحق وهى أجمل نساء زمنها تحت عبد الله ابن سلام فعشيقها يزيد بن معاوية
 فقال له والده ساعدنى بالكتمان وأرسل الى سيدنا عبد الله بن سلام من المدينة
 المنورة فلما وصله بالشام قال له ابنتى مثلت للزواج وقد بنيت لها هذا البيت

واخترتك لها زوجا قال عبد الله حبا وكرامه يا أمير المؤمنين فقال له ارسل لها
من يخطر بها فانها بالغة أمرها بيدها فأرسل لها خاطب فقالت ان عبد الله تحته
أرينب بنت اسحق ولا تحظى معها امرأة بلغت ما بلغت فاذا طلقها ثلاثة تزوجته
فلما جاءه الرسول طلق أرينب ثلاثا ومكث بالشام منتظرا يوم الزواج فلما
طال بها الأمر وخرجت أرينب من العدة أعلنت ابنة معاوية ان مشاروها لم
يوافقوها على الزواج به وعلم ان معاوية أرسل أبا الدرداء ليخطب أرينب ليزيد
فقال عبد الله بن سلام ان شاء الله الأمر الذي دبره لا يتم لهم وسكت فقال لى
ماذا حصل بعد ذلك ؟ قلت يكفى ما سمعتم وقمت من عندهم فقال لهم بعدى
هذا الزواج انحل وبطل قالوا له كلام مستحيل فقال لهم مافهمتم ماقاله بأكبر
ولولا انه ضمن انحلاله ماصرح بما قال وهم فى هذا اذ جئت بالزاد والتسريح
وقلت لمريم هذا زادكم وهذا تسريحكم والسفر يوم الخميس وهو اليوم المقرر
للعقد فقالت مريم : نسافر بالبر أو بالبحر ؟ قلت بالبحر والريس استلم الأجرة
للدبة ، فقامت من وقتها واشتغلت فى زادها وفى يوم الخميس أنزلتها المركب
للدبة وكنبت لهما جوابا لعمى محمد أحمد شكاك الذى هو مندوبا للدبة من
أحد عبيد يونس عامل الجهة القبلية لدنقلا فوصلا لها بعد خمسة عشر يوما
هربت وراءها ففى يوم واحد فى دنقلا وصلت الخندق برجلى والمسافة أربعون
ميلا لكن وصلتها عادم القوة فاستقمت فيها يوما كاملا كامنا فى بيت النور
الخيمير الذى كأنه خربه • وصلت الدبة ووجدتهما مقيمتا فى شاطئ النيل دون
بيت وعى محمد أحمد موجود ولم يأت أحد من أهلها على قرب الدبة من
فقراكتى • فقال لى عمى محمد أحمد شكاك الا ترجع حفصة قلت أريد أن
أتزوج كلتوم بنت الحسن - قال الأحسن انك ترجع حفصة تحلل ترحيلك لها
حتى تصل وانت بزوجتك فاذا وجدت كلتوما موجوده وسعيد أخاك ورضى
بزوجك بها هناك طلق حفصة فقبلت مشورته أجرتنا جملا لمريم وابنتها ومشيت
برجلى حتى وصلت مكانا يسمى أبا سيال أصابتنى حمى ورعاف فأجرت جملا
بأربع ريات يجلنى على رحل التمر فلما وصلت نصف المسافة (جيدين) بها
بيت الجمال ناير وغيره أقاموا به أسبوعا تماثلت للشفاء ووجدت انى لا نقود
لى أدفع منها الأجرة ولا أعرف من أعتمد عليه فى دفعها لى بضمان فلما شد

رحل جملة قال لى تعال اركب قلت له لا أركب فضربنى بكفه على خدى حتى
رأيت البرق خارج من عيني فسأته مريم حتى أوجعته سسبا وهددته بأهلى
بأم درمان فصرت أقفو اثر الجلابه وألقها بعد أن تنزل بمسافة لضعفى فلما
وصلنا المرحلة التى قيلنا فيها وفى المغرب ندخل أم درمان • جاءنى ناير الجمال
ومعه جماعة وقال لى سامحنى فسامحته فقال اعطنى أمان الله ورسوله ماتؤذينى
قلت لك أمان الله ورسوله لا أذكى وقال لأنه سمع ان خليفة المهدي نبه ان من
يصنع أحدا تقطع يده • فجاءنا فى تلك القافلة نساء عندهن دهن وشحم وودك
يجلبنه وكان راس حفصه مشطا جديدا وما عندنا من النقود ولا العروض غير
ملايسنا التى علينا وكاسا صغيرا من القرع نشرب به الماء فاشترينا دردوما ودكا
كان من احدهن بذلك الكأس فمسحت به حفصه مقدم رأسها الذى يظهر
للناظرين ودخلنا أم درمان ليلا فسألنا من عمى مالك فعلمنا انه بكردفان وكان
ذلك يوم ١٥ صفر الخير سنة ١٣٠٩ هـ

نزلنا عند الشيخ بانقا موسى وكيل الراية الزرقاء لأن زوجته الكبرى ابنة
عم زوجته فأعطونا بيتا فيه أختها زينب والحرم بنت علوب فمكثنا عندها وفى
الغد أنانى ناير يطلب الريالين فتوجهت معه للسوق لعلى أجد من أعرفه فيسألنى
عن حالى حتى أصل الى مناسبة أطلب بها منه سلفة الريالين وهو لا يفارقنى
لحظة فمررت على كثير من أهلنا الرباطاب وأولاد خلوتنا برفاعه كأبى الفتح
وسالم عبد الأمين والمهدى أحمد وعبد الله الزبير وكل منهم يسلم على ثم ينتبه
لعمله فأبرح دكانه حتى خرجت من السوق فقلت لناير امشى معالى للبيت أقلع
لك جبتى هذه تعال بعها فى السوق خذ الريالين وجئنى بالباقى من ثمنها وبينما
نحن جالسين تتراود اذا بالمدنى مصطفى جاء مارا فرأيته وبعد السلام مشيت
معه الدكان فأخذت منه الريالين أعطيتهما نائرا الذى أخذهما ومشى فأخبرت
المدنى بكل ما حصل من ناير لى بمنزله فأخبرنى انه ما طلب منك العفو الا انه
سمع بتنبيه الخليفة وأقسم على أن أشتكيه فمشيت للمحكمة التى يرأسها
الطيب ولد العربى رحمه الله فشكوت له ناير ومعه مساعدوه حاج على وحسن
خبير فأخذنى من بينهم ودخل بى فى غرفة وأخبرنى بتنبيه الخليفة وقال لى ان

أباك لا يضر الناس فاذا قدمت لنا هذا الرجل نجسبه في حر الشمس ومطر الليل
واذا قطعت يده أتم أولاده وهو حي ويسكن الجبل أخذه من أصحابه بالنصف
فيغنم وتؤخذ نظيره أغنامه ان كانت له أغنام اتركه سامحه لله كأبيك فوعده
بذلك ولكني خفت من المدنى فأخذت من حراس المحكمة أحدا وتوجهت لناير
بمنزل أحمد الخضر ابن أخت خوجال أم برير ووجدته نائما فأيقظته وقلت له
انى شكوتك في المحكمة وهذا رسولها فنزل في الأرض ووضع يديه في التراب
وقال لى يا بابكر تعطينى أمان الله البنزل الكفار من الجبل وتشكىنى يسجنونى
في الحر والمطر وكرر كل كلام الطيب لغاية غنمه التى تؤخذ نظير الجمل قلت
له لكنى يا ناير أنا فى بيتك تضربنى والآن مررت بى كل السوق فى الريالين حتى
استلفتهما لك أعطنى الريالين واعطى الحرس قرشين قام وجاء بالتسعة ريالات
وقال لى : هذه أجرة الجمل كلها خذها واتركنى لله ولأولادى الصغار ما رأيك
يا قارىء فوالله لم آخذ غير الريالين اللذين أعطيتهما المدنى مصطفى الذى باع
حمارى الراكبة عليه امرأته والذى صرفت عليه من مصر الى أسوان وعلى زوجته
فأخذ الريالين ووضعهما مع نقوده ولم يقل لى من أين جئت ومن جاء معك
فقممت منه وتوجهت للمنزل الذى به زوجتى ولم أقل منزلى - أخذت أقل من
أسبوع بأم درمان وتوجهت لأمى التى كانت بالكاملين عند سعيد أخى وهو
ولدها الكبير الذى تقسم بحياته والذى كنت أمل أن يزوجنى كلتوم بنت الحسن
وجدت والدتى فى مخزن مظلل لها بقصب وفروع طلح مسوسات والشمس من
خلال القصب كالدناير عليها فلما كان المغرب طلبنى وعنده عنكوليب فأخذت
منه قصبات وقلت لخادمتها الصغيرة أوصليه لأمى فما أدرى أغضب من هذا
التصرف أم لسبب آخر لم يطلبنى بعدها فقط - يأتى بأكله عند عمى الفقيه محمد
شكاك كغيره من أهل المنازل أكل معهم وفى صبيحة يومى كان يوم سوق
الكاملين اشتريت منها جلدا صغيرا بقرشين ولوح عشر بنصف قرش وموس
بفرش وفرشت أجلد حتى العصر حصلت أربعة قروش اشتريت منها عنقريسا
ورغيفا ورأس نيفة خروف اديتها لوالدتى والعنقريب القديم المكسور وضعناه
للحسنى تنوم عليه وكانت تنام على برش وجعلت أجلد للبنات فى البيت ويوم
السوق بالسوق حتى اشتريت لوالدتى نصف أردب غلال وغنماية فظلمت لها

نصف البيت بالحطب الجميل من السور وسقفته بالنال بحيث المطر لا تنزل علينا ولا الشمس تخرقه وودعتها حيث دعت لى دعوات صالحات تذوقت حلاوة اجابتها فى فمى • وصلت أم درمان النى نويت أجلد فيها بالسوق وبالمنزل ولكن زوجتى منعتنى لأن حرم بنت النور أعطتهم نصف أردب عيش والمنصور ولد أبو كوع الذى حضر من بمبى بالهند أعطاها ملابس فباعتها فصرنا نتصرف منها

المناديب بالجزيرة :

عند ما جاء وقت خروج المناديب للجزيرة خرجت مع مختار محمد قریش الرباطابى ككاتب له ولما وصلنا الكاملين أنزلت أمى والחסنى فى مركب لمدنى وعلمت ان السهوة بنتها برفاعة والمدنى غائب عنهن فأرسلت لها تأتينا بمدنى وفعلا جاءت فلما وصلت مدنى وجدت الجعلى ولد محمد البشير ساكنا بسربوعة خالى أحمد عطا المنان واضعا ملحه فى القطيتين فقلت للجعلى حول كل الملح فى احدى القطيتين واخلى لنا واحدة منهما فرفض فلما لم يرض بالدين وبواسطة قلت للجهادية الذين معنا خذوا الملح الذى فى القطية الكبيرة وارموه فى البحر فلما أخذ كل واحد منهم عدلة قال اصبروا لى لعد أجى بعثاله يخرجونه قلت كم أجرة العتالة قال أربعة عدل بقرش قلت اعطنى الأجرة للجهادية فقبلوها وأخرجوه فى الحال فكسناها وأدخلنا فيها أمى وابنتها • أحمد عطا المنان ولد مصطفى ولد دياب والدتى مدينة بنت محمد دياب والجعلى لا يجتمع معه الا فى رباط ولكنه والده ابن أخ والدى فلا تنكر على أيها القارىء بعد أن عرفت هذا النسب فان والدتى أولى منه تركنا أمى ومن معها وتوجهنا الى الكرييه مركز المندوبية وحلالها كثيرة مع مختار المندوب بخلاف الجهادية ومعنا أولاد تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين سنة أو يزيد بعضهم قليلا لا يقلون عن الجهادية قسوة ان لم يزيدوا عليهم لكنهم زناة أكثر من الجهادية يحكى كل منهم بما عمل معها فكنت أنكر عليهم هذا العمل الذى لم يخطر ببالى ان أحدا يجبراً عليه ومختار نفسه لا يخلوا لكنه مقل جدا ويختار الأمكنة • لا أخفى ما حصل منى ولكن الله سلم لما كثر منهم ما يحكونه الفه سمعى ثم ترقى الى محبة سماعه وكنت أمين النقود فى جرابها المتخذ كخزينة فوردتها مرة للعامل بمدنى وأنا راجع أخذت نفسى تنازعنى هل انت الجنيد قلت ان الزنا فاحشة

لا تقريبيه ولو مرة وتستغفر الله فلما وصلت حلة الوراق وكنا معسكرين بها
ملكنتى نفسى فذهبت الى امرأة وأظنها من أهالى كردفان وجدتها تطحن على
مرحاكاتها وجلست أمامها مدة وهى كأن لم تشعر بى ثم أمسكت يدها فتركت
الطحين وبعد مدة قالت لى : ماذا تريد منى ؟ قلت بصوت الخائف : أريدك
ترقدى معى • لماذا أرقد معك ؟ أنا والله منذ خلقنى ربى لا أعرف مثل هذا
خرجت من عندها وقلت أعوذ بالله أول ما ابتدئ أهتك محصنة وتذكرت
قول الشاعر :

ان الزنا دين اذا ما استقرضته فوافؤه من أهل بيتك فاعلم

وقمت من عندها فأخذت تطحن فلما وصلت سريرى ورقدت وأنا أرتجف
جاء مختار وسألنى عن رحلتى فلم أتكلم معه وارتجف فسألنى وألح على
فأخبرته بالحقيقة فضحك منى وقال المرأة ضحكت عليك فاطمأنت حيث علمت
انها كذلك وحمدت الله على سلامتى منها ولم أعد الى مثلها والحمد لله

نقلنا من مندوبية الكريية القريبة من مدنى حيث كنت أبيت مع أمى
الحبيبة كل ليلة جمعة وأصلها بهدية وأرجع منها مغتبطا مسرورا بما أسمع من
دعوتها رحمها الله

نقلنا الى مندوبية الرضمة حلة الرجل الكريم يوسف ولد الزين العركى
الذى يمثل الوطنى السودانى البسيط فى طبعه السخى فى ماله العظيم فى مروءته
كثير الطعام حتى يذكر كلام الشيخ أحمد الريح العركى « أكان ما عجينى من
بجينيى » مكثنا بها حتى قرب عيد الأضحى الذى هو منتهى زمن خدمة الضرائب
حيث يرجع كل العمال من الجزيرة ليحضروا العيد بأمر درمان بالأمر ثم
يستأنفون عملهم فى أو بعد صفر الخير من كل سنة •

ففى هذه السنة التى هى سنة ١٣٠٩ هـ حصلت بأمر درمان ما يسمونها
بحركة الدناقلة فرأيت من قبض عليهم الصالح حمدو من الكاملين ورفاعة
ومدنى وجزيرة الفيل فى يوم وساعة واحدة بحركة منتظمة حتى لا يفر أحدهم
من مكانه فينجو من القبض عليه وقد مر علينا صالح حسن وعبد القادر أخوه
وكريب نور الدين خناقية رفاعة أقارب المهدي عم فى دفعة تربو على المائة نفر
كلهم مشعبون فزرت هؤلاء لأنى عرفتهم منذ نشأتى برفاعة وأبكاني حالهم

بهذا الدل بعد ذلك الرغد في أيام دولتهم بحياة المهدي وبعدها حيث كانوا في
 المنازل الكبيرة في الحشم والخيل المنقودة كانوا واسطة أغراض أصحابهم ومحل
 آمالهم فقلت هذا مصير الدنيا وذكرت أيام يؤسى عند مدينة أم موسى فحمدت
 الله وودعتهم بعدما أعطيتهم ما كنت أقدمه لأمي في ذلك الأسبوع من الكريه
 قلت نقلنا للرضمه ونحن بها أرسل أحد التعاشة المدعو الرشيد كرومه
 جهاديين من حلة عسير التي تبعد نحو عشرة أميال من الرضمة بكتاب لمختار
 محمد المندوب يطلب منه ارسال ما حصله من النقود والدمور فأبى مختار
 وارجع الجهاديين بلا شيء فما كان من الرشيد كرومه الا أن يرسل ثلاثين جهاديا
 لمختار الذي كان أخذ شربه في ذلك اليوم ، ليأخذوه له راجلا الى حلة عسير
 فلما جاءوا وكان مختار خارج المنزل قالوا : أين مختار ؟ قلت لهم أنا : مختار
 تمنيت ان مختارا لا يراهم فاذهب معهم أو أعطيهم ماشاءوا ولكن مختارا حضر
 في الحال فقال لرئيسهم : ماذا تريد ؟ قال أخذ مختارا الى سيدي الرشيد فأمر
 بشد حصانه فقال له لا أمرنا ان نأخذه راجلا فقال مختار يمشى معكم وهو حي
 راجلا قال : « وای » بمعنى نعم : قال يجب أن تفهم ان موت مختار وأخذ
 رأسه من أدنه أقرب من مشيه راجلا أمامهم فسمح له بالركوب على حصانه
 فلما خرج من الحلة أنزلوه من حصانه وجروه وهو راقد نحو مائة متر فلما
 رأوا عناده اتفقوا معه على أن يركب فاذا قرب من حلة عسير ينزل راجلا فصمت
 وظنوا انه وافقهم فلما قرب من الحلة طرد حصانه فدخلها رامحا حصانه ونزل
 عند من يعرفه وتوجه الى الرشيد فسجنه في قطية • لما أخذ منا مختار منفردا
 ومنعنا عن السير معه أرسلت بوسنة بجمال للعامل بمدني أخبرته
 بما حصل فركب العامل بنفسه لعسير بعد أن أخبر الشيخ أحمد السني عامل
 عمال الجزيرة بخطابي وأرسل لنا رد كتابنا بأن نقابله بعسير فنحن سبقناه
 ووجدنا مختارا مسجوناً فطلبني الرشيد وطلب مني تسليمه ما عندنا من النقود
 والدمور فقلت له العامل عثمان عوض الله سيصل الآن من مدني فاطلب منه
 ما شئت فقال لي حقيقة انه أتى فأخرجت له كتابه لي فجمع جماعته وقام من البلد
 وترك مختارا في سجنه أستحسن أن يبقى به حتى يصل العامل ولكن قابله
 وأخبرته بكل ما حصل فاستحسن هو أيضا أن يبقى بسجنه فلما وصل العامل
 وأخبرته بقيامهم وكان العامل مسالما فحمد الله الذي صرفهم وشكرني وأخرج

مختاراً من سجنه فرجعنا والعامل معنا الى الرضمة وأرانا مختاراً مكان جره بالأرض فمثل هذا كان كثيراً من البقارة مثل « أب دقنا أمر » لأنه اذا طلب شيئاً من عامل أو مندوب أو شيخ حلة وطلب منه تقديم أمره لينظره قال « هي دقن ده ولا أمر » وأخذ ما أراد قوة ان استطاع • أراد مختار أن نفترق لأن الوقت قرب والأعمال متأخرة فعين لى حلة ولد الجالب والصراف وهما أكبر حلال المندوبية بعد السبيلات فجعلت مركزى حلة ولد الجالب واذهب للصراف عند الحاجة وبين الحلتين نحو ميل واحد - بعد رمضان بدأنا فى تقدير وتحصيل زكاة الفطر وكانت الفطرة فى تلك السنة قررت قرشين على الشخص الواحد فطلبت رجال حلة ولد الجالب ووضعت لهم المصحف الشريف كالمعتاد الواحد منهم يحلف ويوضح لى أنفاره الذين ينفق عليهم دون نقص فلما أتممت الكشف وجدت من به أقل مما أراه بعينى فى الشوارع والبئر فأخذت رأى نزىلى محمد ابراهيم فقال لى : نقبل منهم ما حلفوا عليه فأعملت فكرى فيما أصنعه من الحيلة لأخذ الفطرة على حقيقتها فاهتديت لما يأتى :

جلست منفرداً حتى مر بى صبي نحو الثامنة من عمره فطلبتة قلت له من أبوك ؟ قال عبد الله الحاج على • ما اسمك ؟ فلان • واخوانك ؟ فلان وفلان الخ حتى عدد ٢٣ شخصاً وكان أبوه قيد لنا ثمانية فقط فصرفت الطفل وبعد مدة طلبت والده فقلت يا شيخ عبد الله انت رجل غنى بحمد الله زكاة الفطر يتوقف على ادائها كاملة قبول الصوم وهى فى السنة مرة وفطرة بيتك التى تلزمك لا تتجاوز ستة وأربعين قرشاً يعنى ريالين وستة قروش ثمن خروف تذبحه لضيف ادفعها وأبرىء ذمتك قال لى : الثمانية أنفار بستة عشر قرشاً الثلاثون قرشاً من أين جاءت • قلت أنفارك ثلاثة وعشرون نفراً قال أبدا • انت حلفتنى الكتاب قلت : نعم ، ولكن اسمع وقرأت له الكشف على لسان ولده اطرق وقال لى من أملاك هذا ؟ فقلت : املانية فلان - لأحد جيرانه - قال :

هو كاتب كم ؟ قلت خمسة أنفار • قال لى امسك أمليك أنفاره وأمسكت القلم وقلت له بأسمائهم نعم فلان وفلان حتى عدد ١٥ نفراً طلبت جاره هذا وكررت له المذاكرة السابقة وقرأت له أسماء أنفاره قال من كتب لك هذا قلت جارك فلان قال أيضاً هو كاتب كم نفر ؟ وهكذا حتى كتبتهم على الحقيقة وحصلت

منهم مبلغا لا يأمله مختار ثم فى بعض الأيام تبرزت حاجة الانسان وحفرت
براس حربتى لاخذ ما استجمر به فخرج لى عرق ذره جديد وكنت مصدقا انهم
لا محصول لهم هذه السنة ؟ لأنهم كما قالوا لى سكبوا بلداتهم حتى أخفوا اثر
الزراع ونقلوا القصب فى زرائب بعيدة عن الحلة غربها فلما وجدت العرق
الأبيض تأكدت من محصول تلك المزرعة فسألت عن صاحبها فطلبته وقلت له
زكاة الغلال فقال البلد صافقه قلت فلان أخبرنى انك حصلت ٢٣ أردبا من
الذرة ولم أصدقه حتى أوصلنى بلادك وأخرج لى عرقها الجديد • قال فلان
أخبرك قلت نعم قال هو بلاده حصلت كذا وهكذا حتى حصلت منهم قيمة
١٤٨ ريالا ومن الطرف مثل ذلك ٧٢ ريالا ولما كنت لا أملك سلطة كتابة
الوصولات أخذتهم معى لمختار الذى وجدناه بحلة ولد ربيعة بالخوالدة
فسلمت عليه وكنت أنتظر منه اجلالا بالنسبة لما حصلته فى الفطرة وأرسلته له
مما لا يأمل ولا يحلم به فمد لى يده وهو ملتفت عنى أمام الناس فانفت لتلك
المعاملة ورجعت للجماعة أهل عشور الغلال وقلت لهم المندوب بقى على السفر
وما دام هو ولا غيره لا يعلم بغلالكم خذوا نقودكم وارجعوا فاعطونى منها
عشرين ريالا فكانت هى نصيبى .

أخذ الجماعة باقى نقودهم ورجعوا فلما وصلنا أم درمان أخبرت مختار
بما حصل على أصله فقال لى : يا مربوط ماكنت تقول لى اعطنى الخاتم حسب
العادة امده لك فتكتب لهم الوصولات وتأخذ الفلوس كلها أو جلهما وتورد
الباقى فقلت له ذمتى أضيق من ذلك هذا عمله أنت وأمثالك المدربون على البلع
وضحكنا .

فى حلة ولد الجالب جاءنى يوسف أخى من كركوج أرسله أبى ليرانا
ويتعرف أحوالنا وكانت حالته رثة تدل على فقره وعدم شغل فما وجدت عندى
غير أربعين قرشا دمجا وأعطيته عمة كنت غزلت لحمتها وسداها من حشو بناج
العشر وكنت معجبا بها لأنها تشبه الحرير من المضحكات ان الناس كانوا اذا
قصد أحدهم السوق ولم يكن دفع الفطرة وأخذ الوصل يستعير وصلا من
أصحابه فيعرضه للمحصلين حينما يطلب منه وصل الفطرة

وفى يوم كنت بسوق حلة الصراف أحصل الفطرة فجاءنى المساعد برجل

مدعى وصلا فقلت كالعادة ما اسمك ؟ فنبى اسم صاحب الوصل المستعار منه
ورفع راسه كالمفكر فكررت له ما اسمك ؟ اسمى • ما اسمك ؟ فقال اصبر لى
يا عيسى (صاحبى) ما اسمك ؟ فقال اسمى الله يخبره • ونحن نضحك ثم قال
والله (اياك ابر منك) هالك قرشين فأخذتهما وكتب له الوصل .

برجوعى من الجزيرة فى شهر الحجة سنة ١٣٠٩ هـ وجدت حماتى بنت
بيتا مساحتها خمسة أذرع طولا وعرضا ورحبته أمامه كمساحتها أو تنقص قليلا
وفى شماله أرض فضاء لمحمد على شنقراوى طلبت منه ذراعين على طول بيتنا
لنجعلها مرتفقا فرفض وسكننا فيه حتى جاء عمى مالك وسافرت لسواكن كما
سيأتى وبرجوعى طلبت من زوجتى الرحول منه فقالت لا أرحل من جوار
أهلى وما رضيت فراقها لهذا المنزل حتى ملأته بضاعة من تجارتى أودعت باقيها
عند الجيران أيضا حينما رجعنا من الجزيرة وجدنا عمى مالك حضر من كردفان
فسلمت عليه وقلت له اعمل أحد أمرين اما أن تأخذ منى والدتى وبناتها وتتركنى
أعيش وزوجتى واما أن تعطينى مائة ريال أتاخر بها فى التمر من دنقلا بالربح
فقال لى المائة ريال لو دفعتها لك ما بتنفعك • الناس قالوا « الريف اذا ما أغناك
يستر حالك » انتظر الى أن يصل المنصور أبو كوع من سواكن سافر معه •

بين سواكن وأم درمان :

والسبب فى أنى طلبت التجارة فى التمر لأمرين الأولى ان العقل يعتبر
قاصرا فى جميع ما يجهله مهما كان صاحبه والثانى انى رأيت جلابة أحمد الخضر
الذى جئنا معه من دنقلا فعشقتها لأنها أول منظوراتى التجارية • جاء المنصور
وترك البضاعة فى حلة الشيخ الطيب فصحبته لأحضرها لأم درمان ولكن قبل
قيامنا التقيت صدفه بعمى يوسف سليمان مندوب بيت المال وقلت له عندنا
اثنى عشر رحلا بضاعة فهل يمكن أن تتكرم وتعشروها لنا فى بيت عمى مالك
فقال لا يمكن بل تعشرها فى الوكالة فذهبنا لأحضرها وفى الطريق ونحن
راكبين اتفقنا على أن أتأخر أنا مع الفاتورة ويأخذ المنصور جمال الموزونات
ليخبئها عن العشور بمنزل عمى مالك الذى بجوار السوق •

فلما دخل البلد ليلا كان السحاب مع ظلمة آخر الشهر سببا فى ضلاله من
البيت وصار يتجول فى السوق حتى نزلت المطر عند باب المحكمة فبركت

الجمال وصارت ترغى حتى خرج عليهم حرس المحكمة وقادهم لو كالة بيت المال حيث بات المنصور في الوكالة فسمع عمى مالك في الحال فمكثنا ننتظر ما يفعل الله لنا فجاء عمى العوض المرضى أمين بيت المال واجتمع حوله أرباب الحاجات طلبنا فك بضاعتنا وقال له هذه غنيمة وقد تم الحكم نهائيا فأنا آسف فلما سمعت حكمه هذا تقدمت في الحال بما ألهمني الله تعالى في الحج والعمرة فقلت والله يا عمى العوض ان احتلتهم علينا وجدتهم السبب وان سمعتم حجتنا وانصفتهمونا ان شاء الله نخلص منكم وقال فما حجتكم حالا التفت على الناس حوله وقلت لهم بالله يا أعيامى اسمعوا كلامى واحكموا بالحق يا جماعة الذى يريد أن يسرق بضاعته من بيت المال يخبر بها عمى يوسف سليمان عددا ونوعا قال عمى العوض لا قلت وهل يسر بها على ود قرأى بكررى ويأخذ منه جوابا بعدد رحوله قال عمى العوض لا فالتفت لعمى يوسف سليمان وقلت له أتذكر انى لقيتك أمس وانت خارج من منزلك وقلت لك عندنا عشر رحلا بضاعة هل تسمح لنا بأخذ العشر منها بمنزل عمى مالك فقلت لا يمكن الا في الوكالة قال عمى يوسف صحيح وكنت استلمت من ولد قرأى بعد ما أخذ رشوته في جمال المثقلات جوابا لعمى يوسف بعدد جمالنا كلها احتياطي فأخرجت الجواب من جيبى وقدمته لعمى العوض فلما قرأه فتح فيه ونظر الى كعادته حينما يفكر وقال يا مالك هذا ولدك ؟ قال ابن أخى وشريكى قال عمى العوض طيب نأخذ نصفها فقلت الانصاف ياسيدى قال الثلث فقلت ان كانت الحجة قائمة فخذوا العشر ثم التفت على الجماعة قبل أن ينطق عمى العوض بقراره النهائى وقلت لهم بالله عليكم يا جماعة هل يتوه أحد من منزله في أم درمان فصمتوا . نحن عادتنا في سفرنا هذا من سواكن نشد جمال الموزونات أولا لتتقدم لأنها مثقلات ثم نشد جمال الفاتورة الخفيفة ونلحقها ولما كانت الشدة الأخيرة من العجيجة مكان عمى ولد قرأى وصفوا للجمالة الطريق الغربى ولما وصلنا مفرق الدربين عرفنا انهم تاهوا فليحفظهم المنصور على حماره ولما دخل الليل واكفهر بالسحاب قصد المحكمة وأناخ جماله عندها فأسألوا الحرس أين وجدوهم فقال عمى ابراهيم شمو الشهير بود أبو روف والله يا العوض الصبى دا ما خللك

سبب تأخذ منه أكثر من العشر فقال العوض لعمى مالك : عندك بخت ثم التفت
الى يوسف سليمان وقال له خذ منهم العشر فشكرناه وانصرفنا وقد كافأنى عمى
مالك على هذه الخدمة بأنه تركنى كلما أخذ تاجر صفقة يبعه أقول له : أنا
شريكك فيعطيني ريالاً أو ريالين خلو رجل فلما انتهى بيع البضاعة حصلت
خمسة وأربعين ريالاً فأرسلت الى أمى مأمون عبد عمى مالك وأحضرها من
مدنى وكان المدنى مصطفى حضر وأخذ أولاده لرفاعة فأسكننا أمى فى منزل عمى
مالك الذى بجوار السوق وبه عمارته وسافرت مع المنصور بالصمغ لسواكن
لعمى مالك النصف للمال ولى وللمنصور النصف الثانى فتأخر المنصور
بأم درمان وسافر الصمغ قبالى من أم درمان لبربر بيوم بمركب ريس لا أعرفه
فسافرت غدا بمركب الريس ود أحمد و معى أبو الكيلك نصر الدين الميرقابى
التاجر وكان عندى مصاريق الصمغ للحكومة والجمالة أكثر من ألف ريال
مجيدي فى عيبة ملفوفة فى اللحاوية فلما وصلنا بربر وقفت المركب ليخرج أبو
لكيلك قبالة بيته قلت له خذ هذه اللحاوية واحفظها للصبح لأن الزمن الآن بعد
الظهر ومستخدموا بيت المال لا يأتون الا ضحى الغد فأخذها وذهبت لمحل
الصمغ بحوش الدار فوجدت صمغنا مرصوصا ولكنه ناقص عدله فكتبت لعمى
مالك بذلك . صليت العصر فى ظل الصمغ وأخذ أقرأ فى الراتب فاذا الفقيه
ابن عمى الطيب الخليفة على حمارته بالقرب منى فقلت له وفسحت له عن
الفروة فجلس يسألنى عن أفراد العائلة وأجيبه فاذا هو ينتبه اتباهة غير عادية
معها هزة ويقول بلهفة أين نقودك التى جئت بها قلت أعطيتها أبو الكيلك
يحفظها للغد فقال اركب هذه الحمار وأتبنى بها قلت ماذا أقول له قال لى بحزم
لا أدري ماتقوله له وانما أنا فى أنتظارك تأتبنى بها الآن . ركبت الحمار ووصلت
أبو الكيلك وقلت له وجدت أحمد عبد الكريم ومحمد صالح جالسين عند الصمغ
طلبا منى النقود فناولنى اللحاوية ووضعتها على السرج وركبت خلفها فلما
قربت من الفقيه الطيب طلع على الصمغ وقال لى ارفعها فرفعتها بصعوبة عدله
الى عدله حتى قربت منه تناولتها ورفعتها معه فرماها بين عدلتين ونزل . ركب
حمارته وودعنى ففى صباح غد تقب بيت أبى الكيلك وأخذ جميع ما فيه من

المحصولات فلما جئته مسليا ومتوجعا كغيري قال لى والله انت ولد حلال
لو كانت لحاويتك عندي وما أخذتها أمس كان أعدائنا يشيعوا علينا انا تقبنا
بيتنا لأجل ان نخون تقودك •

ولما طلعا من بربر لسواكن أجر المنصور لنفسه جملا ولى جملا يسمى
جمل ركوبه يحمل عليه الماء والزاد ويركبه المؤجر فيقرن في قطر الجمال ويمش
طرقه على مهل فكنت أضجر من الركوب فأنزله وأمشى أحيانا أكثر مما أركب
في كل مرحلة أراد المنصور أن يؤجر لى جملا في رجوعه من سواكن قلت اعطني
أجرة الجمل فأعطانيها أربعة عشر ريالا فقلت لى ابراهيم على اليعقوبابى
يا ابراهيم انت لما جئت من بربر كنت راكب كل المسافة قال لا والله يمكن أقل
من نصفها قلت هل توافق ان تؤجر جملا واحدا نحمل عليه مائنا وزادنا وتعاقب
عليه قال أى والله فأجرنا جملا واحدا ووفر كل منا سبعة ريالات جاء المنصور
أبو كوع ومأمون وأخذنا نقطع الصمغ بالجمال ببربر وقد كانت الحرم بنت
النور أعطتني ثلاثين ريالا على تقودى الخمسة وأربعين ريالا اشتريت بها
صمغ وقلت أظن ان المنصور يكلفه لى على حساب صمغ الشركة ولكن انعكس
أملى فقد حاسبنى المنصور حتى على السلبتين اللذين ثمنهما ثلاثة قروش ولما
وصلنا سواكن وجدنا الصمغ رخيصة جدا يمكن يخسر أربعة فى المائة مما زادنى
حرجا ان الصمغ الذى كان فى عهدتى أدخلت الحاصل من الجمل نقص عدله
جمل فلما علم المنصور جاءنى وقال لى مكان وديت هذه العدلة ارجعها فى البحر
فى بربر ضيعت عدله وهنا ضيعت عدله والله ان لم ترجعها أخصمها من حسابك
الخاص • أخرجتنى هذه العبارة الصريحة بالتهمة وأعملت فكرى كيف أتحصل
عليها وأخيرا قررت أن أتعلم الوزن على ميزان الطبلية فاوزن لكل التجار مجانا
بدل القنطار قرشا ثم لثقتهم بى بأنى لا يمكن أن أعامل عليهم الخواجات
وأخونهم فى الوزن كغيرى فانكبوا على وفى يوم وزنت صمغا لسليمان كشه
فجاءت العدلة وعليها علامة صمغا فقلت للعتالة ضعوها ورائى وأرسلت
للمنصور وقلت له هذه عدلتك وهذا سيدها فادعاهما كل منهما فلما اشتد
بينهما الجدل قلت لهما كل منكما يعد صمغه أزواجا لأن الجمل لا يحمل عدلا
واحد فمن وجد فى صمغه عدلا بلا زوج فهى له فظهرت للمنصور • ولكساد

السوق شحن المنصور الصمغ لمصر وسافر معه بعد ان ربط لى اربعة رحول فاتورة وارسلنى بها لام درمان لعل عمى مالك يحتاج الى تقود فلما وصلنا ككريب وجدنا ابا الفتح موسى دقنا حضر بها لان عمه العامل عثمان دقنا قرر بها عشرا على البضائع التى تمر عليها بدلا من خمسة ريالات على الجمل كالصمغ فاول ما بدأ هذا العشر فينا فلما نزلنا طلبنا ابو الفتح بمكتبه واخبرنا بتقرير العشر ولم يقبل لنا اى عذر ثم التفت عنا وصار يكتب فى الرملة بخط جميل كلمة الملك ويمسحها ثم يكتبها فصرت كلما كتب الملك كتبت لله فلحظ ذلك ثم ترك الكتابة وامرنا بالانصراف ثم طلبنى برسوله رجعت اليه فقال لى كلما كتبت انا كلمة الملك انت تكتب كلمة لله قلت لا ذكر لك لئلا تستمر فى لذة الملك فقال لى انت من اصحاب المهدي ؟ قلت نعم : هل هاجرت فى سرية . قلت نعم هاجرت فى سرية ولد النجومى . هل شهدت واقعة ؟ نعم شهدت ثلاث عشر واقعة اولها فى قيقر صالح واخرها فى ارقين . هل طبعت بطابع الشهداء . لا لم يكتب لى ذلك رغم تعرضى له ورغبتى فيه هل خدمت فى بيت المال ؟ نعم هل يوجد عندك دفتر تبدأ لنا فيه حصر ما نأخذه اليوم نوعا وقيمة ؟ نعم وأتيت به بدفتر وروسته له ثم أرسل معى أحد جماعته كرئيس علينا ومعه مساعده فدخلنا الجلاية وعشرناها وكتبناها عددا ونوعا ولم تبق الا اربعة حولنا فطلبنى وقال لى لا بد من أخذ العشر منك . سمعا وطاعة فأى القماش أرخص قيمة قلت التنش كم ثوبا . الرحل عشرون ثوبا كم رحلا عندك ؟ اربعة رحول . احضر ثمانية ثياب . حاضر . ذهبت واستلفت الثمانية ثياب سلمتها لرسوله فطلبنى وقال لى كلما جئت فقابلنى دائما وودعته وسافرنا . وصلت أم درمان ووجدت البضاعة غالية جدا فسلمتها عمى مالك ولم أعلم عنها شيئا أما رحل صمغى الخصوصى فبعته بسواكن واشتريت بثمانه بسطاوية جوخ اسود خيط للرقع وقدر نحاس صغير مجموع فلما وصلت أم درمان بعث البسطاوية والمجموع وأعطيت الحرم أماتها بربحها ووفر لى مائة وأربعة عشر ريالا اشتريت لزوجتى خدامة كبيرة تدعى أم نعيم ماتت وعمرها أكثر من مائة وثلاثين سنة لأنها قالت هى أكبر من السلطان حسين الذى توج سنة ١٢٥٤ هـ ومات سنة ١٢٩٢ هـ وهى ماتت سنة ١٣٥٧ هـ ثم اشتريت لوالدتى خادمة .

وأرسلت ليوسف أخى بكر كوج أن يأتينى لتتاجر معا وقبل مجيئه
سافرت لسواكن شريكا لعمى مالك مباشرة فلما وصلت بربر اشتريت حمارا
ركبت عليه وأجرت لمائى وزادى بأربعة ريالات فصرت أمشى أمام القطار
مسافة بعيدة وأنزل وأرتاح وحمارى يرعى حتى يمر بى القطار • ربما أكون
نائما حتى وصلنا سواكن وصار التجار يشتركون كل اثنين فى جمل ركوبه
كفعلنا وابراهيم على فلما رأونى ركب الحمار وأجرت للماء والزاد اقتدوا
فرجعت لأم درمان فحصلت فى سفرتى تلك ستمائة وسبعين ريالاً ووجدت
يوسف أخى قد حضر من كركوج .

انفصلت من عمى مالك نهائياً بسبب انه استجر ملابس لأهله ورقيقه
ومصاريف أخرى تربو على مائة ريال فلما أردت أن أحسبها عليه قال لى
لا أقبلها الا اذا حلفت على المصحف انك مادخلت مطبخا ولا جلست فى قهوة
وان لم تحلف يكون ما أخذته منك فى مقابل ما صرفته فيهما فقلت : يا عمى
مالك مثل هذا الحساب يعلمنى السرقة وانفصلت منه ولم يكن بينى وبينه
معاملة مالية الى أن توفى رحمه الله رحمة واسعة فانه كان سبب معرفتنا التجارة

سافرت ويوسف لسواكن بمجيدى لأن الريال المجيدى صار ليس عملة
متداولة بل صار يباع بقيمة فضته الصافية فيه واشترت بقيمة سكر ومحبلا
وزرافا بعناها واشترينا صمغا من أم درمان وسافرنا لسواكن أنا ويوسف أخى
فلما وصلنا بربر وزنا الصمغ وسلمناه الخبير الذى هو الفحل عبد السلام من
فحلاب المكايلاب واشترينا ثلاثة حمير حملنا الماء والزاد على أحدهما وركبنا
الاثنين فلما يكون الماء كثير نخففه على حمارين يوما واحدا فوصلنا سواكن فى
تسعة أيام بدل أربعة وعشرين يوما بجمال الهدندوة أو ثمانية عشر يوما بجمال
أهل بربر • أخذت معى عينة من صمغنا فبوصولنا بعث الصمغ بهذه العينة
واشترت البضاعة وربطتها وسرحتها وأجرت الجمال فبمجرد وصول الصمغ
سلمناه خليفة ليفى اليهودى وخرجنا ببضاعتنا التى لم نرافقها بل انتظرناها
بككريب عند أبى النتح موسى دقنا الذى حملنا له معنا هدية مركبة من ثوب
حرير على شكل الشافونه التى يلبسها نساؤهم عادة من نسيج القطن وأقتين
شايا أخضر ورطلين ريحة محلبة ورطل سرتية قيمتها نحو أربعين ريالاً قوشليا

وكانت بضاعتنا ستة رحول منها واحد ريحة بيضاء اعتبرها مجموعا وخمسة فاتورة عشرناها مشكلا دفعت عنها شكل « جيب الأضينة » الذى قيمة الثوب منه قرشان ونصف اشتريتها مخصوصا لهذا الغرض من سواكن • وصلنا أم درمان وبعنا بضاعتنا التى ملأت منزلنا الصغير وجعلت باقيها فى منزل جارى الحاج سنوسابى وبعد ذلك قلت لزوجتى : « ألا نرحل بعد الآن ؟ قالت نعم : نرحل • فرحلنا بمنزل خالى أحمد عطا المنان الذى بنيت أكثر من بنيانه الذى كان فيه ورهنت منزلا بجواره لوالدتى وأخواتى • بعد أيام قليلة صرفنا مجيدى بثمن بضاعتنا ورجعنا لسواكن التى وصلناها فى أقل من ثلاثة شهور من خروجنا منها حيث لقينا الفقيه الطيب الخليفة فى بربر وقال لى : جئنى بسجادة أو حرام من سواكن فوعده بأحدهما • ولما وصلنا سواكن بأربعة حمير ، على الرابع غمرات المجيدى وما يشربه وعليقته صرفنا النقود واشترينا البضاعة ، لم أجد الحرام للفقيه الطيب واستكثرت ثمن السجادة فاشترت له كتاب الخرث على خليل وربطته فى بضاعتى بواسطة البنتشاويش محمد أفندى طه الشايقى ابن بلدتنا وخلوتنا وهو أمين على تفتيش بيت البضائع لأن الكتب ضمن الممنوعات عن التصدير للسودان • فلقينى على صديق عند باب الجمر كقادما من بربر ونحن خارجون من سواكن فقال لى ان الفقيه الطيب يقول لك هذا الكتاب الذى اشتريته لى خير لى من السجادة والحرام ولم أخبر أحدا غير يوسف أخى الذى أنا متأكد أنه ما أخبر أحدا بالكتاب • فهذه كرامة ثانية لكرامة النقود فى بربر سنة ١٣١٠ - وصلنا ككريب بهديتنا كالعادة وسومحنا فى العشر مسامحة كبيرة ووصلنا بربر أرسلنا للفقيه الطيب كتابه بالرباطاب وعملنا حيلة جديدة فى اخفاء البضائع من الرسوم ببربر وأم درمان كما سيجىء فى بابها • وبضاعتنا بالمراكب كان ضمنها الاثنان وسبعون قنطارا قرفلا التى لها قصة طريفة وهى بعد أن سوقنا كل نقودنا قال لى الخواجه خليفة لىفى صاحبنا عندى لك بيعة قرفل رخيصة جدا . قلت : بكم القنطار ؟ قال : أحد عشر ريالاً • قلت لكن ما عندى ثمنها • قال أتركك الى أن ترجع من السودان . قلت : يعرف ذلك فى بيت المال هناك فيغنمونى • فقال محمود بك ارتيفه نزيلنا أنا أحل لكم هذا الموضوع عندى ثمانمائة ريال لمصطفى الأمين قيمة صمغه وأمرنى أن أرسلها له تقديداً مع أمين فأنا أدفعها هنا لخليفة وسلمها مصطفى

بأم درمان • عملت بذلك - واستلمت القرنفل اثنان وسبعون قنطارا وباقي النقود شهلته بها رسوما بسواكن • لما وصلنا عقبة قرى بالقرب من أم درمان لقينا التجار الذين يقومون من أم درمان صباحا فسألهم المهدي أحمد حتى علم منهم أن قنطار القرنفل سبعون ريالاً فجاءني فرحاً فأيقظني من النوم وأخبرني مبشراً لي • فقلت له : نومى خير لى من بشارتك هذه ، قال : لماذا ؟ قلت : بضاعتى فى البحر لا أدري أتغرق أم تسلم • فهل تتغنم بأم درمان أو تسلم • أتلتحق هذا الثمن أم يتنازل الثمن • أفرح للناس قال لى : « تب عليك أصلك ما بتتمنى الخير »

وصل القرنفل ويبيع القنطار خمسة وسبعين ريالاً (أنظر هذا الكسب يا تاجر اليوم) لما وصلنا الشيخ الطيب أخذت عيبتى التى كان بها من الخرز والجلاد مالا تقل قيمته عن الألف ريال وصحبني يوسف الحاج عمر قناوى بما يحب اخفاه مثلى • وصلنا أم درمان فمررنا على بيت والدتى ، فقلت ليوسف : أسندنى لأعلى السور ثم ناولنى الشملة وهى شملة حباية تخينة برتقالية اللون شبيهة بالبطانية اشتريتها لوالدتى • فلما دخلت البيت تلمست والدتى حتى عرفتني بين بناتها غطيتها بها وأخذت عنقرياً سندته على السور حيث تناولنى يوسف • وصلنا منزلى وخبأناها فى مخبأ لا يعرف ولم نوقظ أحداً غير زوجتى التى فتحت لنا الباب ورجعنا للشيخ الطيب بليلاً • كانت عادة والدتى أن تصحو سحراً تصلى حتى يطلع الفجر حيث تصلى الصبح وتقرأ هى وبناتها الراتب فقضى تلك الليلة لم تستيقظ كعادتها فأيقظها بناتها فلما أحست بثقل الغطا عليها قالت لهن : بابكر جاء فقلن لها : لا • قالت : انظرن الشئ الذى فوقى • فلما نظرن الشملة قالت نعم جاء بابكر •

لما وصلنا من الشيخ الطيب وعشرنا ما قدمناه من البضاعة للعشر رحلنا الباقي للمنزل • قمت توا لوالدتى أسلم عليها فضممتنى ووضع راسى على وركها وأكبت على باكية حتى ملأت دموعها أذنى اليمنى وصارت لها صوت مما دخلها من الدموع وأنا لا أحرك راسى حتى تنبعت أختى السهوة فقالت : يا أمه ان أذن بابكر امتلأت من دموعك فرفعت رأسها ثم قبلتنى فى خدى وقالت : سأل لك الله أن يعطيك الولد التيمان والرزق الكيمان • فأحسست بحلاوة روحية التى ما شككت فى أن الله تعالى يجيبها وقد فعل والحمد لله .

دخلت سنة ١٣١٢ المباركة - بنيت لوالدتي بيتا معنا رحلتها وابنتها الحسنى فيه ، وبعد بيع بضاعتنا وحصلنا نقودنا سمعنا أن فى الدويم قنطار الصمغ أربعة ريالات مجيدى - سافرنا الدويم فوجدنا الصمغ به ستة ريالات بلغنا أنه بدار الجمع ريالان وترحيله ريالان من الصمغ البائت فلما وصلنا أم حجر مركز رئاستهم وجدناه أربعة ريالات وصار بالدويم ستة الى سبعة ريالات . أخذنا نشترى الصمغ منها ومن جاراتها ، ثم اتخذنا محلا بحلة تدعى « أم بول » سكانها الدرعوأب الأباحين رأينا منهم حوادث يقف لساننا عن ذكرها فضلا عن ترويتها - أردت أن أعرف نقصان الصمغ اللين اذا يبس جدا يكون كم رطلا فى المائة رطل ، فوزنت عشرة أرطال من صمغ الوادى الكبير الحجم اللين جدا بحيث يمتص الانسان ما فى بطنه ويمضغ خارجه بسهولة فوضعتها فى طبق علقته على ظهر الراكوبة ونسيتها حتى مكثت خمسة عشريوما فى الشمس الصائفة ثم تذكرتها فوجدتها تكسرت وابيضت جدا مما لفتنى الى نشر الصمغ لمعى البروش فى الشمس فوجدتها تسعة أرطال ووقيتين أى نقصت $\frac{10 \times 5}{6} = 8 \frac{1}{3}$ ف جعلت حسابى على ذلك ويزيد ما ينقص من رمى الجمال عند كل نزلة فاعتبرته ١٠ . فلما تسوقنا النقود أزف وقت نزول المطر فعجلت النزول للبحر وصالحنا فيما عندنا من الديون ونزلنا على ألا نرجع فلما وصلنا أم درمان وجدت بعض أصدقائى شاحنا صمغه لبربر فى مركب . رقدت ليلتين بالمركب التى بها الصمغ فنقلت ثمانية أرحل من صمغى الذى بمركبنا لمركب صديقى وخسرت فى ذلك أربعة ريالات رشوة للخفير ولم أزر والدتى فى هذين اليومين ولا رأيت بيتى قصدت أن أؤخر صمغى بالمركب لهذه العلة فأطلب من العتالة أن يخرجوا صمغ الناس خلاف صمغى . فلما زرت أمى فى اليوم الثالث قالت لى : بابكر انت فى البلد ثلاثة أيام حتى تأتيني أنا عفوت عن الناس الآخرين فشق على هذا القول وأخبرتها بعذرى فغفرت لى زلتى

وزنوا لى صمغى وطالبونى بقيمة الثلث تقدا فلم أجد من يسلفنى من التجار ، وللحظ طالبتنى زوجتى بمشتري غلال وكنت اشترت مؤونة سبعة شهور فى هذه المرة التى تكثر نصف السنة بشهر ، فأخذت زوجتى تبكى وتقول

أنا ما بعث والله منه شيئا • فأعملت فكرى فخطر لى أنها لا تدخل المخزن لتراه
 لاهمالها وكسلها والخادمة تفتح العدلة التمارية فتأخذ منها حتى اذا لمست قعرها
 (آخرها) لم تهزها (تحركها) ليظهر ما فى جوانبها فتفتح أخرى ، فطلبت
 ما عندى من العبيد وكانوا ثلاثة أمرتهم باخراج عدل الغلال وصب (افراغ)
 ما فيها من الغلال فى صحن الغرفة فوجدنا بها أكثر مما صرف فى مدة السبعة
 شهور التى غبناها قلت لهم اكسوا المخزن فوجدنا فى كناسته قمحا وذرة ومحبلا
 وظفرا وقرنفلا وزناه كان سبعة وثلاثين رطلا وكثيرا من الخيش ووجدت
 صندوق صفيح مما كان يصدر فيه الشاى من الهند عادة وفيه شىء ثقیل
 فأخرجته للغرفة فوجدت فيه سوسية مكتوبا بخطى على ظهر الصرة التى فيها
 ثلاثمائة وخمسون ريالا ، فتحتها فاذا فيها كشف بخطى دفع يوم بأسماء من
 يشترون منا البضائع • أخذتها مسرورا فرحا ، صرفتها بالمقبول ودفعت ما بقى
 على ثمن ثلث الصمغ . وذهبنا الى بربر (وسافرت وكان معى فى الطريق أحمد
 الفقيه ابراهيم وقيع الله وأحمد يريد السفر لمصر طالب علم) حيث اشترت
 بروشا شمسيت عليها الصمغ مسافة أسبوعين حتى جاء الحمال لحمله ووزنه
 وأخذت منه عينة وسلمته الخبير وسافرنا فلما جئنا فى ككريب أخرنا أبو الفتح
 حتى جاء صمغنا ودفعنا عن كل جمل خمسة ريالات وكانت الصموغات كثيرة
 حتى وانك لا تكاد ينقطع عنك قطر من الجمال الا ترى قطرا آخر • والصمغ
 فى سواكن النظيف قنطاره أربعة عشر ريالا • اتفقت مع الخبير وكان اسمه
 أو شيك أن أعطيه أربعة ريالات قوشليا ويسلك بنا درب هندوب لنصل سواكن
 ونبيع قبل الناس فلما جاء عند مفرق الدروب سلك بنا طريق أو كاك فلحقته
 بحمارى وقلت له الشرط • رمل لى ريالاتى الأربعة فى الأرض ومشى فتبعته
 ومن معى وهما يوسف بدرى وأحمد الفقيه ابراهيم فمشى بنا ثلاثة مراحل حتى
 وصل أرضا عالية فسيحة أنزل فيها الصمغ وأخذوا جمالهم ولم نرهم أو نعرف
 لهم خبرا حتى مضت واحد وعشرون يوما ونحن لا نعرف أين نحن الا القبلة
 حيث نصلى عرفناها بالشمس • أكلنا زادنا الذى عددناه للذهاب والاياب من
 والى بربر • بعد الواحد والعشرين يوما جاءونا بجمالهم ولم يكلمونا ولا
 كلمناهم فقط حملوا الصمغ فتبعناهم حيث القافلة ، كنا فى أو كاك (سنكات

(اليوم) حتى شجراتها الظليلة وواديها الجميل فقلت لمن معي الأحسن أتقدم أنا بالعينة وأبيع الصمغ لأنني أعرف الطريق من أوكاك الى سواكن وكنت رأيت مناما أجده بله ود الدفينه عند باب سواكن فأقول له يا بله الصمغ كم القنطار ؟ يقول الكنوز باعوا بأربعة عشر ونحن أعطونا ستة عشر أينا .

بمرورى على سلسلة جبال عالية رأيت البحر ومدينة سواكن ثم وصلتها بعد ثلاث ساعات من رؤيتي لها فلما وصلت سواكن وجدت عند الباب أحد غير بله ود الدفينه فقال نفس القول فدخلت سواكن مسرورا بالتأخير وقلت صدق الله « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم »

سمع صاحبنا خليفه ليفى بوصولي وجاءنى بالمنزل فأوصلنى فى القطار المشمس ثمانية عشر ريالاً . رضيت له ورضى هو ولكن محمود بك ارتيقه قال الأحسن أن تصبروا حتى يصل الصمغ لأننى أخاف اذا تنازل الصمغ خليفة يقول هذا الصمغ والعينة مختلفان واذا تعالى الصمغ بابكر يقول يوسف أخوى مارضى وهو شريكى ، فتركنا الاتفاق لحضور الصمغ فلما دخل الصمغ الوكالة جاء الزبائن وفتح خواجه جريفا احدى العدل وملأ يديه منها صمغا تشتت منه البعض فأتيته ونفضت يديه من الصمغ وقلت له : ليس هو للبيع . قال : لمن ؟ قلت : لخليفة ليفى فقال : اتركه له بدكانه ، قلت للحماله احملوا فحملوه حتى أوصلناه دكان خليفة ، فلما وصله الخبر جاء مسرعا ووزن الصمغ بسعر القنطار واحد وعشرين ريالاً ونصف ، ودفع لنا الثمن نقدا غير ثمانمائة ريال أخذنا بها منه زراق من زراقه المشهور أخذت منه كيسا به خمسمائة ريال قوشليا مختوما باسمه بالشمع الأحمر فنسيته بدكان الخواجه عدس فلما وصلت منزلى وتغدينا تذكرته فأخذت أبحث عنه فى كل الدكاكين التى مررت عليها فلم أجده وبعد الساعة الرابعة مساء جاء الخواجه عدس سألته عن الكيس فقال لى بحزم : لم تنسه عندنا ، لكنه لما رآنى اهتممت بضياع هذا الكيس اهتماما ظهر على مشاعرى سألتنى كم راس مالك ؟ قلت : هذا الكيس أكثر من ربه فأخرج لى الكيس من خزنته مكتوبا عليه بخط كبير أمانة بابكر بدرى . قلت ممن علمت أنه لى . قال : سألت خليفة من الذى استلم كيسا مختوما نمرة ومبلغه كذا علمت منه أنه لك . فشكرته وقمت تسوقنا البضاعة وخرجنا من سواكن بجمال

أهالى بربر • فلما وصلنا والبضاعة بككريب وكان معنا رجل يدعى عبد الماجد أحمد جبور عنده رجل واحد فطلب منى أن أضمه على بضاعتى لنخفف له العصور قلت له : نعمل حيلة ينجس من العشر بالمرة • وضعت له معى طردا واحدا ومع بضاعة أخرى طردا ولما جاءوا للحساب غالطناهم فى العدد عندنا بواحد وفى البضاعة الأخرى • وكانت بعيدة منا بنحو اثنا عشر مترا وحجبتنا أن الجمل لا يحمل طردا واحدا فانطلت عليهم الحيلة وعشورى كالعادة الستة عشر رطلاعشرناها بأرخص قيمة • قمنا من ككريب بطريق بئر رواى ولم نحمل ماء كثيرا فلما وصلنا رواى وجدناها لا ماء البتة ببيرها فأسرعنا فى السير حتى وصلنا البالو صباحا ونحن وبهائمنا فى شدة العطش ، فقلت ليوسف أخى وعبد الرحمن المربوع وبابكر البشير اشتروا بيرين أو ثلاثة آبار لنحجزها فنسقى بهائمنا ونحمل ما يكفيننا ثلاثة أيام لبربر فوردوا المشرع ولم يجدوا الا بئرا واحدة أنزلوا فيها يوسف ليملأ لهما القربة وهما يخرجانها من البئر • وبعد قليل جاءنى بابكر ومعه جمال يهرولان قالوا لى يوسف نزلت عليه البئر فمررت بهما على بيوت العرب واشتريت بيتين خشبهما وبروشهما ، حملنا ذلك معنا للبئر وأنزلنا معه عربا جعلوها ساترا اذا وقعت رملة أخرى تقع على هذه البروش فلما ثبتوها جعلوا يأخذون الرملة من جانبى يوسف ونحن فى أثناء ذلك وقعت رملة أخرى ولكنها فى وسط البرش فلم يصل يوسف منها شئ ولم تسد الثقب الذى تمر لنا به الرملة لنخرجها للبئر حتى أخرجنا يوسف ونحن واقفون حتى أخرجنا الوطنيين وأعطيناهم أجرهما ووهبنا لهما أقفاض البيتين ولكننا بتنا فى الباك حتى جاء الليل وانصرف العرب سقينا وحملنا الماء من آبارهم وسافرنا بليلىنا سبقنا جمال البضاعة وصلنا بربر • فلما دخلنا منزل أبى علام الحسين حيث ننزل لأن المنصور أبى كوع متزوج ربيته أخبرونا أن أحمد عثمان شقيق مطلقتي البقيع جاء يسأل عنكم وهو فى بيت محمد نافع فبتنا ومررنا عليه فى الصباح أخبرنا أنه بعدما سافر وعبر البحر هو ورفاقه سمع بأننا سنصل بربر مساء اليوم ورجع من هناك ورجع معه رفاقه وجدناه متوعكا بحمى أخذناه معنا للدكان الذى أجرناه لنقيم فيه حتى نخلص الايجارات وندفع العصور ونستعد للسفر • جلس معنا قليلا وقال اشتروا لى ليمونا وسأرجع للمنزل • فى رجوعنا عصرنا مررنا عليه فوجدناه أحسن حالا مكثنا معه مليا وذهبنا ففى

الصباح مررنا عليه وأخذناه للسوق فلم يستطع الجلوس معنا وكان في حديق
عينيه حبوب صغار حمراء فرجع لمنزله ففى مساء هذا اليوم جاءنى رجل من
سكان رفاة يسمى حاج ضرار دعانا عشاء فأخبرناه به فقال ادعوه معكم فلما
جئنا وقت الاصفرار وجدناه جالسا على بئر خارج المنزل فطلبناه للمشى معنا
للعشاء فاعتذر . جلسنا معه قليلا فألح بأن نمضى فمضينا وبعد قليل جاءنا
رسول من بيت محمد نافع يسألنا عنه فقمنا وخفنا أن يكون وقع فى البئر
فأنزلنا من فتشها فلم نجده فقصصنا أثره فوجدناه فى غرفة صغيرة عند باب
الدار ميتا فانكب يوسف أخى على جنازته يبكى شبابه الذى لم يتجاوز الثلاثة
والثلاثين سنة ولا عقب له . أرسلت بابكر البشير وأحضر ثوب دبلان كفناه
منه ودفناه بليله ولم يضعف حزنى عليه ما عمله معى بخصوص أخته ولا بتدبير
طلاق حفصة منى وخطبتها للحسن الفضل لأنى وهبت خياتهم معى لله تعالى
حيث رأيت نفسى أنى لا أستطيع الانتقام منه بقدرها - رجوت قوله « فمن
عفا وأصلح فأجره على الله »

أصبحنا فارشين ولكن يوسف أخى رأى محمد نافع مشغولا ببناء فى بيته
فحلف لا يتم المآتم هنا فنقلنا الفراش الى بيت عبد الرحمن المربوع وبعد المآتم
أعطينا رفاقه ما كنا أعطيناه المرحوم من كسوة لزوجته وإخوانه ولأخيه الحسن
بموجب كشف وخطاب العزاء . كان للسيد على محمود الضوى امتياز
يسامح له فى نصف العشر ببربر فكتب بضاعتى باسمه وذلك بأن وضعت خيش
على المكان الذى فيه عنوانى وهوت ٢٢٥ وكتبت على الخيش الجديد عنوانه
وهوت ٩٨ فلما وصلنا ببربر أدخل بضاعتى فى دكانه وأخذ يماطلنى بقوله ليأت
أحمد أخوى والجمالة يطالبوننى فى الأجرة . وفى يوم ما سمعت أنه يريد تسفير
كل ما فى دكانه من البضاعة لأم درمان فأخذت مصحفا وجئته فى منزله صباحا
قبل أن يذهب للسوق فحلفت له على المصحف انه اذا لم يعطنى بضاعتى فى
هذا اليوم أذهب للامير الزاكى عثمان وأطلععه على كل شىء وأنا أنصارى
لا يهمنى الفقر لأنه اعتيادى عندى ولكن انت تتصور ما يلحقك من المعرة
والمضرة فأخذنى للسوق وسلمنى بضاعتى وعين معى من أخذ ثلاثة أرباع
العشر .

خلصنا أطرافنا وسافرنا ووصلنا أم درمان فوجدنا زوجتي حفصة حاملا
وولدت في يوم ٢٠ رمضان توأمين بنتا وولدا ، ولكنها تعبت في النفاس ولدت
البنت يوم الخميس واستمرت ماسكة حبل الجنين الثاني حتى وضعت يوم
الجمعة صباحا فأجيب دعوة أمي « الرزق كيما (والولد تيمان) » - ربنا
خمس في المائة عما كنا نسابق له - والولد تيمان - هاهما على اني تزوجت
حواء سنة ١٢٩٩ هـ والبقيع سنة ١٣٠٣ هـ وحفصة في صفر سنة ١٣٠٧ هـ ولم
ألد الا في سنة ١٣١٢ هـ من حفصة بدعوة الوالدة الصالحة بعد ثلاثة عشر سنة
من زواجي الأول . عملت في هذا النفاس أكثر من عشرة أضعاف ما صرفته في
زواج أمها . مما أتذكر أن التمر كان رحل جمل موضوعا بعدليه فوق بعضهما
وسط غرفة أمهما وكل من أراد شيئا منه أخذه من جهته حتى صارت بهما خروق
كثيرة .

ولما وصلنا أم درمان وبعنا ، اشترينا الصمغ وسفرناه لبربر وجاءنا الفقيه
الطيب الخليفة آخرنا كثيرا . في هذه البرهة صرت أشتري الصمغ وأبيعه ومن
ضمن المشتري منى بشير الأمين الذي كنت أنزل في بيته في المتمة .

اشترى منى خمسة رحول كل عدلة مكتوب عليها وزنها بالأرطال دفع
ثمن خمسة وثلاثين قنطارا وكان الوزن اثنين وأربعين قنطارا - سهى على أن
أجمع كل الوزن وأنبهه بالباقي يكون معه أمانة حتى وصلت بربر وكان قد
رحل صمغه فذكرت له زيادة الصمغ فأنكرها وادعى أنه نقص أرطالا قليلة -
فسكت لسبيين أولهما أنى أهملت والثاني لأن السبعة قناطير ثمنها تسعة
وأربعون ريالاً لا أشاحن فيها صديقا أنزل بيته ولكنه صار
يشنع بى ونسى أنه قال لى بأم درمان هذه العدلة ستمائة وخمسون رطلا يمكن
أن يحملها الجمل التلب وضحكنا . فلما كثر كلامه بآنى تبليت عليه جاءنى
محمود عيسى وقال لى اذا كنت لك عند بشير الأمين صمغ فلا تتركه له لأنه
فضحك في البلد فجمعت له مجلسا وكان أبو علام الذى نزل بيته ببربر كما
سبق صديقا لمصطفى الأمين وكان نصير البشير على فلما اجتمع المجلس قال لى
أبو علام يا بابكر (المال يجى بلا صلبطة) فتحمست وقلت يا بشير أتذكر أن
أحد العدل وزنها سبعمائة وخمسة أرطال قال : نعم وتذكر أن الثانية وزنها

ستمائة وخمسة رطلا قال : نعم قلت : يمكن الجمل التلب يحملها قال : نعم قلت : اذا احفظوا لى يا جماعة وزن هذين العدلتين ونضيف لهما وزنا أصغر الثمانية عدل الباقية فى الرسالة الموزونة باسمه فى كشف القبانى الرسمى اذا كانت خمسة وثلاثين قنطارا أو أقل أنا كذاب واذا زادت ماذا يكون • نهض محمود عيسى الذى كان مضمحلا حينما سألنى أبو علام بحضور المجلس • هل أخبرت بشيرا بأن صمغك زائد سبعة قناطير ؟ قلت : لم أخبره • قال : هل ألحقته خطابا بذلك فى مدة الشهرين قلت لا فقال جملته المتقدمة واضمحل لها محمود الذى نهض بعدما قال (هذا الكلام تمام) ومشى بنفسه فأحضر الوزن الذى كان تسعة وثلاثين قنطارا وثلاث قنطار فأطرق أبو علام وبدأت عليه الكتابة وعرف بشير وكلم المجلس بالسبعة قناطير فقلت أنا تنازلت عنها لأجل خاطر أبى علام ابن عمى فقال بشير لأى سبب تركتها ؟ قلت : نظير الطعام الذى أكلته فى بيتكم بالمتمة فضحك الجماعة وانصرفوا ضاحكين

وسافرنا لسواكن بالطريقة المعلومة وكان صمغنا سافر قبلنا لحقناه فى الطريق وسبقته لسواكن بالعينة وقد صار معروفا عند تجار سواكن ببياضه لتشمسه الذى أخيرا صار كعادة للصمغ الى اليوم • رجعنا لبربر وبضاعتي ستة عشر رحلا فاتورة وخرزا مثنى فى كيس • أخذت الخرز وقبل أن أخرج به طلبنى محمد صالح أمين البضاعة فاضطرت أن أسلمه الى من أتأكد عدم أماتته ورجعت الى محمد ولد صالح فاستلم بضاعتي وأدخلها فى الحاصل ضمن البضائع لتلك الدفعة لحينما يعشرها ، فلما خلصت منه جريت مسرعا أبحث على صاحب الخرز الذى اتهمته بالسرقة وبالبحت وجدته فى مكان خال وقد فك الخرز وأخذ منه ستة حبال رأيته بعينى يدخلها فى كفة سرواله فخفت اذا أخذتها منه أو أفهمته انى رأيته يخبر محمد ود صالح الذى سيغنم الخرز كله فكظمت غيظى وصارت لهذه الحادثة قصة عجيبة لا داعى لذكرها • ولما جاء الليل جئت للخفير عبد النبى ومعى الحارث أبو فأعطيناه على كل رحل ريالاً قوشليا ففتح لنا الباب فأخرجت منه أربعة أرحل من البضاعة المثلثة حللتها ووزعتها على رفوف دكان عمى محمد الحسن أخى أبى علام وقفلت الدكان سريعا ورجعت للمنزل فى الصباح • جاء محمد ولد صالح وجعل يخرج البضاعة لكل من

بموجب الكشف الذى عنده فلما جاء اسمى قال اخرجوا له ستة عشر رحلا قلت بضاعتى اثنا عشر رحلا نظر الكشف وقال ستة عشر رحلا قلت اثنا عشر فنظرنى شذرا فقلت له بثبات أظنك يا عمى أردت أن تكتب الاثنى عشر كتبتها ستة فاتنهرنى وقال قبل ما يلدوك أنا كاتب • قلت لكن يا عم محمد أنا سيد البضاعة أعترف بالنقصان وأنت الأمين تعترف بالزيادة • اذا أوجد لى الأربعة رحول خذ عشرها وأعطني الباقي لما صدمته هذه الحقيقة المنطقية عض على أصبعه وقال لى : اصبر أنا أوريك وسكت فاهتممت جدا لقوله لأنى مختلس واذا تربص يقبض على متلبسا بالجريمة فيصادر مالى فحكيت لبعض أصدقائى بأم درمان الذى أخبرنى بأن قال لى طريقة محمد ولد صالح ختمية فما عليك الا أن تأتية بكتاب توصية من أحد السادة الميرغنية بأم درمان - وكانت السيدة نفيسة بنت السيد الحسن تزورنا للرحم الذى بيننا من جهة والدتها التى والدها رباطابى فلما وصلنا أم درمان زارتنا وطلبت منى عدة الشاى الموجودة عندى فقلت خذها لكن البراد طلبه منى على ود الشيخ القرشى وسأتيك بخير منه من سواكن فى سفرتى هذه وسأشتري لى صمغا باسمك بثمانه وما يتبعه فاكتبى لى جوابا للشيخ محمد صالح ببربر بالتوصية على فقالت لعمر التنقار الذى يأتى معها كلما جاءت « اكتب له كطلبه » فأمليته كما أحب وختمته السيدة بخاتمها الذى ضلعه يكون بوصة ، فى رأس الورقة فأخذته واشترت ركوة ومركوبا فاشريا وسافرت مع صمغى بالمركب فلما وصلناه قال محمد صالح لى : جئت قلت : نعم ولك معى أمانة وسلمته الركوة والمركوب • قال لى : ممن هما . قلت معهما جواب من صاحبهما احضره لك غدا فجئت له بالجواب وتربصت له حتى وجدته منفردا فأعطيته اياه • ففك ظرفه وفتحه فلما رأى ختم السيدة نفيسة قبله وبرك على ركبتيه وجرت دموعه وأصابه حال بين السرور والدهشة فتركته وانحزت جانبا فلما أفاق وقرأ الجواب مرات عديدة أفاق وصار يبحث عنى فبرزت له فقال هذا الجواب من السيدة نفيسة نفسها !؟ فقلت : نعم بدليل خاتمها ويمكنك ترد عليها بواسطة كاتب الجواب عمر التنقارى تلميذها وخادمها الخاص • فقال لى أين كتبته لك قلت فى بيتنا فاندعش فقال : أتزوركم هى قلت : كثيرا للرحم الذى بيننا فقال لى : اذا دخلت منى فى حصن حصين يا بابكر سلم لى عليها •

كان قبل قيامنا من أم درمان رأيت عند يوسف أخى فروة ميدوب قال لى
أهداها لى الحسن الفضل قلت فى نفسى عنده غرض يريد نخدمه فيه فجاءنى
يحملنى أمانة صمغ نأخذه فنبيعه له بسواكن ونحضر له به جهاز عرسه فقلت له
قد رأيت الفروة عند يوسف اذا كنت أهديتها له لهذا الغرض فانى أقضيه لك
بغيرها فاستردها منه فقال لى لا والله أنا ويوسف أنداد فى السن ولعييان فى
الصبا • وأقسم لى أنه أهداها لهذا الحب لا للغرض المزعوم وبعد أيام سفرنا
صمغه مع التسعة قناطير الطلح التى سفرتها باسم السيدة نفيسة ولما ضمن سفر
صمغه جاء ليوسف واستعار منه الفروة وسافر بها لدنقلا - فلما وصلنا ببربر
لقينا بها أحمد صديق وقال لى الحسن الفضل حكى لأولاد عثمان أنه غشاكما
بفروته التى أهداها ليوسف فلما سافر الصمغ فعلا استعارها منه على ألا يرجعها
وقال له غنوة وهى :

ما شبهك ركوب الزرقا يا العلى جيرانه قاطع المرقه
قل لا بان لهيجا طرقة نحلا من قديم مى سرقه

فمعناها أنت لا تستحق ركوب فروتى الزرقاء لأنك لا تزور جيرانك ولا
تحبيهم أتم يا يوسف وأهلك • كلامكم مثل مشى الجمل الأترق أما أنا
فالركوب مثلها ثابت لى (نحلا) ورثته من آبائى - فلما سمعت هذه الغنوة
ركبنى من الغضب ما غطى على وغلب على حلمى وعاملته من نوع عمله (فهذه
احدى الحادثتين اللتين انتقمتهما فيهما) تركت صمغه ببربر مع التسعة قناطير
الطلح وكتبت له بدنقلا مع أحمد صديق بأن صمغه غير خالص الثلث بأم درمان
لذا ضبط مع تسعة قناطير لى غير خالصة الثلث وقد تركت الصمغين ببربر
فاعمل لصمغك ما تراه وهذا للمعلومية وسافرت لسواكن فلما وصلنا لأم درمان
جاءنى هو وفاطمة أخته ليستلم الأمانة فقلت له هل أحمد صديق لم يسلمك
خطابا منى بما حصل للصمغين ؟ وأنا بعث صمغى بعد رجوعى من سواكن بسعر
القنطار خمس ريات بعد خصم الثلث وصمغك محفوظ تحت اسمك فبهت وبعدمدة
قال لى أنا قلت انك تهزل معى بخطابك مع أحمد صديق فانصرف وهو محسور فعتبت
على أخته فاطمة فأخبرتها بما حصل منه وقلت لها الغنوة لأنى من تأثيرها على

حفظتها في مرة واحدة • فلما سمعتها فاطمة قالت : هو يستحق منك ما حصل له ولكنى أرجوك أن تعطينى فرقة حرير برصه لخاطري فجئت لها بها •

الحادثة الثانية التي انتقلت فيها هي أن بشير الأمين بعد حادثة مجلسنا معه مباشرة باع صمغه بسواكن ببضاعة لكساد الصمغ ومصطفى أخوه أكد عليه ألا يحضر بضاعة بل يحضر القيمة نقدية لأنه من ضمن الداخلين على ما أظن في مسألة تهريب سلاطين ويتوقع ظهور الحادث فتغنم بضاعته • فلما باع بشير صمغه بالبضاعة شرع يوزعها على التجار السودانيين ليعطوه القيمة نقدية فعين لى بضاعة بخمسائة ريال وأنا عمدا قد اشتريت فلما جاءنى ليأخذ منى الخمسمائة ريال قلت له : نفدت نقودى وأنت لم تذكرنى فاحتار وصاريساومنى في أن يتنازل في المائة خمس ريالات فقلت له انى لم أقصد ربعا فابحث عن غيرى فاضطر أن يرجعها للخواجه الذى اشتراها منه بخسارة عشرين في المائة لا اضطراره للخروج مع الجلابة •

في مندوبية الكريية سنة ١٣٠٩ هـ اجتمعت بعمى حمودى الفضل الحضرى والد محمد حمودى الحضرى الذى تعين أمين بيت المال بصرص بعدى فساعده مساعداً قيمة وكان معه ابنه ابراهيم حمودى الذى انعقدت بينى وبينه صداقة متينة دامت الى أن توفى بحلة البساتنه في سنة ١٩١٧ م وصلنا أم درمان وبعنا بضاعتنا • اشتريت لزوجتى حجول فضة وزنها ستون ريالاً من ابراهيم حمودى الذى أراد أن يكسرها ليجعلها ثمانين ريالاً لزوجته ويزيد عليها بعض الذهب . ففى بعض الأيام زارت زوجتى زوجة ابراهيم حمودى والدته بنت عامر أزرق التاجر الشهير وزوجة محمد الكارس فلما خرجن منها لم تتحرك لهن من عنقريها فخرجت معهن وودعتهن ورجعت لزوجتى ناصحا وموبخا • قلت لها هذه الحجول التى أثقلت رجلك من الحركة هى التى استقلتتها زائرتك فزيدت لها والتى معها بنت عامر أزرق صاحب قميص عامر المضروب به المثل والثالثة زوجة محمد الكارس الذى المرمى فى بيتها بقدمه أكثر قيمة من المحفوظ عندنا فعلام تتكبرين أنسيت جوع بلانا وسعيك من صرص للعرضى راجله ونسيت دردوم الودك حينما دخلت أم درمان ، فمن ذلك اليوم اتعظت وأخذت تجامل الناس • فى هذه السنة حصلت هذه الحادثة العجيبة

(رجل لا أذكر اسمه صونا) سمسار احتد في الكلام مع عمى مالك وكنت حاضرا فلما كان من سنى دافقته عن عمى مالك فاحتد مديننا الغضب فجاءنى أحد معارفى سرنى فى أذنى أن أقول له هل أنا فلان حتى تغضب على هذا الغضب ؟ وما كنت أفهم معنى لهذه الجملة التى قلتها تلقينا فاستشاط السمسار غضبا وبارحنا ، فسمع المهدي أحمد بما قلته وما حصل من الرجل فأغلق دكانه بسرعة وجاءنى فحلف على طلاقا أن أقوم معه لمنزلى لأمر مهم يفهمنى اياه بالطريق فركبت حمارى وذهبت معه فأخبرنى فى الطريق معنى الجملة وهى ان الرجل السمسار كان صديقا لما كنيينا عنه بعلان صداقة رفعت عنهما الحجاب فى المنازل ، فخان السمسار فلانا فى زوجته فلما أحس فلان بذلك قال للسمسار لا تأت منزلى بعد ذلك فان نفسى لم ترتج لثقتى بك فقال السمسار : ان دخلك شك من ناحيتى فانى مع خادمك فلانه فسأل فلان خادمته فقالت لسيدها بعد أن عبست أنه مع زوجتك ففكر فى الانتقام من صديقه السمسار الخائن فما رضى أن يعتدى بمثل ما اعتدى عليه به عليه بل شرع يراود والدته السمسار الذى هو أصغر أولادها فأجابته واتصل بها ، فلما أحس السمسار بما حصل وبعد أن تأكد منه قال لأخيه الكبير ان أمك تزنى بفلان فأنكر عليه أخوه ذلك فقال له سأريك بعينك قم الآن واذهب اليها فذهب الكبير فوجد أمه جالسة فى حجر فلان وفلان راقد فنادى والدته فخرجت له فقال لها ما هذا ؟ قالت له : زوجنى اياه ابن عمى فلان هذا - فذهب لخاله مغضبا وقال له كيف تزوج أمنا دون علمنا ونحن رجال فقال له حفظا لكرامة الجميع : هى ابنة عمى وزوجتها فازداد الكبير غضبا وأخذ يوبخ خاله الذى احتد وقال له : ان أمك زانية وأنا لم أزوجها فبهت وسكت ومضى لسوقه الذى ثم ينتفع به بعدها ، فلما تأكد فلان من اشاعة الحادثة طلق زوجته الخائنة وقال لصديقه السمسار : أنا طلقت زوجتى فطلق أمك

وصلنا أنا والمهدي أحمد منزلنا ، فلم نستقر به حتى دق الباب دقة مزعجة فطن لها المهدي فخرجت وخرج معى وفتح الباب قبلى فاذا السمسار وسكينة فى يده قلت له : ادخل فتنفس الصعداء وجلس المهدي وجلس هو فى ظل يتأوه والمهدي بينى وبينه فشرعت أعذر له وأغلظ له فى الايمان انى لا أعرف معنى

ما قلته له ولكن فلانا ابن فلان سرنى بها فى أذنى فقلتها تلقينا ونحن وأنتم
بيننا مصاهرة بابن خالتى المتزوج فلانه شقيقتكم التى وجدتها أنا بأسوان
بعد موت زوجها وحفظتها مع اخواتى حتى زوجها فتنفس أحر من الأولى
وبارحنا فلقى الذى أسرنى فرماه فى الأرض فى الشارع وأخذ يبحث عن سكينة
ولكن المارة خلصوه منه . وأوردنا هذه الحكاية ليتعظ بها الزناة ان لم يتعظوا
بقول الشاعر :

عفوا تعف نساؤكم عن محرم وتجنبوا ما لا يحل لمسلم
الى أن قال

لو كنت حرا من سلالة طاهر ما كنت هتাকা لحرمة مسلم
ان الزنا دين اذا استقرضته فوفأؤه من أهل بيتك فاعلم
فى هذه السنة ونحن بالدويم ، أرسل بيت المال مندوبين يشترون
الصمغ ، فبدأوا يمنعون التجار حتى يشتروا كميتهم أولا فشكوناهم لعمى
العوض المرضى فأمرهم أن ينزلوا أنفسهم منزلتنا وكان فى الصمغ قلة فى
الوارد فاجتمعنا وقررنا تقسيم ما يشتري بعد أخذ ورد على رؤوس الزرايب
حتى أن صاحب رأس المال القليل متى خلصت نقوده يسافر فى السنة مرة وتفضل
زريته بحيث لا يسمح له أن يبيع فى أم درمان ويرجع للدويم وبذلك تمكنا
من كفاية كل أحد مرة فى السنة وكنت انتدبت من الجمعية وعند ارادة معرفة
عدد الزرائب كتبت اسم عمى مالك الذى كتبت له خطابا فحضر لنا بأول فرصة
وسكن زريته التى حجزتها له . وفى سنة ١٣١٢ هـ ولد له ابنه مجذوب
بكردفان . حضر راس مائة يدعى طلق النار ولعله اسم سيده (محمد على طلق
النار الجعلى) معه جملة من الجهادية يأخذ من كل زريبة رحلين لحاوى لا أدرى
ماذا يريد بهما ولقد مروا على زريبة بيت المال وكان بها أبو الحسن أبو المعالى
فنازعهم بأنه تبع بيت المال فلم يبالوا به وكسروا ساعته وأخذوا الرحلين منه
فلقيتهم فى زريبة عمى مالك الذى خفت أن ينازعهم فيضربوه فقدمت لهم
الرحلين وسقتهم لزريتي فوضعت لهم الرحلين خارج الزريبة وبجوارى أبو
لكيلك . فلما وصلوه نازعهم فضربوه وشرطوا جيته وأخذوا منه أربعة أرحل
وتركوا زريبة حاج الأمين عبد القادر ولم أدر السبب ولا هو يعلمه ولكن الله

سلمه منهم • وبعد ما تسوقنا وشحننا الصمغ بالمراكب سافرنا أنا وحاج الأمين •

زواجى من أم أحمد :

فلما قربنا من الخرطوم قال لى : هل عندك زوجة بنت ريف ؟ قلت : لا • قال : اذا ما تزوجت فى حياتك ؟ قلت : كيف ! قال : الآن هل أحد من أهلى أو أهلك علم بمجيئنا ؟ قلت : اللهم لا • قال : الآن ندخل بيتنا فنجد الغرفة الخاصة بى مغلقة بمخرة وفرشها نظيف منتظم - وبوصولنا تأتى الغباشه المسكره الباردة فالجبنه ، فالشعيرية أو السكسكانية ولما وصلنا وجدت كل ما قاله حقيقة كقوله • فقلت له فى الحال أخبر زوجتك تبحث لى عن ابنة ريف مثلها - مازالت تنازعنى فكرة تزويجى بمصرية مولدة منذ كلام حاج الأمين عبد القادر وفى يوم زرت المهدي أحمد بمنزله بيت المصرية وطلبت منه يكلف زوجته تبحث لى عن زوجة مناسبة فجاءنى منها فى الحال وأخبرنى أنها قالت : خير زوجة له نفيسة بنت صالحة فانهن نساء مصونات وصالحة طاهية فى الطعام وخياطة وتطريز اللباس فأخبرنى فقلت فلتخطبها لى وبعد أيام أخبرنى المهدي أحمد بالموافقة فأعطيته أربعين ريالاً قوشلياً صداقاً وجهازاً رغم غلاء الملابس فجاءنى وقال لى : استقلوا النقود فقلت له : لتقل زوجتك لأمها صالحة عنى هذا يكفى مع جهلى بحالة ابنتها فاذا وجدتتها موافقة بعد الدخول عليها فاطلبى ماشئت وان لم توافق فهذا يكفى خسارة فقبلت رغم معارضة أهلها وقالت لا أكف بخت ابنتى وهذا رأى رجل عاقل يرجى منه الخير وأنا ضامنة ابنتى توافقه • هذا فى شهر ربيع الأول فلم أرها ولا أحداً من أهلها ولا منزلهم ثم عقدت عليها فى ٢٧ رجب بمنزل على خاطر ولم أرها ولا بيتها حتى يوم دخولى بها فى غرة رمضان ١٣١٢ هـ لأنى كنت حنبلياً متطرفاً • وبعد أن انصرف المدعوون شاكرين بقى معى ابراهيم أفندى خاطر الذى عرفته فى تلك الليلة أنه نسيبى وأنه الرجل الذى اشترى أرياح وملابس الجهاز دون أن يتعرف لى ومعه عثمان حمدتو بك يؤانسنى الى أن قرب الليل أن ينتصف وكلما قالاً لى قم فادخل أقول لهم حتى تخف النساء وبعد أن حصل ذلك دخلت وعلمت أن من المدعوات بنت أبو السعود باشا التى تقدم ذكرها - فقابلتنى وشكرتنى بعد أن حكى حكايتها - فلما خلوت بالنساء وأنا جالس على السرير بعد أن

صليت ركعتين أمامهن وجعلت أسبح فأخذت امرأة ضريرة أظن اسمها حفصة
تغنى فأشرت أن أصمتي فقالت أخرى : قمن قمن وهو يتحصن منكن فقلت :
لا • بل أحصنكن ثم أخذت الفاتحة علامة ختام العدد ثم قلت : : السلام عليكم
فخرجت احداهن والعروس بيدها وبدأت الضريرة تغنى ، قلت : ماذا تردن ؟
قلن : نرقص قلت : لا يمكن ، انظرن كم شارعاً بين منزلي وبين هذه المنازل وكم
جنساً يسكنونها • كل هذه الشوارع للرجال وان أولاد خاطر من أحسن
وأعقل الناس كما علمت فلا يمكنني أن أمتع نظري بيناتهم ونسائهم عريانات
أمامي • قالت احداهن : هم أولاد خاطر لا ينظرون الرقيص • فقلت : هذا
اعتقادي فيهم فاذا كانوا سفهاء لهذا الحد فأنا آخذ زوجتي منهم وأرحل بها في
صباح هذا الليل فقالت احداهن وأظنها بنت يوسف بك كورتى : أبدا حاشاهم
والله هم كظنك بهم • قلت : اذا لا أكون أنا السفيه دونهم • قلن لى : طيب
ترقص العروس • قلت : هى تعرف الرقص ؟ ما كنت أظن أن بنات الريف يرقصن
فلترقص لأرى فلما صممن على الرقص قلت لهن : ادخلن فى المخزن وارقصن
وأنا أرقد فى مكانى هذا • قالت احداهن : طيب اعطنا حق البنات • قلت : كم
ريالا ؟ قالت : عشرون ريالاً . قلت للولد الذى كان معى بالدكان وكان بيده
كيس به النقود : أعطها يا عبد القادر حمودى عشرين ريالاً فاستلمتها وقالت
أخرى : وحق البلانة المشاطة قلت : كم ريالاً ؟ قالت : عشرة ريالات فاستلمتها
فقالت احداهن : حق مسح القصه قلت : كم ريالاً ؟ قالت : كما تشاء قلت :
العادة قالت : وقية أو نصف وقية ذهب • قلت : أعمل لها حجول وأساور
وأكمام وثوب جزائرى قيمتها أكثر من ثلاثة أواق ذهب قالت : متى تأتى بها ؟
قلت : صباح غد (وكانت هذه الأشياء موجودة بدولابى عملتها لأخطب بنت
محمد الحسين الطيب ببربر منعنى والدى من زواجها) وفى الصبح أرسلت
عبد القادر حمودى جاء بها • وطلبت منهن أنى صاحب أشغال فليعفىنى من
مكث سبعة أيام بالمنزل فسامحنى بعدما أخذت رأى حماتى صالحة الظريفة •
فلما رأيت زوجتى وما بها غير « فرج الله » واحدة فى عنقها نويت أن أحليها
بكثير من الحلوى (ولكن ضياع مالنا حال دون ذلك) سررت لعدم استعمالهن
عارية الحلوى الكاذبة واعتبرت حماتى عاقلة • ولا أنسى ما وجدته بيتى من

الأثاث وما بامرأتى من اللباس يضاعف مادفعته مهرا وجهازا وناهيك بعشاء المدعوين مما جعلنى أجود لهم بما يطلبونه وأظهر بينهم بمظهر الغنى • فى أواخر رمضان جاءنى على خاطر زائرا وقال لى : هذه الخادمة التى تخدمكم بالأجرة وان أولاد خاطر اكتتبوا لزواجك وان زوجتك كانت تطحن بيدها فاذا كنت راضيا تستمر فى طحينها من أول شوال أو ترفع يدها أعمل ماشئت • قلت كنت أظن أنها خادمتهم الملك ضحك وقال لى : ألم تر الدن الذى بداخل الحوش لدبغ الجلود ؟ قلت : لم أر داخل الحوش • ونزلت سوق الرقيق بعد أن انصرف هو فى الحال واشتريت فرخة كانت أجمل من فى السوق بستين ريالاً وأحضرتها لها •

فى أول محرم سنة ١٣١٣ هـ سافرنا لسواكن لكننا تأخرنا شهورا بسبب أن الحكومة أخذت تسخر الجمال لأحمالها اللازمة لها وصار الصمغ يرمى « بديس ابل » (اسم بشر شرق كوكريب) فتوجهت لسواكن • أحضرت جمالة البجا وأخذت من خليفه لىفى نحو ألف ريال ثم رجعت حيث أجرت جمال النوراب فأدخلنا صمغنا الذى صار فى بوار • حجزنا أكثر من شهر اقامة وكان الحر شديدا نستحم مرتين أو ثلاثة مرات فى اليوم ثم بعنا واشترينا البضاعة ، ولما خرجنا عند البوابة أعطيت محمد أفندى أمين تسريحى وعد جمالى اثنين وعشرين وأشر التسريح وجعله آخر التساريج وكانت التأشيرة تظهر بخلاف الأصول فلما أكمل ما فعله عاد اليه ثانية فلم يجد به تأشيرة فظن جماله متأخرة فقال لى : أين جمالك قلت : خرجت قال : أرجعها فقلت : حضرتك نظرتها ؟ فقال : كذاب « أنا أوريك » وامتلأ غيظا • ولما كنت متأكدا من أنه نظرها ما اهتممت بكلامه فأمر عسكريا معه يحضر جمالى ويرجعها وفعلا رجعت وحفظت البضاعة بالمركز الى الصباح فشكوته الى لويد باشا المحافظ فطلبه فاحتج أنه لم ير التسريح الأخير واتهمنى بأنه يلزم أن يكون عندى ممنوعات ولذلك هربت جمالى فقلت للمحافظ : ياسعادة الباشا هل يمكن الانسان يهرب اثنين وعشرين جملا نهارا وحضرة المأمور لا يراها ؟ اذا حضرته يكون مهملا وقلت لسعادته رأيت به عيني حسب الجمال وأخذ قلمه من جيبيه وأشر على تسريحى ولا أدري أين وضع تأشيرته • فتناول خاله محمد أحمد بك قمندان

البوليس الذى حضر صدفه لشغل رسمى وكان معى محمود بك اريقة نزيلنا
الذى ترجى أمين أفندى رجاء حارا مكررا يعيننى فرفض • فلما استلم خاله
التسريح تصفحه فوجد التأشير على ظهره فأراه التأشير وقال للمحافظ : المأمور
غلطان والتاجر محق فحكم الباشا بآنى أنتظر جلابة أخرى ومصاريفى ومصاريف
الجمالة على حساب المأمور أو يعين معنا من مشايخ العرب من يضمن سلامتنا
وبضاعتنا حتى نلحق الجلابة على حسابه فاخترنا الثانية وسفرنا • ولحقنا الجلابة
فى ديس ابل بعد ثلاثة أيام • فلما رجعنا المرة الثانية من سنة ١٣١٣ هـ وهى المرة
الأخيرة من سفرنا لسواكن أحضرت له ثمان ريشات نعام بيضاء من أحسن نوع
تفاديا من حقه فشكرنى وصحبنى • بعنا صمغنا وبضاعتنا ولما وصلنا بربر
جاءنى خبر وفاة والدتى التى أخبرتنى السهوة أختى وكل من حضر موتها أنها
كانت كلما أفاقت من سكرة من سكرات الموت قالت : أنا عافية منك يا بابكر
محللة لك حمل بطنى ولبن ضرعى وحمل حكرى عفوا يدخلك الجنة ويمتعك فى
الدنيا فتقول لها السهوه : وسعيد ؟ فتقول عافية منك يا بابكر وتكرر ما قالته
ثم تقول عافية منكم يا أولادى أناثا وذكورا ثم أفاقت وقام سعيد من عند
رأسها وخرج • فقالت لها السهوه : أما تستحى من سعيد وتذكرينه مع بابكر
قالت لها الوالدة : لا لا بابكر رفيق بلانا لا أقرن معه أحدا فى عفوى وكررت
العبرة حتى تشهدت أخيرا وفارقت الدنيا • فلما بلغتني وفاتها حزنت جدا
وقمت توالى لأم درمان بالبر بالحمير فلما وصلت وعلمت ما قالته زال عني الحزن
وجعلت فراشى عليها مندم سرور لا مآثم حزن ، رحمها الله رحمة واسعة فقد
فقدنا بفقدها أعطف قلب وأخلص صديق وأصلح دعوة والحمد لله • لما وصلت
البضاعة أعطيت سعيدا أخى ستين ريالاً قوشليا ليحضر والدى وزوجته من
كر كوج فأتى بهما ولم أسافر بعدها لسواكن وصرت والدا لوالدى أوفى النفقة
عليه الى أن توفى سنة ١٣٣٧ هـ أى بعد أن صرت أباه خمسا وعشرين سنة
والحمد لله وسبأتى حنانه على وشفقته على مالى فى حالتى الرخاء والشدة فى
أوانه ومكانه •

فى شهر ذى القعدة سنة ١٣١٥ وضعت لى ابنة أسميتها السهوه ولا يخفالك
يا قارىء انى معسر فى المال مشغل بالعلم فجعلت عقيقتها دون الوسط بقليل
ولما كملت عشرة سنوات لدغتها عقرب برفاعه فلما اتعبتها كان بمنزلنا الدكتور
يوسف مبارك أشار لنا أن نسقيها كونياكا - فلما علمت ذلك جزعت جدا وقالت
با أبى اقسم عليك بالله لا تسقنى خمر القى به الله فرفضت سقيها اياها فأصبحت
متوفاة فعلا وكنت عازما السفر للدويم كعادتى فدفنتها وسافرت من المقابر دون
أن أرجع الى المنزل للمعزى كالعادة لأنى رأيت من تمام الاحتساب لمصابها عدم
ابرازى علامة من علامات المآثم •

تسوقنا الصمغ ووضعناه على البحر للسفر ولكن حصل أن طرق سمع
الخليفة أن التجار يدخلون ققرة سواكن وكان اعتقاده أن تجار المهديّة يقابلون
تجار سواكن بككريب بديم عثمان دقنه يتبادلون الأخذ والعطاء حتى كشفه
الحقيقة الحاج محمد ابراهيم زروق - رئيس الأمناء فى مجلس حافل فمنع
الاتجار بين البلدين •

فى عشرين رجب سنة ١٣١٤ وضعوا لى ابنتى آمنه وكنت غنيا كثير
الأرباح كما ترى فيما يأتى فبالغت فى الصرف على عقيقتها ، فما أذكر أن
السكر كان صندوقا أعنى خمسين رأسا فلما اجتمع أصدقائى الذين دعوتهم
وكان من ضمنهم المهدي أحمد مساعد قال لى : قد بالغت فى الصرف فقلت له
بيت شعر ارتجالا :

عققت على بنتى وكانت وليمتى على أمها ما لم تكن قيمة السكر
ما قولك يا سيدى • فضحك الجماعة •

حصل بينى وبين زوجتى حفصة ما يحصل بين الزوجين لأنها أظهرت
الفخفة والافتخار • ففى أثناء الحادثة قلت لها : لمن أشكوك ؟ فقامت وذهبت
لقريبها محمد مكى الذى جمع معه أولاد عمه ثلاثة وأتوني الأربعة فى البيت
وجاءت معهم ولكنها دخلت بيتها فاستقبلتهم بالديوان ولم أسألهم عما جاء بهم
أمام أبناء عمى مخافة أن يحصل لفظ يؤدى الى شحناء فلما شربوا الشاي
وانصرف أقاربى قلت لهم : جاءتكم حفصة ؟ قال محمد مكى و ابراهيم البشير
بتغيط : أيوه لأنك جهلتنا قلت : أطلبوها لتحضر كلامنا . فلما جاءت قلت لهم :

ما الذى قالته لكم ؟ فقال كبيرهم : قلت لها ما عندك وليان (أولياء) • قلت
 هل قالت شيئا نسبته لى غير هذا ؟ قال : لا ، قلت : أنا معكم منفرد فليقم
 أحدهم يضربنى حتى تحجزه هى مرضاة لها • فقال : لا • ولكن نريد أن تعمل
 لها وقيتى ذهب • قلت : واذا ثبت لكم أنها لا أولياء لها تعفونى من الأوقيتين
 فسكتوا ولكنهم اشتد غيظهم قلت لا تسكتوا ، انت يا محمد مكى أكبرهم
 وتذكر كل شىء وأمها شاهدة على ما أقوله لكم هل علمتم أنى حينما جلسنا
 للعقد عليها بأصوان وقال المأذون : حفصة بنت من ؟ لم يعرف من الحاضرين
 اسم والدها أحد حتى قلت أنا : بنت الشيخ وأقصد الشيخ لغويا يعنى الرجل
 الشائب فصادف اسم أبيها الشيخ ولد سنادة وما كنت أعرفه — ثانيا هل علمت
 أنها ووالدتها مكثتا بالدبة خمسة عشر يوما وهى مطلقة منى والمسافة بين الدبة
 وقفر أم كتى بلدكم ضحوه فلم يزرها أحد من أهلهم مع أن الشيخ سنادة له
 زوجة وبنت متزوجة وكل أهله موجودون • ثالثا جئت هاربا ووجدتهما بالدبة
 فراجعتها لأحلل حملها أثناء الطريق حتى أوصلتها لكم بأم درمان وأتتم الألى
 تفزعون معها الآن كلكم موجودون هل زارها أحد أو قدم لها قرشا أو كيلة
 غلال خلاف حرم بنت النور مع أنها نازلة بينكم • رابعا أنا سافرت للجزيرة
 كاتبا لمختار ومعى والدتى واخواتى وأتتم تعلمون أنهما (أى حفصة وأمها)
 أخرجتا من البيت لتسكن فيه العيبة وحرم بنت علوب وقد بنت مريم بيتها
 الذى كبيت الحمام هل ساعدها أحدكم حتى أعطاها عمى محمد على حمد
 السيد أخشابا لسقفه وحتى كساها المنصور أبو كوع ابن عمتى فالآن لما
 صارت غنية فى الحلى والعيشة عرفتموها وصرتهم تقومون أمامها وتنتصرون
 لها منى • أتتم الرجل الذى يحفظ وليتكم ويسترها تكافئوه بمثل هذا أما
 تعلمون أن أكمل امرأة بها عيبان : عيب يعلمه الله والزوج وعيب يعلمه معها
 الناس • قوموا اضربونى أو اضربوا أنفسكم فان أحدنا يستحق الضرب فاتتج
 محمد يبكى بكاء عاليا وانصرفوا خجلين • فلما سمع الشيخ الجليل محمد
 البدوى بكلامى لهم طلبهم وزجرهم وقال لهم : فضحتمونى بما كان مجهولا
 عندنا وعند غيرنا وزارنا بالمنزل واعتذر لى مما فعلوا وزجرها هى وأقسم اذا
 بعد هذا يحدث مثله ليحلق شعرها •

سرقاتي من الرسوم وسببها :

في سنة ١٣١٠ كما تقدم أول مسامحتي من أبي الفتح موسى دقنا في أخذ عشوري لما رجعت شريكا لعمي مالك مباشرة في آخر السنة ورجعت في أوائل سنة ١٣١١ جعلت في صندوق السكر علفه تأخذ رأسا فزاد الرجل عشرين رأسا بثمان سواكن . وصلت أم درمان لا أجرة ولا عشور وكانت رحولي ستة رحول سكر ثم اشتريت قدرين ريحة بيضاء زنة القدر مائة وخمسة أرطال جعلت في مضيق الأسفل صفيحة وملأت المضيق بمجموع وقفلته وسددته بالطين من البحر بسواكن . فعشر في ككريب مجموعا لكن لما وصلت بربر ظهرت الريحة البيضاء في الطين بانفتاح القفل الأدنى واختلاط المجموع فدقق معي محمد ولد صالح حتى كحت الطين وأخرج الصفيحة السفلى وعشرها بيضاء وقيمتها أربعة أضعاف المجموع . لما أردنا السفر لأم درمان جعلت كل قدر في عدلة تمارية خيشتها من الداخل بخيشة تخينة وأتممت العدلة تمرا ولما وصلنا أم درمان أجرت جملا حمل الرجل وربطت في كل عدل قرابة بها ماء حتى اذا سمع صوت الريحة من اهتزاز مشي الجمل يرى الناظر الماء في القرب فلا يشك في أنه صوت الماء حتى وصلنا الدكان نزلنا كأنه تمر . والسكر نجا كله من العشر . أما الفاتورة فكان الصادق عثمان مسموحا له بترك نصف عشور . من عثمان شيخ الدين فكتبت بضاعتى باسمه ونجا ربع عشرها فربحت في هذه السفرة سبعمائة ريالا وفارقت عمي مالك .

اجتمعت بيوسف أخى وسافرنا بمجيدى صرفناه واشتريت قدرين محلية أيضا وفي هذه المرة جعلت له أنبوبة لحمت لحاما محكما بقعر القدر حتى خرجت في مضيق قطرها ثمانية سنتيمترات وعند المضيق ثلاثة سنتيمترات ليدخل العصا وتركنتها بلا طين وجعلت لها قفلين أحدهما في أسفل المضيق والآخر في أعلى المضيق حيث يتدنى البزبور . فلما وصلنا بربر جاءني محمد ولد صالح بمسماز وخرق البزبور وأدخل فيه سلكة رقيقة لآخر قطر القدر وسحبها وشمها فاقتنع بأنه مجموع أما الفاتورة فجعلتها من الحرائر والجوخ وأدخلتهما في صندوق غطيتهما بطبقة من السنبل ففتحوها وعشروها سنبلا والسنبل قنطاره بسبعين قرشا وعملت في أم درمان عملنا الأول . بعنا ورجعنا

بالصمغ الذى ربحنا فيه ربحا كثيرا وعملية السرقة فى هذه المرة اشترينا زراقا كثيرا لأنه يباع فى أم درمان مختوما بالبصلة التى تكون دائرتها بمساحة دائرة ختم الحكومة التى تدمغ به البضائع غير الزراق مكتوب فيه بخط كبير يظهر (بيت المال) فلما جاوزنا الباك قلنا للفحل عبد السلام الجمال الذى بيته فى المكايلا ب قبلى بربر خذ الأربعة رحول خبيها فى بيتك ففارقنا بها وأدخلها فى مخزن بيته ووضع عليها قش لوبيا وباقي البضاعة فيه رحلين من القندور كالسابق محلب وريحة يابسة محاطان بخولجان فلما رآه عمى محمد ولد صالح قال لى ماهر وذلك بعد جواب السيدة نفيسة كما تقدم بعد يومين طلبنى عمى الريح حامد أمين بيت المال وقال لى الأربعة رحول الزراق التى وضعها الفحل عبد السلام فى مخزنه ووضع عليها قش اللوبيا الأحسن تقدمها للعشور والا نغنمها • قلت يا عمى الريح مخبرك هذا لماذا لم يضع عليها خفيرا يحرسها لكم ؟ انى مسامحكم غنموها ان صح ذلك وكان يوسف أخى بجانبى فقلت له فى أثناء كلامى : بخيت فرحات (وهو جمال نامنه) للسفلاوى الى قتيبه لمحمد مصطفى بالفاضلاب • فقام من وقته لبخيت وحملوا الرحوله للسفلاوى الذى عبر بها النيل بالداخله (أتبره الحالية) على طوف دوم لمحمد بالفاضلاب الذى وضع لها مرقا على فم حفرة وعلقها فيها خوفا من الأرضة • وبعد يومين طلبنى عمى الريح وقال لى الرحول عبرت النيل بالداخله ووصلت الفاضلاب عقلت بحبل فى حفرة فى عمود خوف الأرضة وأنا لا أعلم ما قصه لى قلت غنموها ياعم الريح • قال أفضل ترجعها • قلت يا عمى الريح لا تكلمنى ثانى مرة فى هذه الرحول غنمها غنمها وكررت ليوسف بخيت فرحات يضعها عند شيخى الفقيه محمد حامد بالمتمة فقام من حينه لبخيت الذى أوصلها المتمة فطلبنى عمى الريح وقال لى ان الرحول وصلت المتمة وسنكتب لأمين بيت مال أم درمان بها قلت له هى خرجت من دائرة اختصاصكم • قال نكتب فيها للنور الجريفوى أمين بيت مال أم درمان • فقلت أفعل ما شئت ومشيت • فلما وصلنا أم درمان وبعد أن أخذوا عشر ما قدمناه من البضاعة كان بعيتى هذه المرة من الخزر والجلاد ما قيمته فوق الألف ريال دخلت بها وكالة العشور وأريت الأمناء مختار محمد وحسن حدربى ثيابا وفركا لا قيمة لها وأخبرتهم أنها كسوة

للعائلات فسلموني اياها وحمل العتالة البضاعة التي أخذوا عشرها ولما وصلت باب الوكالة لقيني عمى يوسف سليمان (وهو أكبر العمال المنوط بهم ثلث الصمغ وعشر البضائع ولا يمكن أن يقبل رشوة) قال لى ما فى هذه العيبة ؟ قلت له ورميت له المفاتيح بعدم مبالاة لما بها وقلت : البضاعة تقدمت فتشها وأرسلها لى فقال : خذها والحق بضاعتك • ولو أنى تلجلجت فى الجواب أو جمد دمي من الخوف أو الكسوف لاستلمها وفتشها •

فى يوم ما جاءنى صديقى الحميم المرحوم ابراهيم حمودى الفضل الحضرى وعرفنى أن عمى يوسف سليمان وضع على منزله حرسا بتهمة أنه عنده ختم مزور يدمغ البضاعة كختم بيت المال ويأخذ على ذلك نصف العشر ممن يختم لهم بضاعتهم • واعترف لى انه يعمل ذلك فعلا • فاذا ضبط هذا الختم لا شك فى ترحيله للرجاف وموته هناك أو تقطع يده ورجله وطلب منى مساعدته بما ينقذه من الورطة • فبعد رواية اهديت لأن أذهب لعمى يوسف سليمان وأخبرته أنى كنت ذاهبا لزيارة الشيخ عبد الله الفقيه الأمين أم حقين ، وبرجوعى لقينى ابراهيم حمودى محملا عائلته ووالدته ذاهبا الى المتمة وعرفنى أنك السبب فى رحولته لقصدك له بناء على وشاية أعدائه فأنزله بالعجيجة لحينما أقابلك لأنى ما رضيت لك هذه السمعة • الخ •

والسبب لسرقتنا بضاعتنا بهذه المخاطرة هو كثرة الرسوم الموضوعة من الحكومة على البضائع بحيث لو يدفعها التاجر تماما لم يبقى له من رأس المال الا سبعة أجزاء من ستين جزءا • وهاك حسابه لتتظر ذلك :

ندفع على الصمغ من الدويم لأم درمان الثلث وفى بربر السدس وفى ككريب الجمل ومتوسطه أربعة قناطير خمسة ريالات قشلى يعنى جنيه وقيمة متوسط الصمغ خمسة عشر ريالا . اذن تكون رسومه واحد على الاثنى عشر وعند الرجوع يؤخذ فى ككريب الجمل عشر وفى بربر عشر وفى أم درمان عشر فيكون

$$١ - \frac{1}{3} = \frac{2}{3} \text{ و } \frac{2}{3} - \frac{1}{4} = \frac{1}{4} \text{ و } \frac{1}{4} - \frac{1}{4} = \frac{1}{4} \text{ و } \frac{1}{4} - \frac{1}{4} = \frac{1}{4} \text{ و } \frac{1}{4} - \frac{1}{4} = \frac{1}{4}$$

$$\frac{1}{4} - \frac{1}{4} = \frac{1}{4} \text{ و } \frac{1}{4} - \frac{1}{4} = \frac{1}{4} \text{ و } \frac{1}{4} - \frac{1}{4} = \frac{1}{4}$$

هذا ما يبقى من رأسمال التاجر وهذا بخلاف العشرين قرشا التى تأخذها حكومة سواكن على الجمل داخلا وخارجا • فبالله عليك يا قارىء ما هى التجارة التى تربح ألف فى المائة ؟ ومن وراء هذه الرسوم مصاريف التاجر

ذهابا وإيابا له • ومصاريف أولاده وراءه • أتتكر بعد هذا علينا السرقة في رسوم مهما بالغنا في اخفائها وتعبننا وتفننا في أساليبها ؟ اللهم لا لوم علينا •

انشاء الله انتم الغابة وهم الخطابة :

تركت السفر لسواكن وأقمت في سوق أم درمان اشترى البضائع ممن يجلبونها وأربح فيها في شغلي هذا • فأننى ان ذكرت لك في بعض أسفارى خبأت بضاعتى في مركب تحت بضائع الرباطاب - كالزحف والتمر فلما وصلنا أم درمان جاءنى مختار محمد سليمان مفتش البضائع الذى يعشرها وهو كان معنا بخلوة القرآن برفاعة وهو عرفنى وأنا لم أعرفه وظننته تاجرا يدعى شبيطة فسألته عن أثمان البضائع وأطلعته على كل بضاعتى بأنواعها واعدادها مخبأة وظاهرة فلما أتممت كلامى تأكد انى لم أعرفه فقال لى انت يا بابكر ما عرفتنى وكان ذلك في سفرتى بعد انفصالى من عمى مالك في سنة ١٣١١ وقال لى أنا مختار ، فسقط في يدي فلما رآنى ارتبكت هداًنى بقوله : أخرج ما كان ظاهراً في البضاعة والمخبأ اتركه في مكانه حتى يأتى عمى العوض فاذا قال خذوا العشر فقط أخرج كل البضاعة للعشر فاذا قال خذوا نصفها أو ثلثها بعد العشر كسلفية على بيت المال يكفى أن يأخذوا منك نصف أو ثلث ما أخرجته فقط • وفى أثناء كلامنا جاء عمنا العوض ويوسف سليمان وأمرأه أن يأخذ العشر ونصف البضاعة سلفة ونفذ الأمر وترك المخبأة • فهذه أول خدمة ، وبذا انعقدت بيننا صداقة متينة وتبادل نافع واليكم قصته كاملة :

حينما أردت أسافر أوصانى لأحضر له معى سبعة يسر وعقد سوميت فأحضرتها له وحلفت من ثمنهما الذى لا يتجاوز السبعين ريالاً قوشلياً يعنى ١٤ جنيهاً • فصار يجاملنى في العشور ويقبل شفاعتى لغيرى ثم جعلت له أمانة تجارية تزدد ربحاً وافراً ، ثم تزوج ووضعت له بنتاً اشتريت لها فرخة تحملها واعترف ان ماربحته منه ضعف ما أعطيته ونحن على صفاء حتى جاء محمد منصور يحمل خطاباً من أبى علام لأساعده في العشور فلما أخبرت مختاراً وكنت موجوداً معه ، فبدلاً أن يحترمه أو يتسامح له عن بعض العشر ضربه بكفه على خده بعد أن أخذ منه العشر كله فأنكرت هذا الانقلاب الفجائى وقمت ركبت حمارى وذهبت للسوق فلما كان وقت العصر جئته بمنزله فرحب بى كعادته

فطلبته في خلوه فخرج معي فقلت له يا مختار عرف سكان أم درمان التجار اننا صديقان وبما اننا معروفان ولا يجوز أن تتهاجر مهاجرة النساء أو العامة جئتكم لأنصح لك انى لست صديقك المخلص كما كنت فلا تعتمد على صداقتي والمعاملة المالية بينى وبينك (أعنى أمانتك عندي) محفوظة السر مأمونة النقصان • فالذى أريده أنك اذا سبقتنى في مجلس جئته بعدك أو ضمنا مجلس تحافظ على ألا يفهم أحد بيننا جفوة ولك على أنى لا أسمح لك به منى ، فاضطرب جدا وبدأ يعتذر ولكنى بارحته فجاءنى فى السوق وجلس معي فبدأت أريه بضاعتى التى بدكانى كلها معشوره ومختومة ، فأمسك بيده زجاجة فيها نحو رطلين محلية وقال لى هذه معشورة يمزح، فقلت لا وأمسكتها منه وصوبت فمها للأرض • فلما قبض على يدي حلفت عليه بالطلاق ليطلقنى حتى صبيتها كلها فى الأرض فنهض قائما وانقطع عن دكانى ولكنه يزورنى بييتى رغم قطعى زيارته الا فى مناسبات قاضية بالزيارة •

دخلت سنة ١٣١٤ وصمغنا موجود كله ومعه لحاوى ورحول نظرون وجوالات ملأى بريش النعام وأنا بدكانى ، ففى يوم بعد سقوط دنقلا بيد الحكومة مر على بالشارع على حمد صاحب الحمامة التى بعثها بيلان كما تقدم ومعه ثلاثة رجال فقامت له وعانقته وصافحت من معه فأجلستهم وطلبت لهم قهوة فأخذ على حمد يصوب ويمعن فى بضاعة الدكان ثم قال لى لمن هذا الدكان ؟ قلت لى • فقال هذا كله ملكك ! فقلت نعم فقال أعوذ بالله من السلب بعد العطا انت يا بابكر نصرانيا لأنه لا يمكن لأحد من أصحاب المهدي أن يملك مثل هذا الا اذا انقض البيعه وأراد على أن يقوم فتعلقت به وقلت له : الليلة هذه انت وهؤلاء الاخوان الذين معك بيتوا معى بمنزلى وفعلا بتنا معا وتآنسنا فسألته هل اتهمنى بأنى بعت حمامته فأقسم بالله لم يجل فى خلدته مرة واحدة وانه نسيها ولم يذكرها الا بحديشى هذا فأعطيته ستة عشر ريالاً وكل واحد ممن معه أربعة ريالات بعد أن حكيت له الحكاية التى تخص الحمامة التى تقدمت •

انتصفت سنة ١٣١٤ وقضيتها بأم درمان تاجرا وطالب علم رغم منع التعليم رسميا فقرأت على الفقيه حامد محمد أحمد الأزهرية منفردا بمنزلى ثم جاءه

الفقيه أحمد كريم الدين ومحمد نمر السعداوى يحضران المختصر والألفية
 واتخذت له مخبأ في بيت محمد خير كريم الدين الذي قتل بالمتمة وأخذت
 سقوف غرفه فسقفنا له محلا لا يعرف وصرنا نقرأ عليه • وقرأت أب النجاعلى
 الاجرومية على الشريف ود أبى خف ومعى الشيخ سيد أحمد الأزهرى ثم
 أكملت دروسى على الفقيه حامد محمد أحمد الى يوم خروجنا الى واقعة كررى
 لم تتركها يوما الا أن أكون غائبا أو مريضا • وفى كل هذه المدة صمغنا
 مرصوص على البحر حتى جاء المنصور أبو كوع من بربر فى آخر شهر ذى الحجة
 من السنة ونصح لى وألح على فى سفر صمغى لىبقى ببربر لأن الحكومة
 أصدرت أمرا بسواكن ان كل الصمغ الذى تجده فى أم درمان تصادره •
 فسفرته فى آخر أسبوع من محرم بمركب عبد الله سعد التى رئيسها عبد الباقي
 العالم الزيدابى وسفرت معه اللهاوى الفارغ ورحول ملأى بالنظرون وجوالات
 ملأى ريش نعام والمنصور نفسه سافر فى المركب لبربر وعنده فيها غلال • فلما
 وصلوا المتمة وجدوا الأمير عبد الله سعد عرض بمن معه ضد المهديّة وخاطب
 الانجليز بمرورى لينجدوه بسرعة فلم ينجدوه كما آمل وقبضوا على صمغى
 يخرجونه بالمتمة ويحتفظون بمركبهم ولكن أصدقائى بالمتمة شفّعوا عنده فترك
 المركب تصل بربر وترجع له • فلما وصلت الزيداب (وطن رئيسها) وجدت
 الأمير حسنين عرض أيضا فأخرجوا الصمغ وما معه وأدخلوه فى مربوع التهامى
 بما معه من النظرون والريش • وأخونا المنصور أجر مركب صغيرة شحنها
 بغلاله وترك بضاعتنا وسافر لبربر سامحه الله وسنرجع لسيرة الصمغ • كان
 بعض أولاد عمى وبعض أولاد خالى ضيوف عندنا يأتوننا فى أول الشتاء
 ويستمرون يتاجرون وهم ضيوف الى وسط شهر أغسطس حتى وان بعضهم
 يعمل عصارة فى بيتنا ويسعى الكباش الباطلات لتسمن ويبيعها فاذا هوى أحد
 أولادنا بأن يضرب الكبش يضرب صاحبه الولد بدل الكبش وذلك فى أول
 سنة ١٣١١ الى آخر شعبان سنة ١٣١٦ حيث رحلت من أم درمان بوالدى
 وزوجتى الأولى بأولادها الى الجزيرة كما سيأتى :

ومما أتذكر أن على صديق طلب منى أن أمشى معه الى محمد سليمان
 قاهر لأخلصه من دفع رسوم بضاعة الدامر فقلت له ان رجلين اشترى منى ريحة

تركها عندي أمانة أمش للسوق أسلمهما إياها وأرجع لك فجذبني من الحمار
ثم أمسك عنقي ولزني بعنف حتى وقعت على وجهي في الأرض . فقامت ركبت
ومشيت معه لمحمد سليمان وخلصته منه وتوجهت نحو السوق ، فلما مررت
بجنوب بيت المال رأني عمي يوسف سليمان فناداني فلما وصلته وجدت معه
جمعا من أولى الحاجات وأظنهم من جماعة الكاره . قال عندك نقود جاهزة قلت
بيع أمس بالدولاب قال أبيع لك تسعين ثوبا من الولاية ذات الثوبين بسعر ١٢٠
قرش (مائة وعشرين قرشا) بشرط أن تدفع لهؤلاء خمسمائة ريالاً قوشلياً .
قلت قبلت ولكن استلمها مقدماً . فسلمني إياها وحملتها على الحمير ومشيت
مع الجماعة والبضاعة معنا إلى السوق ففتحت الدكان وأدخلت الولاية في مخزن
وقفلت عليها ثم وضعت الصنجة ذات الـ ٢٥ رطل في كفة الميزان والنقود في
الكفة الثانية حتى توازى . هذه ٤٠ ريالاً وعددت لهم مائة ريال وبقي في
الدولاب نقود هذا يوم واحد . سمع التجار بالولاية وازدحموا على فحددت
السعر ٢٠٠ قرش تجاذبوا في الحال فربحت كل ثوب ثمانين قرشاً وهذا ببركة
تحمل الأذى للأهل والأرحام وعمي على شكاك الذي كان يؤذيني كما قرأتم ،
أحد ضيوفنا كلمنا ، جاء لأم درمان كنت أبالغ في إكرامه لأنني أعلم أنه كثير
الجوع بين الوجبتين الفطور والعشاء لأن في وقت الغذاء نكون بالسوق فكنت
أوصي مشدداً بأن يعمل له الغذاء والشاي حتى قال مغنياً في هذا المعنى :

« خلاف الشاي في النهار اتنين أكلتنا »

أكتب لكم هذا يا أولادي لا تمجيدا لنفسي ولكني أريد أن أريكم أن
الأرحام لها حق لا تسقطه إساءتهم لأحدكم قال تعالى « وأولوا الأرحام بعضهم
أولى ببعض في كتاب الله - فلما رأى والدي صبري على إذاهم ونسياني
لإساءتهم شكرني ودعا لي قائلاً انشاء الله يا ولدي « انتم الغابة وهم الحطابة »
والمعنى أن تدوم حاجتهم لكم وفضلكم عليهم كما تدوم حاجة قاطعي الأخشاب
لمحل الأشجار الغزيرة كما يدوم تعويض كل ما قطعوه منها بنمو أو نبات غيره
منها ، وهذه دعوة صالحة كررتها لأبراهيم مالك بدنبك بلدنا بكشوى حينما
جاءنا على صديق في آخر يوم أسافر فيه من الرباطاب سنة ١٩٢١ سائلاً أعطيته
خمسين قرشاً وأعطاه الشيخ إبراهيم ثلاثين قرشاً أمسكها بيده وقتت مستقلاً

لما أعطى وقام مغضبا ومشى فقال لى ابراهيم يستحق أن نرجعها منه فقلت له
اتركه انشاء الله نحن الغابة وهم الخطابة •

هروب سلاطين وما بعده

من حوادث هذه السنة سفر سلاطين وما ترتب عليه ما يقال ان عبد الماجد
الحاج محمد الغبشاوى قد أخبر الخليفة عبد الله بأن أحمد العجيل هو الذى
سفر سلاطين واحضر له الزاكى الذى سفره فعلا والسبب على ما سمعناه وقتئذ
مصادق الحكمة القائلة ما اجتمع فرجان فى منكوح واحد الا ألفت بينهما
العداوة والبغضاء ، فان عبد الماجد طلق زوجته التى فى الرميلة تأديبا لها وفى
نيتة مراجعتها فسبقه أحمد العجيل وتزوج بها على عهدة الراوى • اما الحوادث
التى رأيتها ان الصادق عثمان التاجر الميرقابى صديق شيخ الدين سمعته مرة
فى السوق قال والله لو يسلم لى مالى هذه السنة لا أتاخر بعدها أبدا • وكان
ابشر عثمان شريكا تجاريا لأحمد العجيل الذى كان أكثر أيامه يقضيها فى
الرميلة مع العروسة ، وابشر هو الذى يباشر الدكان لا يغيب عنه ففى يوم أنا
والصادق ومصطفى الأمين بدكان ابشر عثمان بلغ الصادق ان محمد أبو بلل
ومعه جهاديه توجه لمنزل محمود عيسى وكان للصادق صندوق فيه تباكو (تنباك)
وهو ممنوع جدا استعماله ، والاتجار به ، فأسرع الصادق الذى بجيبه مفتاح
الصندوق ليصل قبلهم ولكنه وجدهم عند الباب فدخلوا معه • فأراد ولد أبى
بلل أن يحمل الصندوق بما فيه لبيت المال ولكن الصادق فتحه وأخرج منه
ورقة ليأخذها غير ان محمد أبا بلل خطفها منه وفتحها فاذا خطها أفرنجى ،
فبقدر ما ترجاه الصادق وتذلل له من كبريائه وبالغ له فى الرشوة لم يتركها له
وأوصلها للخليفة ، فطلب ترجمتها فاذا بها أن الصادق متفق مع الحكومة
بسواكن بترحيل أفرنجية من أم درمان وفى صباح ذلك اليوم خرج الصادق من
مخزن بضاعته التى ملأت ثمانية غرف بقرب السوق • وذهب للسوق فكان
التجار يسألونه عما حصل وكنت ومصطفى الأمين من أصدقائه فتوجهنا معه
لبيت مخزنه فأخذ يتوضأ للعصر • فلما كان فى يده الشمال دخل محمد أبو بلل
ومعه كل الحماره بحميرهم وجهادية بيت المال ، فقال له هات مفاتيح البضاعة
فما زاد على أن قال له البضاعة كلها أو بعضها • فقال بأنفه كلها • فادخل يده

اليسرى وأخرج المفاتيح من جيبه ورمأها له فى الأرض • فأخذها وفتح مخزنين
نقل الحماماره ما فيها ، وكادت الشمس تغرب صلى الصادق العصر معنا فى
جماعة وبعد الصلاة جلس على كرسى فلما فرغ محمد أبو بلل شمع ما فى
الحواصل بالشمع الأحمر ووضع خاتمه على شريط من الناحيتين وذلك أول
يوم أرى فيه الشمع الأحمر ثم تناول عمه الصادق من رأسه وكتف بها يديه على
ظهره وساقه لبيت المال راجلا وأنا ومصطفى الأمين تركنا حميرنا ومشينا معه
بأرجلنا حتى وصلنا بيت المال حيث وجدنا عمى العوض الذى أخذ له أبشر
عثمان من دكانه فوجدناه يقول له : يا زول أمن نفسك ولا تقتل نفسك • فيرد
عليه أبشر عثمان أنا وأحمد العجيل نموت معا أو نحيا معا وبقدر ما ألح
عليه تمسك بمبادئه هذا ، ثم جىء بأحمد العجيل وفى عنقه جنزير وابور حامله
على ظهره فوضعت فيه فى الحال ثلاث مكيات وأدخل السجن ثم التفت علينا
عمى العوض أنا ومصطفى وقال لنا أنتما مجنونان هؤلاء جناة محكوم عليهم
بالموت ماذا تريدون منهم ، أمشوا أخرجوا حالا والا أدخلناكم معهم • ثم قال
لنا خذوا أبشر عثمان معكما فراجعناه قبل أن يدخل السجن فيؤتم أولاده بلا
سبب • فلما التفتنا الى أبشر عثمان قال لنا أنا مع أحمد العجيل تمتعت معه
والله وعلى الطلاق سأموت معه فتركناه وخرجنا • انظر الى هذا الوفاء وقارن
بينه وبين وفاء السموءل ذاك بابه فى أماتته وهذا بروحه لمجرد صداقه • اللهم
هذا أكثر وفاء ولكنه ما وجد أمة تسجل له هذا الوفاء فأدخل معه وسفر معه
لبحر الجبل ومات معه • أما الصادق عثمان فقيده وأدخل السجن ولم أره بعدها
حيث سفر لبحر الجبل والخبر الذى جاء عنه وقتئذ أنه نزل على دفة المركب
التي يقطرها الوابور ليتوضأ فاخططفه تمساح والحكم لله العلى الكبير •

يجب أن تقارن بين معاملة الخليفة عبد الله لأولاد البحر وبين هذين
الرجلين • الصادق كان باشبوزق فى الحكومة السابقة وأحمد العجيل كان تربال
ساقية • فصارت مالية الصادق بسبب صداقته لشيخ الدين تقدر بستين ألف
ريال • ومالية أحمد العجيل بنصفه ، فخاناه فى صميم دولته وبين تأثير الخليفة
لأهل الغرب من أول توليته بحيث جعل عثمان آدم بالفاشر بدل محمد خالد
زقل وحامد على بكسلا بدل أبى قرجه ويونس الديكم بدنقلا بدل ود النجومى

الذى عرضه هو وجيشه للموت المحقق وعثمان الدكيم ببربر بدل محمد الخير
عبد الله ومحمد زين بأبى حمد بدل أولاد محمد أبى حجل ، أترك هذا الحكم
للقارئین •

المهدى أحمد مساعد أعرفه منذ نعومة أظافرى وفى هذه السنة جاءه
شريكة حمد الكردى وحاسبه وكنس دكانه حتى ترك رفوف دكانه خاوية . لما
سمعت ذلك طلبته فى ساعته وقاسمته مافى دكانى من البضاعة الا الريحة التى
احتكرتها داخل مخزنى وقيدت عليه الثمن وصار يدافعنى حتى خلصنى ولم
أترك له شامتا ولا أوقفت حركته التجارية ثم اشتري بما ربحه ريشا وسافر لمصر
حيث اجتمع بمحمود المكى وعقدا شركة مع عبد المجيد حسن قريب جاء بها بعد
فتوح أم درمان •

توفى الشيخ عبد الغنى السلاوى العالم الجليل الذى يحفظ القاموس
المحيط تقريبا ، فما تسأل من كلمة لغوية الا يقرأ لك كل المادة • زرتة يوما
فوجدته حاقنا فقال لى : أئتيني بحسن زكى فأسرعت له طاردا حمارى فلما
جئت به وقربنا من بيته سمعنا البكاء عليه فبهت ومشيت فى جنازته حافيا جزءا
على وحيد نوعه فى كل العلماء فى اللغة ولم أفتشه فى غيرها • ففى الجبانة أخبرنى
يوسف كورتى صمغى ضاع بالزידاب فقلت له ويوسف أخى وصل ببربر بعد
أن تعرض للموت ثلاث مرات فحمدت الله وعملت حفلة فرح مدح فيها الشيخ
أحمد أبو شريعة بزماله كلهم وفيها الشيخ ابراهيم أحمد كراع النعامة والمشايخ
على طلبه والصاوى وغيرهم من مقرئى المصريين كلهم • فسهرنا ليلتنا •

فى هذه السنة طلب الخليفة عبد الله محمود ولد أحمد بجيشه من الفاشر
فاتتشر الريال المجيدى فى السوق فما كان يصرف لجيش محمود وكان مسبوكا
فجعل التجار يأخذون الريال منه بنصف ريال القوشلى أو أبو طيره هو العملة
المستعملة فى سواكن وقيمتة ٢٠ قرش • اما الريال المجيدى فقد صار بضاعة
بقيمة ١٦ قرش وحصلت فى السوق ربكة فى ثمن البضائع • فاشتكى جماعة
محمود للخليفة عبد الله مباشرة أو بواسطة لا أدري ، انما الذى أذكره لهذه
الحادثة ان الخليفة جمع كل التجار المعروفين وكنت منهم وذلك بواسطة الامناء
العشرة من التجار ورئيسهم محمد ابراهيم زروق وقال : لماذا تعتبرون الريال

للاخوان جماعة محمود أحمد نصف ريال ؟ فخطبه محمد ابراهيم زروق قائلا:
يا سيدى لأن التجار حينما يصلوا فى سواكن لا يقبل الريال المجيدى المسهوك
الا فى نصف ريال قوشلى لأن المجيدى أصبح بضاعة فى سواكن يشترونه كفضة
غشيمة فغضب الخليفة عبد الله وقال أصحاب المهدي يدخلون عند الكفرة .
قال نعم يا خليفة المهدي . قال الخليفة الله عالم وشاهد النور الجريفاوى
وجماسته قالوا أصحاب المهدي يجتمعون بتجار سواكن فى ككريب يستلموا
منهم البضاعة ويسلموهم الصمغ . فقال محمد ابراهيم أنا يا خليفة المهدي
لا أكذب عليك ، الحقيقة ما أخبرتك بها . فغضب الخليفة ودخل بيته وفى غد
منع التجار من سواكن

اجتهدت أنا فى احتكار الريجة اليابسة لأن عندى منها قرنفل كثير يتيم ،
صرت أشتري كل الوارد منها حتى جمعت نحو أربعين قنطارا وانقطع الوارد
وعدمت بالسودان غيرى . فصرت كل يوم أخرج قدر قنطارين لا أبيع منها الا
للنراشة (التجار الصغار) لكل واحد ثمن قنطارا أى اثنا عشر رطلا ونصفا
بشمن أفرضه عليهم فرضا (ولم يكن وقتئذ تموين بل كل السوق سوق سوداء)
حتى نفدت الريجة .

فى شهر ربيع من هذه السنة اشتريت مؤونة ستة أشهر غلالا بسعر الأردب
ريال وربع ريال وأودعت عند والدى ما أردت حفظه من النقود للطوارئ لأن
الأمير محمود عين لعبد الله ولد سعد والحكومة استولت على أبى حمد فقال
لى والدى اشتر بكل هذه النقود التى سلمتنى اياها غلالا واحفظه فى الأرض
فقلت له ان الغلال مادام ولد السنى مسيطر عليه فى الجزيرة لا يتعالى ثمنه قال:
ولم ؟ قلت : لأنه يوجد عند الجهادية والمناذيب ومن يتبعونهم يبيعونه رخيصة .
فقال لى بعد أن تبسم . هذا من أسباب تعاليه ، لأنه اذا أجذبت سنه أو
أتوسطت يأخذ أحمد ولد السنى ومناذبيه مؤونتهم ومؤونة باب الخليفة وينعدم
الغلال فترتفع قيمته ارتفاعا غير منظور . فما سمعت كلامه ولما جاء آخر شعبان
وطلب منى الغلال نزلت البحر وجدت الأردب ستة ريالات . اشتريت لآخر
محرم وفى أول صفر جاءنا خبر قتل عبد الله ولد سعد ومن معه بالمتمة بواسطة
جيش محمود وقتل حسنين ومن معه بالزیداب بواسطة على فرفار وانقطعت

المواصلات • فلما طلبت الغلال وجدت الأردب اثني عشر ريالاً ثبت في هذا
الثلث حتى شهر رجب من سنة ١٣١٥ حيث صار الأردب ثلاثين ريالاً ونفذ
غلالنا وقلت نقودنا وأفراد عائلتنا رقيقاً وأحراراً وضيئفاً يزيدون في مجموعهم
على الأربعين نفراً ومما زاد الطين بله انه وضعت الرسالة إبراهيم بدرى يوم
١٥ شعبان سنة ١٣١٥ فخرنا في تسميته واشترينا خادمه لوالدته وطلب منى
صديقى مصطفى الطاهر مبلغاً يسمى به ابنه عمر الذى وضع في شعبان أيضاً
فدفعت له ما كان عندي من النقدية وهو ريات قليلة تصبرت وكيف يصبر
رب عائلة كهذه فقدت مؤنتها • فحاورتنى نفسى أن أطرق أصحابى يسلفوننى
فبدأت بأبناء عمى ضيفانى فتنكروا لى وبعضهم رحل من بيتى ، فتصاغر عند
ذلك كبريائى وتنازلت عنه وقلت :

ذا المال لا تغترر فالمال غرار
الناس بالناس والمحتال مختار
كم للضرورة أحوال تبيحك ما
قد تقشعر لذكراه وتحتار
قد كنت أزعم انى لا يزغزغنى
عسر ويسر لدى الحالين صبار
لكن طفلاً وشيياً عز صبرهما
الطفل يبكى وصرح الشيب ينهار
زعمت الا أقوم الدهر من أحد
ببابه صاغراً ان حل اعسار
لما اقتحمت من اللأواء لجتها
قد صار عزمى وعزم القول طوار
وصار كل حبيب كنت آمله
لكربتى شامتا للعرف نكار
فصار يقتادنى ذل الطميع الى
بيت اللئيم وما للجود ديار
حتى لجأت الى من ليس يهملنى
فاسبل الستر ان الله ستار

أنا في هذه الحيرة جاءني موسى يعقوب من أصدقائي ولكنه لبخله لم
أطرق بابه جاءني كلفني أمشي معه لرفاعة قائلا ان ابن عمكم مختار العامل
بلغني انه سيقلع مطاميري فاعتذرت له لعدم وجود غلال بمنزلي ولا يمكنني
أترك عائلتي بهذا الحال وأسافر فسلفني أردب أقسمه لهم وأقوم معه فرأيت
ذلك من فضل الله الذي سخره لي وكان مختار قال لموسى يا موسى اني كنت
مشتاقا لزيارة بابكر لي برفاعه فلما رأيته معك تمنيت انه لم يأتني • انت يا موسى
سمين وأبيض كنت أظنك من البساريين (مواليد بالهلالية كبيرى الأجسام)
ثم قال له كنت عازما أن أقلع مطاميرك وانت تنظرها فلا يقيد لك أكثر من نصفها
والباقي يكون خشم وسوق وعلائق وحق الفعلاء والخفراء ولكن عندك بخت
حيث جاء معك بابكر وأعطاني مختار ست أرادب قلت لموسى استلم أردب
سلفتك هنا وأنا أعطيك أجرته فقال لا واذا غرقت المركب ورفض بتاتا أنزلت
أرادبي معه وقلت له سلمها والدي وتأخرت مع مختار الذي أخذني معه
بمروره لضواحي رفاعه ووجدته آخذا الشيخ ابراهيم مدني نديما لأنه
ظريف وعالم •

لما وصلنا معه حلة الطنضب وجدنا كبار الشكرية هناك في انتظار مختار
وهم المشايخ محمد عوض الكريم عبد الله عوض الكريم على الهد حسان
أبو سن •

جلس مختار على مقلوبة عليها فروة وجلسنا مع أولاد أبو سن • دخل
علينا مختار ولد الحسين ومحمد ولد شوش ومحمد ولد أحمد وكلهم من
أقارب عبد الله سعد فدارت بالمجلس سيرة عبد الله سعد بمناسبة حضور
محمد شوش من المتمة فقال على الهد عبد الله ولد سعد شنو الاضيئة وفضح
بنات عمه فغضب مختار حتى ورمت أنفه وصبت دموعه ثم التفت على ولد الهد
وقال له يا على ، عبد الله ولد سعد ما قال طلبت مني أشياء أنا لا أسلم بها حتى
أموت تجرى بعدي وفعلا وقف دونها حتى مات ما عليه في ذلك عيب انما العيب
على الناس الذين قالوا نحن ننشف في المكان الذي مطرنا فيه وما نقذوا ما قالوا
ماتوا والقيود بأرجلهم فالتفت اليه محمد أخوه وقال له (شن من بلاده ده يا على
الزول يقوله كلاما يندم عليه وينبذ فيه) فخرج محمد ولد شوش وطلبني

وقال لى أنا كنت سمعت بأن مختار زاره أحد أولاد عمه المقربين عنده وجئت لك بمختار ومحمد ولد أحمد كشاهدين ليرجع لى مختار غلالى الذى قلعه وسفره لمنزله بأم درمان وان لم يرجعه لى اشتكيتيه ولكن الآن أرجوك أن تقول له قال لك عمك محمد ولد شوش كلام على ولد الهد الذى رديت عليه وأخجلته به فى المجلس يقصدنى به وقلت له انت كلاما أنا لا أستطيع أقوله له فى هذا الوقت أخبره انى قد عفيت لك غلالى لا تسأل عنه فى الدنيا ولا فى الآخرة وعلى الطلاق اذا بقى لى شىء فى خيلى لأهديت لك أفضلها واذا كنت فى حالى فى المكانة والميسرة لكنت أزوجك ابنتى نظير هذا الكلام والسلام • دخلت على مختار وقبل أن أخبره جاء الغداء فقال له الشيخ محمد أبو سن : تفضل يا العامل فنهض قائما وقال أنا آكل عندكم؟! آكل السم اذا ونادى شدوا زواملنا فشدونا ومشينا لعد الحاج نزلنا بمنزل مختار الحسين الذى تركناه معهم فذبخوا لنا خروفا تغدينا وتعشيننا منه فطلب مختار وكيله المأمون طه وقال له : انت قلعت غلال محمد شوش ففى هذا الليل تفتح مطايره وتملأها من غلال السكرية وتدفنها القصابى قصابى والفيتريته فيتريته وتاتنى غدا العصر برفاعه تخبرنى بانك نفذت امرى تماما فنفضه •

كان لعمى مالك رحل مرمر مخبئه بمنزل محمد اليمنى بالسوق فركبت وبحثت عن عمى مالك لأخبره فوجدته بمنزل عبد القادر محمد ولد الأمين كاتب الامير يعقوب فاخبرته وركبت معه فوضح لى من كلامه انه ربما يتهمنى فحلفت له حتى وثق من براءتى فأشرت عليه بأنا نمضى لمحمد أحمد كاتب الشونه لأننا نعرفه فنرشييه ونأخذ من كل عدله نصفها فأبى وقال ان ابراهيم رمضان امين بيت المال صاحبه وكان جاره قبل ترحيله من السور وهو يمشى له المغرب بمفرده ويعمل معه الترتيب فوافقته على ذلك ولكن سرعان ما غير فكره ومشى للشيخ محمد عمر البنا فوسطه لابراهيم رمضان واعطاه له خمسين ريالا فابراهيم رمضان غضب جدا فلما قابل عمى مالك الشيخ البنا قال له قابل ابراهيم رمضان بيت المال غدا فما شككنا انه اتفق معه على شىء يريحنا فلما قابلنا ابراهيم رمضان ما كان منه الا أن طلب سرورا السجن وأمره بسجن عمى مالك فقلت له عمى ابراهيم نحن لنا أمل تعطينا بعض البضاعة فقبض بيده من

التراب وقال لى دى ما أعطيكُم اياها فقلت له الأرض نحن نمشى عليها وبنينا بيوتا فوقها وتوجهت لعبد القادر الأمين الذى جاء معى فى الحال وكانت النتيجة من مجيئه أن شاتم ابراهيم رمضان وأغضبه حتى زيدت أغلال عمى مالك فمضيت فى صباح اليوم الثانى للشيخ بأن النقا وكيل راية يعقوب الزرقاء ورافقته فلما قابل ابراهيم رمضان ضحك معه وقال له يا ابراهيم ! مالك صديقك وجارك واعتماده عليك بعد الله تسجنه . . . فضحك ابراهيم رمضان وقال له سجنته لتساهله من العجيب انه وسط لى الشيخ محمد عمر البنا نديم خليفة المهدي وانت تعرفه خفيف اللسان يقول ما يشاء وما لا يشاء قوله فانى خفت ان ينطق عند الخليفة بهذا فاعطب . . . والآن نطلقه لكم قال نعم تطلقه وتعطيه شيئا من بضاعته قال ابراهيم والله ان البضاعة سجلت وبيعت ولكن أعطيه ما تطلبه له من الصمغ فاتفقنا على أن يعطيه صمغا بثلاث قيمة الرحل ويضعف من قيمة الصمغ حتى توازى النصف فعلم بذلك ولكن الشيخ بان النقا رجع قبل أن ينتظر فك أغلال عمى مالك فأحالى ابراهيم رمضان برسول على السجان الذى أقسم لا تحل أغلاله الا بثلاثين ريالاً أرجعناها لعشرين فمشيت الى منزل عمتى أم ابراهيم أخذناها منها وفى الحال أخذ عمى مالك سريره « صافى النية » وركب حماره وخرج من أم درمان التى لم يرجع لها الا بعد أن وصل الجيش الفاتح مدينة السبلوكة .

لما رجعت من رفاة وجدت أمرا صادرا من الحكومة بأن كل من له صمغ بالوكالة التى صارت سكنة للجيش لم يحوله فى ظرف ٤ أيام يصادر وعمى مالك عنده نحو ستين رحلا . أخبرت أم أولاده الكبيرة فأعطتنى وقية ذهب واستلمت من شريكه عبد الرحمن المربوع أردبا سمسما بعث الاثنين ورحلت الصمغ بمنزلى الذى أسكنه بالأجرة لقربه من الوكالة فلما صار الفتح واطمأن الناس جاءنى عمى مالك بمنزلى الذى به الصمغ وبعد الغداء قال لى أنا أطلبك مائة ريال قلت له حقيقة لكن امهلنى حتى أبيع الصمغ هذا وأعطيك اياها فضحك وقال لى والله تعملها يا ظالم قلت له يا عمى مالك الرؤساء للمراكب والعتالة الذين أخرجوه منها والحماره الذين أوصلوه هنا كلهم أنا الذى دفعت لهم الأجرة ويعترفون بذلك والآن هو بمنزلى فقال لى تمام تعملها يا ملعون وضحكنا وركب لأهله . وفى تلك الأيام وصلنا الخبر الأكيد ان صمغنا وما

معه من الريش والنظرون جعل الضعفاء من أهل الزيداب الدين سلموا من الموت وطبعا اختل عندهم الأمن وفسدت الحرف وانتابهم الجوع فجعلوا يبلون الصمغ ويأكلونه والأقوياء منهم يحملونه على الطيفان للدامر أو لبربرليبيعونه ويشترون بثممه الغلال وبعد مدة تبالغ ليوسف خبر الذين يحملونه لبربرفجعل يحتج عليهم وبعضهم يقسمون له أكثرهم يهرب فرجع لنا بعد الفتوح بتسعين جنيها فقط كنت قبل مجيء يوسف طلبت من ابن عمي على صديق الذي اشتري ذهباً من أم درمان ليخف عليه حملة أن يسلفني إياه ونكتب له ليوسف ببربر يعطيه قيمته فرفض لما سمع أحمد محمد ماحي بك الرباطابي أرسل إلى من نفسه ليعطيني ما أطلب وفعلاً استلفت منه أربع أوقيات وهذا تجمعني معه لحمة الرباطاب في الجملة وعلى صديق ابن عمي وضيقي هو وسريته وبعد هذا استمر ضيفنا دون مبالاة يطالب براحتة إلى أن سافر .

في يوم ما جاءني عمي مالك وقال لي ان ابراهيم باكراوى ومن معه أكلوا منى ألفى ريال أو أربعين ريالاً قوشليا - اذ الريال القوشلى يساوى خمسين ريالاً محليا - بأنهم أمضوني عليها مرتين يطلبني اياها ولد الشقليني وحينما دفعوها له أرسلوه لي فمشيت معه ووقعت عليها مرة ثانية فمشيت لبخيت سليمان وهو أصدقهم والذي بعهدته دفتر حسابهم الأصلى النظيف فقلت له المسألة هذه تكشف قلوبكم خصوصا انت تقل ثقة الناس فيك أطلعني على دفتركم النظيف لأنظره هل عمي مالك في هذين التاريخين أخذ مرتين قال لي امهلني حتى يحضر شركائى فقلت له الأمر لا يحتاج لحضورهم ضحك وقال لي خلصت عمك منا وقد كنت أخبرتهم انك تأتى فستأخذها منا فالأحسن نتركها خذها استلمها وشيلها حمالا أوصلناها لعمي مالك فلما عداها واستلمها قال لي انت حرامى مثلهم لذلك خلصتها منهم ودفعت أنا أجرة الحمال . كانت وردت لي أخيراً ثمانية رحول صمغ من الدويم في مركب دخل عليها بعض الجهادية رموا فيها تنباكا كعادتهم وبحشوا حتى بينوه فضببطت بالمركز ونقل صمغها لبيت المال فأخذت أحاول عمى العوض يترك لي صمغى فلم يقتنع وفي مرة وجدته ومعه عمى على ابراهيم شمو ففى محاولتى لعمى العوض قلت له يا عمى العوض أنظر للرحم بيننا فقال لي أنا رباطابى قلت له ما جنسك قال لي من الجزيرة فتوار قلت له : انت ما سمعت الرباطابى قال لامرأته ناس فتوار مثل البغل مع الحمار

يهنقون ومع الحصان يحننون (يسهل) فضحك عمى على ابراهيم وقال له عليك الرسول يا العوض تعطى با بكر صمغه لأنه صبى طاعم فلم يقتنع أخبرت والدى قال لى اعمل له غداء وأوصلنى اياه فدعوته فأجاب فلما جاء الغداء أخذ عمى العوض قطعة لحم وجعل يمصها مصا لأن أسنانه مخلعة فقلت له ان محمد أبا حجل منذ بدأت سنونه بالقلع حرم اللحم فما أخذ بعدها لحمة ولم يقتنع برد الصمغ وفى يوم جئته فى أول المكتب وجدت معه عمى الأمين أبا سن فجاء الشيخ بان النقا يريد مبلغا كبيرا فلما وجدنى قلت لعمى العوض والله العظيم ربنا اليوم يخلص لى منك صمغى بوجود صاحبى نعمتى سابقا ولاحقا وأخبرتهما خبرى فتوسطا لى عند عمى العوض الذى قال الشيخ بان النقا اذا أردت تعطيه الصمغ فحرر له اذنا بنصف قيمته كمنصرف لك ضمن طلبك فحرر له الوصل فى الحين وكتب لى لمحمد أبى بلل الذى أخذ منى أربعين ريالاً رشوة زيادة عن الأتعاب التى قاسيتها وسلمنى الصمغ بعلامتى المكتوبة على طروده .

عندى فرخ يدعى رزق الله هرب منى وبعد مده وجدته عند تعائشة فديته منهم بنقود فلما أخذته للبيت وجدت بيده داغا وهو حرف ج يوضع بين السبابة والابهام علامة لأنه جهادى وكان عثمان شيخ الدين أكبر أولاد الخليفة عبد الله عينه والده لرد المظالم فأخذت فرخى وكتبت عرضحالا أطلب فيه كتابة شهادة بيدي أو يستبدلونه منى بقيمة أو بغيره أو تستلمونه منى قبل أن أعتبر انى مالك جهادية جئت بركت على ركبتى أمام شيخ الدين بالجامع بين صلاتى الظهر والعصر وعن يمينه الشيخ الطيب هاشم الذى ندب لتعليمه العربية ووجدت أمامه مولد ريف من كردفان يتكلم معه بما يخالف ما باعراضه (طلبه المكتوب) فقلت لصاحب العرضحال كلامك مخالف لعرضحالك خذه ليقرأ لك ووافق بينهما ثم تعال لسيدنا قال شيخ الدين : قل له يا سيدي • ثم تناول عرضحالى من عمتى فلما قراه قال لى انت غير شاكيا ولا مشكوا قلت نعم أخذ العرضحال وقال لى : تعال باكر تجد عرضحالك على أسطى (وهى كلمة تركية) معناها تماما كما تريد • ولكن يا لاسف فانه أصبح معزولا فاحتفظت برفخى حتى سقطت أم درمان وهرب مع من هربوا من رقيقى •

حادثة عجيبة :

في يوم جاءني موسى يعقوب وأخبرني ان مختار محمد العامل محموم فقم معي لنزوره فركبنا فلما وصلناه وجدنا معه ملازمة يعقوب الأمير العظيم على أحمد فضيل وآدم جديد الحريري ودوديه بدوي ودأود الجامعين وأمامهما سموار نحاس أصفر فيه ماء لعمل الشاي وبينما يتحدثون اذ سمعنا صوت الوابور الآتي بنساء المتمة المقتول أو المأسور ولالة أمورهن اذ نهض داود قائما وضرب جبته على ورکه بيده نشطا وقال (بلفظه) كب امشي لخليفة المهدي يديني جعلية أسويها سريه فما أتم كلامه الا نهض مختار المريض رمى ثوبه الذي كان مؤتزا به وقام بسرواله فقط وضرب داود صفعه كادت تلقيه في الأرض وضرب السموار برجله وقال كمان تشرب شاي في بيتي تشرب سما فقال داود يا مختار تضربني قال وأقتلك وهل خليفة المهدي يعمل الجعليات سراري وهل يقدر يعملهن اذا أم درمان ما تقيد نارا • خرج داود مغضبا وخرج بعده موسى يعقوب فزعا وساد المجلس صمتا عميقا ورجع مختار وقد تدرى وصار يبكي فنهض على أحمد فضيل واقفا وقال والله يا مختار خليفة المهدي ما يرضى يجعل الجعليات سراري والله لا يمكن أن يأمر بذلك ها هم مثل هذا يؤجج الفتنة بيننا وبينكم ثم خرجوا فقلت لمختار في مثل هذه الأيام وفي مثل هذه الحالة تعمل مثل هذا العمل وتتكلم مثل هذا الكلام جلس على عنقبيه والتفت الى مغضبا وقال لي أنا عارفك جبان ماذا يريدون أن يعملوا لنا أكثر من ذلك وما قيمة الحياة بهذه الحالة ثم هاضته الحمى فرقد ودعته وانصرفت مستعجلا لأدرك بيت المال فأخرج بتول بنت وند ضبعه بنت أخت عبد الله بك حمزه وأخت السيد الذي بلغني انه قتل في المتمة لعلی أقدم لعمی عبد الله بك يدا وأساهم بواجبي للجعليين المأسورين ولكني لا أزال مشغول البال بما يحصل على مختار سار داود من توه الى الرجل العاقل الحلیم الحکیم الأمير يعقوب متهيجا طبعاً حكى له ما صار من مختار فأرسل الأمير يعقوب في الحال للشيخ بان النقا موسى وقال له : امش الى خليفة المهدي الآن واحكى له ما حصل من ولدكم مختار واعمل فكرك في أن خليفة المهدي يعفو عن نساء المتمة ويسلم كل واحدة منهن معارفها قبل غروب الشمس فسار بان النقا ودخل

الباب وحكى لخليفة المهدي ما قاله مختار كمتبري منه ومخطيء لمختار وقال فاستوى الخليفة جالسا وقال يابان النقا يعقوب عرف هذا الكلام ؟ قال نعم وأرسلني لخليفة المهدي أبلغه اياه قال الخليفة وما رأى يعقوب ؟ قال اضطربت ولكنني خفت ما يعود على من المسؤولية فقلت رأى سيدنا فوق الجميع قال بحده : ماذا قال يعقوب ؟ قلت : يفوض لخليفة المهدي ويرى أن تقسم هذه النسوة لمعارفها قبل غروب الشمس قال امش من ساعتك هذه لبيت المال واعط كل امرأة لمن يعرفها أو تعرفه وشجعوا الناس على دخول بيت المال مختار جزاه الله خيرا قال بان النقا فانتقلب خوفاً وأنا وجبني شجاعة وحزني سرورا ورجعت الى سيدي يعقوب أخبرته فارتاح ارتياحا ظهر في أسارير وجهه ونفذت أمر الخليفة في الحال

قلت اني أردت أن أخرج بتول بنت ولد ضبعه فلما وصلت بيتي صرت أفكر في الطريقة التي تدخلني على النساء ويتردد فكري في انهن مسموح الدخول عليهن أم وضعن في سور مخصوص عليهن خفراء يمنعون الدخول عليهن ثم حزمت أمري ومشيت فوجدت بيت المال مفتوحا فوالله ما وجدت امرأة حرة مطلقا فأحسن فيها بل وجدت الشيخ بان النقا وابراهيم رمضان بجانبه ودلالة بيع الرقيق قائمة فاشتريت خادمين احدهما مرضعة لأرضع فيها ابنتي آمنه الصغيرة لأحجزها من لبن أمها والثانية كانت للقاضي ولد الخضر كما سيجيء ذكرها .

جعل أهل الغرب عصيان عبد الله ولد سعد سببا لاستباحة أموال الجلالة كما يسموننا وهبط علينا كابوس مركب من الخوف والحزن اناسا أنفسهم على انا مؤسسوا دولة المهدي فجزءوا علينا وخضعنا لهم حتى في مدينة أم درمان استدل على ذلك بثلاث حوادث حدثت لي نفسي !

الأولى قصدنا السوق أنا والمنصور أبو كوع راكبان حمارينا وفرخانا يجريان وراءنا وكل منا رابط تركاشه في سرج حماره يضربه في ظهره كالأمير فلقينا عند مقابر الشهداء الشماليين عبد الله تابع السنوسي أخ خليفة المهدي ومعه اثنان راكبان وواحد راجل من السود فلما التقينا نهرني أن أنزل فنزلت فأركبوا الرجل الاسود حماري ومضوا في طريقهم فجلست وتبعهم المنصور

بحماره وفرخه وجلست فى انتظار رجوع حمارى مع المنصور وفرخه فاذا
المنصور ولا حمار معه فقال لى سألونى عنك فقلت هو فى انتظار حماره فقال
عبد الله اذهب اليه وآتنى به ولد الكلب الجلابى ما يمنعه من الجرى وراءنا
حتى نصل ونسلمه حماره فمضيت مع المنصور راكبا خلفه الى فريق فور حيث
وجدتهم فى ظل حوش عبد اللطيف التاجر النوراوى * أخذوا منى عماتى
وكرابتنى وسيفى وأجلسونى فى الشمس وكان النهار حارا جدا وللحظ وجدت
عندهم قضية بين رجل اسكافى من المواليد المصريين وزوجته قريبة عبد الله
فجعلت أدحض حجة الزوج مؤيدا حجة الزوجة وكلما رأيت من سيدنا عبد الله
ارتياحا ندفاعى أدنو من الظل حتى انتهت القضية التفت على وقال لى الجلابى
ود البقس (لم أعرف معناها) مالك لا تجرى وراءنا ألا تجرى وراء العبيد
فقلت انت يا سيدى ما قلت لى اجرى ولو قلت لفعلت * قال اعطوه عمتيه
وكرابته وحماره فركبنا معهم على غير طريق السوق بحكم الرهبة فاذا الطريق
يمر بباب منزلى قلت له يا سيدى هذا منزلى ألا تشرفونا بشرب الشاى عندنا
وغرضى التعرف به قال دى وى بشرب دخلنا وعملنا لهم قراصة قمح بسمن
وسكر وشربنا الشاى فرأى البراد جميلا فقال لأحد من معه أدخل البراد هذا
فى مخلايتك ولم يطلبه منى كأنما اشتراه من دكانى ودفع لى الثمن ولم أظهر
أى حركة حتى ولا العجب بل شكرته بأنه شرفنى بأخذه ولكنه نفعنى ومن معى
فى حادثتنا مع الأمير يعقوب كما سيأتى :

الحادثة الثانية ركبنا أنا والمنصور أيضا من بيت المال (ورشة الصناعة
الآن) بطريق الشاطىء قاصدين الموردة ولسوء الحظ صادف سيرنا مجيء
أهل الغرب لصرف الغلال من شونة حبيب (بجنوب الفنتاز) فالتقينا بطائفة
منهم راجعون وهم راحلون فاصدمت بامرأة منهم اصطدامة أشك فى أن جبتى
لمستها أم لا فاذا هى تقع ميتة فبهتنا وانحلت قوانا واستسلمنا لما يعمل بنا فاذا
هم بدلا مما يكتفونا كقاتلين للقود أخذوا يفتشون جيوبنا فوجدوا عندى نحو
أربعين ريالاً وعند صاحبى خمسة عشر ريالاً فلما استلموها ركلها أحدهم برجله
هى قومية فاستوت قائمة فحمدت الله حيث قدر ولطف فمشوا فى طريقهم
وركبنا فى طريقنا فما أحد منا ضحك ولا جرى ذكر الحادثة على لسانه حتى

انقطعوا من مقابلتنا ولما وصلنا الموردة حكيما لمن قابلونا بها فأخبرونا انها
تكررت عليهم حتى ألفوها •

والحادثة الثالثة هي أن سكان السور (الملازمة) اتخذوا في الآخر عادة
لاكتساب النقود من الجلابة وهي يخرج بعضهم فيلاقي رأس الرقيق فيغريه اذا
كانت أمة بزواجها واذا كانت عبدا بتحريره من الرق بادخاله الجهادية وقد
تصح الثانية ولكن الأولى لا تحصل للأمة فبعد ادخال المغرى للسور يمكث
المغرى أيلما ثم يأتي لسيد المغرى ويصف له رقيقه ويتفق معه على مبلغ يقارب
من ثلث قيمة الموصوف فيستلمه منه ويحضر له رأس رقيقه ففى يوم كنت أنا
وعمى مالك مع محمد أحمد حاج الامام بدھليز باب دائرة حوشه اذا جاءه
جهاديان وصفا له آدميه ابقه منه فطلبا منه ثمانين ريالا مقبولا (ريالين قوشلى)
فأعطاهما اياها وبعد يومين جاء بها وكان لعمى مالك آدميه فوراويه تدعى
فاطمة بيضاء اللون سأل منها الجهاديين ووصفها ليهما وبعد يومين جاءا وطلبا
منه ثلاثين ريالا فقال لهما أنا آخذ الثلاثين ريالا وأمشى معكما
تسلماني الآدمية وأسلمكما الثلاثين ريالا فرضيا وركبنا حمارينا أنا وعمى مالك
ومشينا معهما حيث وقفنا قبالة باب السور الضيق الشمالى ودخلا السور بأمل
أنهما يأتیان بفاطمة ويأخذان النقود فاذا بهما ومعهما أربعة من الجهادية أمسك
كل واحد منا ثلاثة وفتشوا جيوبنا وأخذوا ما فيها وسلبوا عمتينا وكرابتينا
وسيوفنا ولو كان باب السور يدخل الحمار لأخذوا حمارينا فرجعنا ونحن
نحوقل ونسخط - وما يشبه هذا ان الشيخ عبد اللطيف وقيع الله عنده عبد
يدعى على مولد عنده فختنه مع أولاده • وأرقده على عنقريب ساج عظيم
القيمة فلما كانت سنة ٣١٥ وبلغ عمره العشرين سنة هرب منه ودخل الجهادية
ففى بعض الأيام أرسل لى عبد اللطيف الذى كان جارنا أحد أولاده فلما
وصلت بيته وجدت عبده على هنا ومعه أربعة من الملازمين السود يطلب أخذ
والدته والعنقريب الساج الذى ختن عليه فقلت لعلى أما العنقريب فلك الحق
فى أخذه حيث انه أرقدك عليه فى ختارك اما امك فالشرع لا يسلمك اياها الا
اذا دفعت قيمتها فأخذ العنقريب ووعد سيده بدفع قيمة والدته فلما خرجوا

قال لى الشيخ عبد اللطيف بماذا أحللت له أخذ العنقريب ؟ قلت : بتغفيلك فى اكرامك للعبد اما سمعت قول الشاعر :

ثلاثه اكرامهم اهانہ الرق والنساء والصبيان

فضحكنا رغم سخطنا وافترقنا • أنا كنت فى السوق فمر علينا عبد حاملا مصحفا خطه من أجمل خط النسخ وتاريخ كتابته سنة ١١٩٢ هـ قبل مائة سنة واثنين وعشرين اشتريته منه بستة رياللات قوشلى يعنى جنيه مصرى تقريبا • (ستأتى لهذا المصحف قصة)

قلت تغنى عبد السنوسى بعد قفل السكة التجارية فى سنة ١٣١٤ بلغنا ان الخليفة أراد فتحها ففرحنا نحن التجار فى يوم اجتمعنا نحو ثمانية ركنا حميرنا ذاهبين للمورده لنبحث عن المراكب لترحيل صمغنا وكنا مشغولين بالحديث كيف يصل الصمغ لسواكن والجيش فى بربر وبعدها حتى قربنا من بيت الأمير يعقوب (محل مدرسة الأحفاد الآن) فاذا الأمير يعقوب بالشارع ووراءه جملة أنصار ومن بينهم عبد السنوسى فلما رآنى انطلق نحوى وقال سيدى يعقوب يا بابكر فاذا نحن قبالة وجهه نزلنا من حميرنا التى مرت أمامه واصطفنا صفا واحدا حيث التفت علينا الرجل العظيم بما أبدل خوفنا امنا وحزننا سرورا وقال لنا السلام عليكم أنت طيبون وعيالكم وتجاركم التجار ركن من أركان المهديّة (الدولة) وفى كل سؤال نستبق بنعم يا سيدى كل هذا وهو واقف وقد أشار لمن يسك حميرنا ثم قال امشوا بارك الله فيكم وأشار بأن نمر أمامه فلما توقفنا قال امشوا الأدب فى المطاوعة فمشينا ونحن نلهج بمدحه والدعاء له •

أتانى يوما أحد المخنثين طلب منى حبات قرنفل قال انه يشرب بها ماء ممن يجلبنه الأدميات فعبست فى وجهه وقلت له القرنفل معروض لتبيع فولى ووجد صديقى مختار بن محمد سليمان بدكان أحد الشوافعه فقال لمختار صاحبك الذى فى دكان بسيونى الله يخيبه قال له ماذا أقول لك ان قلت لك الله يخيبك أنت فقد خيبك الله مالك وصاحبى قال شحنت منه حبات قرنفل أشرب بها ماء كشر فى وجهى وقال لى القرنفل للبيع فقال له مختار والله لو أعطاك حبة قرنفل واحدة كنت أترك صحبتته قال المخنث لمختارها أنت تعطنى ما أطلب منك قال

مختار نعم ولكن تخسرنا الاثنين قال المخنث لمختار ليصبر والله لا ذمنه في كل مجلس فضحك مختار وقال له هو لا يبالي لذلك لأن مثلك ذمه مدح في الحقيقة قال المتنبى :

إذا أتتك مذمتى من ناقص فهي الشهادة لى بأنى كامل

ثم أتانا مختار وقال لى لماذا لا تعطى المخنث حبات قرنفل فتلجم بها لسانه ضحكت وقلت له جاءك قال نعم وقص على كل ما جرى بينهما فقلت له انى ما بخلت بالحبات لكنى بخلت بما هو آت فضحك وقال هذا بيت شعر ما هو الذى تبخل به قلت له يا صديقى انت تعرف المخنثين ورغبتهم بل سرعتهم فى الاتصال بالنساء فى بيوتهن وما يقولون عنهن فانى خفت أن أعطيه هذه الحبات أو أبش له فيأتى مرة أخرى فيجلس على هذا الكرسي ثم يزورنى فى البيت ثم يتردد على البيت فى حضورى وغيبتي فيعرف أسماء وذوات زوجاتي واخواتي وفى أثناء ذلك يترقى فى طلباته بقدر صلاته فمتى امتنعنا من اعطائه ما يجب لبخل أو عذر قال عن عائلتي ما شاء له عرضه ولسانه فرأيت أن أعمل بالمثل الحكيم « الباب البجيك منه الريح سده واستريح » فقبل راسى وشكرنى وقال ليتنى عرفت هذا قبل أن أعرف هذا الخبيث .

فى يوم ما جئت من السوق ووجدت بعض عفش منزل زوجتى حفصه فى حوش الديوان البرانى فسألت مريم والدتها عن سبب خروجه . فقالت لى : أبوك طلقنا قلت لها (رغما عن رغبتى الأكيدة فى زوجتى خصوصا بحجرها التوأمان أول أولادى على صغرهما) اذا كان والدى لا يرضى ببقاء ابنتك معى فان كلامه يمضى على فأخبرت هى ابنتها زوجتى بذلك وشاع الخبر حتى وصل السهوه أختى أما أنا فمما يدل على تنفيذى كلام والدى أخذت كتابا أقرأ فيه ونسيت كل ما قيل لى وما فعلته حتى دخلت على السهوه أختى وقالت لى أنت تقرأ فى كتابك والنسوان تqlن عفشن كله قلت لها ان فى امكانى أن أتزوج امرأة أخرى وأن ألد أولادا ولكن ليس فى امكانى أن أشتري والدا أبدا فلذا أكرر لك ان لم يرض أبى ببقائها بمنزلنا فان كلامه يمضى بلا شك فذهبت لهن وأكدت لهن ذلك وذهبت السهوه لأبى سألته عن السبب وأخبرته بكلامى فقال لها اذا كانت ترغب فى بقائها مع زوجها تأتي لى هنا وتقول لى ولدك عديل فتوجهت لها السهوه ورجعت لوالدى

وقالت له ان حفصه قالت ولدك عدیل قال لها ربی يأخذنی (قسم یعتاده) ان لم تأت عندی هنا وتقول لی ولدك عدیل ما أرجع عن قولی فرجعت لحفصه وأتت بها عند أبی وأسمعتہ ولدك عدیل فقال لها ارجعی لبيتك أنا عفوت عنك وبابكر لا یقدر یسألك عن هذا الكلام أبدا فما سألتها عنه الی الیوم .

دخلت سنة ١٣١٦ بعد أن سبقها من الحوادث الحریة والسیاسیة ما زعزع اعتقاد المعتقدين الا من عصم الله قلبه وقلیل ما هم فمن الحریات سقوط كسلا یوم ٧ ربیع آخر سنة ١٣١٢ وسقوط دنقلا فی ١٥ ربیع ثانى سنة ١٣١٤ وواقعة المئمة وسائر الجعلیین فی غرة صفر سنة ١٣١٥ وسقوط أبی حمد فی ٨ ربیع أول سنة ١٣١٥ وجلاء أبی الخلیل من السلطات فی ٧ ربیع أول سنة ١٣١٥ وقیام الزاکی عثمان من بربر فی ٢٥ ربیع أول سنة ١٣١٥ ودخول هنتر باشا بربر فی غرة ربیع ثانى ووصول السكة حیدأ باحمد یوم ٧ جمادى سنة ١٣١٥ واحتلال شندی یوم ٢٩ شوال سنة ١٣١٥ وأكبر من كل هذا انكسار جيش الأمير محمود ببلدة النخيلة بنهر أتره یوم الجمعة ١٣ العقدة سنة ١٣١٥ اما السیاسیات فمن أهمها تغییر أهل الجزيرة وعكس اعتقادهم بمعاملة أحمد السنی التى أولها سنة ١٣١١ حیث يأخذ الغلال للباب من محل وجوده لا یقسم على أهل الحلة بالراءوس ولا یتفاضل الموجود (بالغنى) واطلاق ید عماله وجهادیه بحیث تفتح المظمورة فیؤخذ ثلثاها للباب وثلثها لهم ناهیک بالشفاعة أى أهل الغرب والجهادیة الذین یسرون فی الجزيرة فیسلبون ما أرادوا سلبه ثم كانت الخاتمة واقعة الجعلیین .

بعد انكسار جيش محمود أخذ خليفة المهدی یفكر جدیا فی الدفاع فجعل شیخ الدین رئیساً للملازمة وابراهيم الخلیل على جهادیة الكاره وعین عبد الوکیل بشیر أمام الجيش المحارب لنا الذى قام من ولد حامد غربا ومن الرویان شرقا وكلما قاموا یقوم أمامهم حتى قربوا من كررى جاء بخبرهم فطلب الخلیفة من محمد البصیر وعبد الله عوض الکریم أبی سن والعباس العبید وولد الکریل وغيرهم من الأمراء وأمرهم أن یذهبوا لذویهم فینفروا الرجال المستحقین للجهاد ولا یسمحوا لأحدهم باحضار عائلة ولو خادمة أو سرية فوجدوا هذه فرصة بین أهلیهم فی التنفیر ما بین المد والجذر بمعنی أنهم یرسلون الناس یصلون الشرق ویقیمون آیاما ثم یتسللون راجعین حینما یصل غیرهم

لحفظ المكان فلما جاء جيش الحكومة والجعليون المحاربون لم يوجد منهم من يقاومهم فابحث أيها القارىء عن سبب هذا الانقلاب وأهل الجزيرة كانوا عضوا مهما في نصرته المهدية في فتح الخرطوم وفي الثغور اما سمعت قول الشيخ الحسين ولد الزهراء فيهم في موقعة القلابات حينما أنزل الحبشة عليها واصفا لهم بقومى :

ان قومى خفيف حديدتهم أحدث عن قومى بكل العجائب
أكارم وافوا شاهد الحق واقضا ليشهد فانقضوا انقضاض الكواكب

مما يدل على عدم ارتياحهم للجهاد هذه المرة انه لما أمر الخليفة الشيخ عبد الله عوض الكريم أبو سن بالسفر لتنفيذ قبيلة الشكرية كان معه عمه الحار دلو فأرسل الشيخ عبد الله من يشتري له بطانية من سوق أم درمان وتأخر الرسول قليلا فاستحته الحار دلو على الخروج وترك الرسول وبطانيته بقوله يا شيخ العرب (نحن نكتل في بطانية) الزول هذا اذا غير رأيه نحن ما كتلنا اركب يا شيخ العرب وامرنا ما دام لقيت لك سبيب (تصفير سبب) فركبوا وتركوا البطانية وأرسلوا لها هل ترى أيها القارىء مثل هؤلاء لهم روح معنوية تدفعهم للرجوع ليموتوا وعلى من تقع تبعة هذا التحول من الاخلاص الممزوج بالاندفاع الى الحيلة الممزوجة بالانهلاع اليك هذه القصة •

زارنا مرة الأمير دقرشاوى أبو حجل وسليمان أخوه ورجب الملك عوض الله وكان الأخير من ملازمة الخليفة عبد الله المتطرفين فقال في حديثه انه سمع من فم خليفة المهدي الشريف الترك يصلون كررى يوم ١٦ ربيع آخر ونحن تقتلهم في كررى ونرجع نصلى الجمعة في الجامع فرفعت يدي الى أذني علامة لتكذيب ما قيل كما يفعلها الصبيان فقال لى رجب يا بابكر كذاب أنا أم خليفة المهدي وقبل أن أرد عليه في هذا الموطن الخشن الدقيق (طبعاً يكون ردى كذاب أنت) فرد عليه الأمير دقرشاوى بقوله والله يا رجب كلنا في قلبنا كلام بابكر هذا ولكنه سبقنا بالنطق به كذاب انت خليفة المهدي لا يقول هذا الكلام الذى لا يعلم به الا الله ثم بعد هنيهة قال رجب خليفة المهدي قال ان أصحابه المخلصين لو ترك الواحد منهم فرضاً من الصلاة أن الله لا يسأله عنه • اكراما للخليفة فقال له سليمان والله الخليفة نفسه ان ترك فرضاً يسأل عنه فخرج وقال أتمم منافقون •

جدت فكرة في تلك الأيام وهى ان المهدي عم قال ان الترك يقتلون في كررى وصار الخليفة يسأل باحثا عن سمعوها من المهدي عم ليستأنس بها وقد جاءنا على قوى وسألنا عنها فأجبناه سلبا وذلك قبل أن تحصل واقعة محمود بآتبرا •

كان والدى يقول انى أفكر دائما في جيش الخليفة وجيش الحكومة وأجمع بينهما في كررى وبعد قليل أرى الخليفة وجيشه يقوم ويمشى لأم درمان ادد ادد يجرى أمام جيش الحكومة ما رأيت لهم نصرا أبدا (فقلت في نفسى لو كانت والدتى حية لأمسكته من خده وقالت له : هوى يا دا الرجل الكافر اسكت لا تتمنى للانصار الهزيمة) وقد حصل ما تفرسه فعلا •

قضيت شهور سنة ٣١٦ قبل سقوط أم درمان كما قضيت سنتى ١٣١٤ و ١٣١٥ في التعليم والمطالعة حيث طالعت ديوان ابن الفارض بشرحى البورينى والنايسى وكثيرا من تفسير الكشاف والجزء الأول من حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى والنهرية بالجمل والبرده بالباجورى وكان عندى الزوزنى على المعلقات وما كنت أميل للمطالعة فيه ولا ذنب له الا انه لا يبعث الروح الدينية في نفس الانسان كما يبعثها ابن عباد على حكم ابن عطاء الله الذى ماكنت أترك النظر فيه حتى كدت أحفظ الحكم • لأن النفوس كانت تستعد للموت وكانت الأخبار المروعة تكاد تصم الآذان فلا تطرق مجلسا الا يسألك من به ما الخبر فاذا خلقت لهم خبرا اعتقدوه ونشروه رغم ترجيحهم ان لم يكن تأكيدهم بأنك خلقتهم فمن ذلك وابورات الحكومة كانت تمر على المتمة حينما كان الأمير محمود بها بجيشه بعد أن قتل أهلها وكنت جالسا مع بعض أصدقائى الذين دعوتهم للغداء معى فخرجت منهم لأنظر استعداد الطعام فلما رجعت سألونى هل جاء خبر ؟ ولم يكن بين قيامى منهم ورجوعى اليهم الا بضع دقائق ولم أتعذر سور المنزل • قلت لهم نعم فتسابقوا لسماعه باشتياق قلت جاءت ثلاث وابورات ذاهبة لحلة مدين لتأخذ الغلال منها ف ضربها جماعة محمود كسروا منها واحدة ورجعت الاثنتان لشندى فنقل بعضهم هذا الخبر مع علمه انى خلقتة على طريق الفكاهة ونقله سامعوه منهم على سبيل الحقيقة فلما انتشر بلغنى وقلت لبلغنى ان هذا الخبر قد خلقتة أنا على سبيل الفكاهة فلم يصدقنى ومن أغرب المصادفات انه بعد أسبوع حصل فعلا مصداق هذا الخبر •

أقول هذه الحكاية الآتية وأترك للقارىء تأويلها حسبما يعتقد اما أنا
فمقتنع بولاية قائلها لأنى سمعت منه مباشرة وهى فى الأسبوع الأول من ربيع
الأول سنة ١٣١٢ كنت راكب حمارا متوجها للموردة فى غرض مهم فلما قابلت
بيت الأمانة فى شارع الموردة رأيت مجتمعا على شكل دائرة فلما وصلته وجدت
العريان المجذوب المسمى ابن عوف وسط الدائرة يتحدث مع حركة أشبه
بالرقص فمما سمعته منه قوله القاضى أحمد الراجل مسكه مسكه مسكه رماه
فى البحر غطس غطس مرق مرق ثانى مسكه رماه فى البحر مسكه رماه فى البحر
غطس غطس • الفاتحة لروحه القضاة ده وراده كررها ويرقص فيها ثم قال الله
الله التنباك فى كسلا التنباك فى كسلا (ولم تكن بيد التليان حينذاك) وكان
من ضمن الواقفين الشيخ عبد القادر ولد أم مريوم فلما سمع التنباك فى كسلا
ضرب حماره وأسرع فتبعته خوفا من أن يرانى أحد استمع لمثل هذا وبعد قليل
جاء خبر احتلال الطليان لكسلا على أن هذا الرجل يلبس ازارا ضيقا اذا ستر
صفحة البيت لا يستر الأخرى وفى الغالب ترى عليه العذرة اما القاضى أحمد
على قاضى القضاة فقد وشى به للخليفة فسجنه ثم أطلقه ثم سجنه فى بيت ومنعه
الأكل والشراب حتى مات جوعا وعطشا • ولى القضاء بعده الشيخ سليمان
الحجاز فلم تطل مدته لوفاته ثم ولى بعده الشيخ الحسين الزهراء الذى لم يحد
عن الصراحة فى مسألة دنقلا وعبيد يونس فسجن ومنع الطعام والشراب حتى
مات جوعا وعطشا فتحقق موت القضاة الثلاث ده ورا ده بعد واقعة أتبرا وأسر
الأمير محمود أيقن خليفة المهدي ان الجيش قد قرب وصوله فاسعد لمقابلته
على انه راجت اشاعة ان الخليفة وأخاه يعقوب ومن معهم عازمون على الهجرة
الى كردفان أو دارفور ولكنها عما قليل كذبت وخصوصا بعد أن شرع خليفة
المهدي ببناء أحد عشر طابية فى أم درمان وستة طوابى فى الشرق والخرطوم
وتوتى وفى كل منهما طابيتان ووزع عليها المدافع والطبجية والحرس وجرب
عمل اللغم بواسطة رجل مغربى يدعى منورا كان قد وفق لعمل اللغم فعلا وأخذه
فى مركب يقطرها وابور الاسماعيلية لوضعه فى المكان الذى عين له ولا أعرف
المكان بالضبط • (ولكننا سمعنا صوت انفجاره حينما انفجر وأغرق المركب
والوابور ومن فيهما منور من المغرقين)

سمعنا صوت الانفجار على جهة الدباغين ولم أتذكر تاريخه بالضبط

— محمود على الأحيمر كان محمود على هو الأمين على نقود الأمير يعقوب وكان متزوجا بنت على خاطر الذى لا تحجب عنى عائلته لمصاهرتى لهم فعرفت محمودا واتصلت به فرأيت منه تبذيرا فى نقود الأمير مما يدل على انحلال الادارة من أصلها فكان يعمل ليالى فى المديح النبوى ويجمع فيها كل أنواع المادحين والمقرئين والسامعين مما يكلفه عشاؤهم نحو الخمسين ريالا مجيديا فيحيون الليلة (وكنت معهم فى أكثر الأحيان) الى أن يطلع الفجر فنفترق لنصلى بمنازلنا خوفا من اعلان صوت التكبيرة المتحدة وكنا ننقل من بيت الى آخر فاذا أراد المادحون الانصراف وزع عليهم نحو ثلثمائة ريالا مجيديا فيأخذ الشيخ أحمد أبو شريعته وجماعته مائة ريالا والشيخ ابراهيم كراع النعامة الرجل العالم خمسين ريالا والشيخ على طلبة ومن معه من القراء مائة ريالا وباقى المداح مثل قسم الله واخوانه وغيرهم بواقع عشرة ريالات لكل منهم وصاحب المنزل يرسل اليه الخمسين ريالا مقدما على العشاء ويأخذ الباقي لنفسه اذا اقتصد فأرسل لى فى يوم ما خمسين ريالا لتكون الحفلة فى منزلى فرددتها له وعملت الحفلة على حسابى الخاص وبعد ذلك اليوم لم يطلب منى عمل حفلة بمنزلى ، هذا الرجل الذى كان هذا حاله من البذل فشل فى اتخاذ وظيفة له فى هذه الحكومة كما أخبرنى عندما زارنى برفاعه سنة ١٩٠٨ مستجديا بأن سبب حرمانه أنه أهان سلاطين باشا يوما فى المهديّة حينما جاءه طالبا منه نقودا . هذه حالة الدنيا بخصوصه ودليل انحلال ادارة المهديّة المالية .

بعد عقد نية خليفة المهدي على الدفاع ارتفع سعر الذرة ارتفاعا سريعا حتى بلغ ستة وثلاثين ريالا مجيديا لأن أهل العوائل الكبيرة تنافسوا فى مشترى مؤوتتهم سنة لخوفهم من الحصاد أما أنا ومن معى فلم نشتر الا ما يلزمنا للشهر على الأكثر وفى الآخر صرنا نشترى ما يلزمنا فى اليوم لاختفاء الذره من السوق حتى وانى اضطرت لتكليف موسى يعقوب أن يبيع لى ثلاثة أرادب سلفا بمائة وثمانية ريالات ولعمى مالك وهو غائب اردب بهذه القيمة وذلك يوم الاثنين ثلاثين اّغسطس سنة ١٨٩٨ أى قبل سقوط أم درمان بأربعة أيام .

وفي يوم الثلاثاء الذي هو ميعاد الاستلام أنا وهو تتغدى بمنزلي سمعنا أن الوابورات وصلت أطراف أم درمان البحرية ورجعت وموسى أسرع لمنزله وبقيت بمنزلي وفي عصر يوم الأربعاء خرجت مع من خرج لكررى ولم أستلم الغلال ولا بعضه ودفعت قيمته لموسى، بعد سقوط أم درمان، بواقع الأردب ستة ريالات ودفعت له الباقي وهو تسعون ريالاً مع قيمة أردب عمى مالك برفاعه واستلمت منه سند عمى مالك بخطه .

قلت لما صمم خليفة المهدي على الدفاع صار الناس وأنا منهم يفتكرون فيما يؤول اليه حالهم اذا حوصرت أم درمان أو تغلب جيش الحكومة على الخليفة وخرج من أم درمان وأخذ الناس بعوائلهم خصوصاً من ذاقوا أتعاب الهجرة مثلنا في جيش ولد النجومى وفي بعض الليالى أعملت فكرى وكددته فيما ينجينا من الحصار أو الهجرة جرى على لسانى تخميس لبيتى ابن عطاء الله اللذين أولهما لا تدبر لك أمرا وهاك التخميس : -

أيها ألمبلوا صبرا	لا تضق للكرب صدرا
لم تحط بالغيب خبرا	لا تدبر لك أمرا
فأولى التدبير هلكى	وأرض كلا ما أردنا
واستفد مما أفدنا	لنوائب ان تردنا
سلم الأمر تجدنا	نحن أولى بك منكنا

فاطمأن قلبى وسلمت الأمر لربى ثم جاءنا الخبر الأكيد بضياح صمغنا وما معه من أموال الناس الذين كانوا بيربر ولهم عوائل بأم درمان ، جاءوا ليحضروا الموقعة معهم فلقينى عمى النور ابراهيم الجريفاوى وقال لى : أظنك غير حارص على اخراج الزكاة ولذلك أضاع الله مالك . فقلت له أنا مانى محمد لله جميلة فى الزكاة . فقال أعوذ بالله من جراءتك على الله والحقيقة انى أخرج الزكاة بدقة وتحقيق واحتياط بشىء عليها لعلى أكون ناسيا ديننا مرجو الدفع يستحق اخراج الزكاة عليه . وبعد مفارقتى لعمى النور تأملت مما سمعت منه لعل فيه روح الشماتة فقلت هذه الأبيات : -

كلومى أراها من كلامى غالبا	وقد تأتى أحيانا بغير تكلمى
فما كان من قولى أملت لمسه	وما كان من ربى فليس بمؤلم
ولكن أرانى صابرا عند خطبها	وذاك بفضل الله لا بتحزم

فى يوم ما وأنا لم يكن بيدى غير اثنين وعشرين ريالاً أفكر فى أن أشتري بها غلالاً وأتركها لغيره مما يلزم ، اذ دخل على المشايخ البلال الأسيده وعبد الرحمن منصور والنور عبد الحفيظ ، وبعد شرايهم الشاى قال البلال جئناك نطلب منك تسليف عمك النور عبد الحفيظ ثلاثين ريالاً لاضطراره لها . فقلت والله لا أملك غير هذه الاثنين والعشرين ريالاً فدخلت وجئته بأساور وحجول بنية لى توفيت ، فأخذوها ومضوا شاكرين ، فبكيت لعدمهم لأن البلال الأسيده هو الرجل الكريم ائبازل وعبد الرحمن منصور الذى كان بالأمس أغنى تاجر سودانى بتجارته العظيمة ، والنور عبد الحفيظ المملوء البيت بمهاجرى أهله من المئمة تصل بهم الحالة الى هذا الحد . بكيت أسفا على ما أصاب الناس من الشدة التى عمت العظيم والحقير .

من ضمن استعداد الخليفة للدفاع أرسل الخليفة لأحمد فضيل ليحضر بجيشه ليحافظ على شرق النيل بأم درمان لئلا يحتلها جيش الحكومة قبله فلما وصل رفاعة بلغه احتلال الحكومة أم درمان وفى اليوم الثانى وصلت وابورات الحكومة فقابلها أهالى رفاعة بالترحيب والزغاريد ظنا منهم أن الوابورات جاءت لتطرد جيش أحمد فضيل فاذا هى تمر فى طريقها لمدنى فسنجة وانفرد أحمد فضيل وجيشه الذى كان برفاعة نهبا وسلبا حتى ملابسهم التى على أجسادهم سلبت منهم ، وسيقوا أمام الجيش نساء ورجالا وأطفالا حتى خرجوا من البلد وهناك ظهرت حيلة الشيخ عبد الله عوض الكريم أبو سن الذى أظهر له الحزن على احتلال الحكومة النصرانية لبقعة المهدي عم والعزم الأكيد على صحبته حتى يصلوا الى خليفة المهدي ، فلما باتوا بحلة بانة وهى أقرب حلة من رفاعة قال لأحمد فضيل لا فائدة لنا فى النساء والأطفال فالأفضل أن ترجعهن الى رفاعة فوافقه فرجعت العائلات ، فلما بلغوا الرحلة التى بعدها قال له نحن الآن قادمون على مفازة ، وهؤلاء الشيب والضعفاء يشاركوننا فى الماء والطعام واذا قابلنا العدو ربما يهزمون منه فيحلون عزم الجيش فالأحسن ترجعهم فوافقه وبقي معه الرقيق والشبان والأقوياء فبث فيهم روح الرجولة بواسطة من يأمنه على حفظ سره فلما وصلوا قرب المغازة وجد أن أكثر الناس رجعوا تعشى مع أحمد فضيل كعادته وكان قد نبه على جماعة بأسراج الجمال واعدادها للهرب ، فلما علم أن الأمير قد نام وحرسه تفرق منه ركب جماله وتوجه لمدنى

بجزيرة الرهد والدندر • فلما أحسوا بهروبه عند صلاة الصبح طردوه بخيلهم •
فلما عدا النيل رأى خيل أحمد فضيل في طرده وقفت على شاطئه الشرقي
وضربوهم بالرصاص ورجعوا •

موقعة كررى :

خرجت من منزلى يوم الأربعاء آخر أغسطس سنة ١٨٩٨ حاملا جلاس ،
وبعد أن فرغت من الدرس سمعنا أم بايا والنحاس يضربان وبالسؤال علمنا ان
خليفة المهدي خارج لكررى ، فسلمت غلامى الصغير جلاسى يرجعه للمنزل
وخرجت توا بأمل ان الخليفة يقضى ليلته فى منزل هجرته بمكان العرضة ويذاكر
الناس بأن يستعدوا ثم يرجعون لمنازلهم ليخرجوا يوم الخميس لكررى ولكن
الجيش واصل سيره لخور شمبات حيث بتنا هناك • فلحقنى عداى عبد الله
وجابر بالركوة والفروة وزاد يومين وعدة الشاى الذى لم أترك شرابه رغم ان
رأس السكر بستة رياللات مجيدى وأقة الشاى وصلت ثمانية وعشرين رياللا
مجيديا ، فأصبحنا ليوم الخميس أول سبتمبر بشمبات وعقبنا الوابورات على
أم درمان فضربت طوابى شمبات وتوتى والخرطوم • ونسمع صوت طوابى
أم درمان وغيرها تضرب فيها • وفى نحو الساعة ٤ صباحا عربى سمعنا صوت
سلاح ضرب بجيشنا وبالسؤال عن سببه فهمنا ان احدى الوابورات غرقت
والثانية سلمت وجيء بدفتها للخليفة ف ضرب السلاح بشرى بالنصر وكان معنا
رجل يدعى مجذوب أبا بكر أصله من جماعة عثمان دقنا ووالدته بنت الشيخ
الظاهر المجذوب ويده كرس صار يضرب الأرض بكندابه (زجه) فيغطس
جزء منه فى رملة خور شمبات الممطورة ويقول لنا يا منكرون أنظروا علامة
النصر ونحن سكوت وبعد هنيهة سكت ضرب الوابورات للطوابى فانتفخت
أوداجه فخرا واعتمد القبض عليها ونحن المعنون بسبه كنا عشرة • سليمان
أبى حجل وميكائيل الملك عوض الله وعمر الصادق وعبد القادر الأمين وأحمد
عبد الحميد (كتاب الأمير يعقوب) ومختار محمد العامل وباباكر مصطفى
وبابكر بدرى ومحمد مصطفى • بعد الظهر رجعت الوابورات للضرب فاضمحل
صاحبنا مجذوب من فخره فقلت له الكفره ديل يبعثون قبل الآخرة لعنة الله
عليهم فطأطأ رأسه وبان عليه الخذلان وفى نحو الساعة ٤ مساء بدأ ضرب القنابل

في قبة المهدي عم • فاصطففنا صفا واحدا في طرف الجيش جهة الجنوب الغربي وكانت خيل الراية الزرقاء قبل ذلك بقليل بدأت تقلب أربعا أربعا فكسرت رجل الشيخ بان النقا موسى وكيل الأمير يعقوب في رايته وادارته فأرجع الى منزله فغبطناه وقلنا انه سعيد سلم بباقي جسده • قلت وقفنا صفا ننظر ضرب القبة وكان عند أحمد أفندي عبد الحميد نظارة مقربة تتناوب النظر فيها ففى تلك الساعة مر علينا السيد محمد المهدي راكبا حصانه وتابعه وراءه حامل الركوة فسلم علينا واستمر في سيره فلما رجع ورأى اشتداد الضرب وقف على بعد مائة ياردة منا وجعل ينظرها حتى ظهر منها فتحة عريضة طويلة كر راجعا فسلم علينا بصوت جهور وتبسم لنا ومر في طريقه فلم نره بعد ذلك • عندما ظهر الشق الكبير في القبة بهت الناس وانقطع صوته كما انقطع صهيل الخيل ولم أسمع تكبيرة الاحرام للمغرب ولا أدري أغبري سمعها أم لا • وبعد أن صلينا المغرب في تايئنا تعشينا بالآبري بالماء والدقة وبعد أن صلينا العشاء جاء طلب لأحمد أفندي من الأمير يعقوب ، فلما رجع لنا أخبرنا انه قد كتب أمرا للامير يعقوب أبي زينب الذي تركه خليفة المهدي بأم درمان بأن يمر بعد ثلاث ساعات من شروق الشمس فكل من وجده في بيته ممن لم يخرجوا للجهاد في سبيل الله مع خليفة المهدي يذبحه على باب داره وهذه مكيدة من الخليفة اذ لولاها لكان الكثير من الناس يتسرب تحت الظلام لبيته ، وفي نحو الساعة ١١ مساء جاءنا على كراوش شقيق محمد فضل أمين بيت مال الفاشر وطلب منا نعمل له جينة وأخبرنا انه متوجه للفاشر أوهمنا فيها بأنه بمأمورية فتوجهت لأبشر الياس الذي كان عنده جينة استقرضها منه فلما شربها على كراوش أدخلها وعدتها في الزغو وقال لا يرجعها لصاحبها بوجه ما • وركب جملة وفارقنا وبعد الواقعة علمنا انه متهرب فقط فنجأ وانتظر السلطان على دينار هناك فحطى عنده ، اما ابشر الياس صاحب الجينة فاستشهد في صباح الجمعة بالموقعة •

جاءتنا الأخبار ليلا بصفات ترتيب الجيش من حيث الزمان والمكان ، فمن قائل ان سلاح النار قام فعلا ليهجم على جيش الترك في مكان خدعه ومن قائل ان الخيالة يكونون معه ومن قائل ان شيخ الدين والخليل اختلفا وبسبب اختلافهما بطل هجوم الليل ونحن ما بين مصدق ومكذب حتى أصبحنا فعلمنا ان أهل السلاح النارى توجهوا شمالا الى جبل كررى وان عثمان دقنا

وعثمان أزرق بمن معهما نزلا جهة البحر تحت جبل ضرغام ورأينا فعلا رايات الخليفة على ولد حلو في جهة الشمال الغربي لمكاننا الذي نقلنا اليه نحن أنصار الراية الزرقاء حتى نزلنا واديا ننظر منه جبل ضرغام شرقنا جهة الشمال قليلا فسمعنا نحو الساعة ٧ صباحا دوى السلاح من العدو ومن سلاحنا النارى • وفى نحو الساعة ٨ بدأ المجروحون من جماعة عثمان دقنة يسيرون علينا يحمل المجروح أو يسند بأربعة أشخاص فلا يعترضهم أحد •

ففى تلك الساعة قلت لمن معى اذا جرح منا أحد سأجرح معه من دمه ويحملنا الباقون منا فننجوا ما دام ذلك جائزا • وكان خليفة المهدي بالقرب منا جهة الغرب ومعه حاشيته وأمامهم الملازمة المعروفون بالامدادية جلوسا على نحو عشرين ياردة أمام الخليفة فى نحو الساعة ١١ر٣٠ جاء من أخبر الخليفة باستشهاد ابراهيم الخليل رحمه الله فقال له بصوت سمعناه شيلوا عنقريبى احملوه عليه وادفنوه فى بيته وكان العنقريب محمولا على بغل بجانبنا فأخذوه ورجعوا بطريقهم علينا حاملين جنازة الخليل وبعد قليل جعلونا صفنا والراية الزرقاء أمامنا فرأينا سلاح العدو يلمع ويخفت تبعا لحركاتهم وكنت عارفا ذلك ورأيناهم كالحجارة الصفراء فلما ظهرنا ناد خليفة المهدي بصوت سمعناه ابجكه قم خذ الاخوان دول صدوا أعداء الله ديل . فقام سلاح الامدادية ونحن ننظرهم فتقدموا نحو مائة متر وأكثر بقليل وضربوا بطلق متقطع فرماهم الجيش بطلقة متخذ صوته رن • فلم يرجع ، منهم من مات ومن تماوت ومنهم عمن رجب المذكور كما تقدم • وما زال جيش العدو سائرا علينا ونحن تحت الراية الزرقاء حتى قرب منا وصار يصلنا رصاصه فيمر مصبوبا فوق رؤوسنا، حينذاك قال محمد المهدي الى متى تقف هل تقف الى أن يمسكونا بأيديهم ثم همز حصانه وخلعت الراية وكنت قبل ذلك رأيت لواء رملة بجانبه شجيرات فقلت لمن معى من يصل منا ذلك الرمل يرقد فى دأره •

قلعت الراية وجرينا معها حتى وصلنا الرملة فرقدنا أجمعين فى صف واحد وصرنا ننظر الى الراية وهى تقع فترتفع فتقع فترفع وفى الوقعة الثالثة اشتد علينا رمى الرصاص حولنا فاصدقك انى الذى كنت أتعرض للوابورات ولا أبالى بقاء الجيش والذى كنت هاجرت لفتح حلفا من ضمن تسعة رجال فقط • صرت اليوم أدعك وجهى فى الرملة كأنى اذا دخل رأسى فى الرملة لا أموت

اختناقاً ، ذهلت فى هذه النظرية لشدة خوفى من الموت الذى كنت أتمناه فى مثل هذا الموقف حتى ضرب جارى بابكر مصطفى باليمين فى يده الشمال فأب لى وعى آن ذاك وتذكرت وعدى للجماعة فملصت (خلعت) عمتى من رأسى ولوثتها فى دمه وربطت بها ذراعى الشمال وقلت للجماعة صرنا اثنين مضروبين فقام الجميع من مكمنهم وحمل أربعة منهم واحدا وخرجنا فلما صرنا خارج الوادى جرى كل منا على جهته التى ارادها وبقينا انا ومختار محمد العامل حملت يد المضروب على كتفى ومختار حمل يده السالبة واجتمع معنا سليمان باشرى من الرباطاب وجرينا جهة الغرب وكان جيش من العدو وراءنا فكلما أسرعنا نجد انا تحت وفى سلامه ، فقلت فى تلك الساعة لمختار ممتحنا له ابصق مثلى هكذا ورميت ببصاقى فقال لى فى الحال وفى مثل الساعة الضيقة انت جمعت هذا فابصق غيره فضحكنا فلما رأى المضروب انا مهما جرينا لا نخرج عن دائرة الخطر قال ارخوا لى يدي فان الجرح ألمنى من رفع يدي فلما ارخيها له يده وتخلى عنا جرى اسرع منا فوالله ما صرنا نلحق به ولكنى خطر بيالى ان تتجه بجرينا صوب الجنوب لنقطع مسافة امتداد الجيش للجنوب فننجوا من رصاصه فلما أخبرتهم بذلك ، ملنا بسرعة خاطفة نحو الجنوب وبعد دقائق نجونا ، فلما اطمأن جريحنا جلس على الأرض وقال اموت هنا ولا اتحرك فأتتهره مختار وقال له اذا كنت تريد الموت فمن اوصلك الى هنا ، فقلت انه معذور فلا يصح أن نضيف الى ألمه ألم التوبيخ فضحك مختار والتفتنا غربا فرأينا فرج الله عبد أولاد حاج محمد بحماره الذى يحمل عليه فى السوق بالأجرة أمسك مختار الحمار ليركب المجروح عليه فأبى فرج الله وقال انى منتظر أحمد ومحمد أسيادى وكانا من أصدقائى فقلت لفرج الله انى رأيتهما رجعا وسنجدهما فى بيت عثمان حسن سوار الذهب فصدقنى رغم كذبه عليه وسلمنا الحمار فأركبنا المجروح وتوجهنا ، فلما وصلنا ديم عثمان دقنا رأينا النساء يهدمن بيوتهن البروش ويحملن ما استطعن منهن ويجرين صوب أم درمان فالتفتنا غربا فرأينا خليفة المهدي راكبا حمارا أبيض ومعه جماعة ذاهبين الى أم درمان ولما وصلنا منزل عثمان حسن وجدنا أولاد حاج حمد هناك فعلا فحمدت الله الذى صدقنى وخلصنى من السبه والعداوة التى كانت تلحقنى ، فجلست معهم قليلا • واستأذنتهم فى فرج الله وحماره للجريح يوصله

منزله فسمحا لى جزاهما الله خيرا - بقيت معهم قليلا حتى جاءنا رجل لا أعرفه قال انه من جماعة السيد المكى وكان مع السيد المكى فى مجلسه مع خليفة المهدي - قال السيد مكى عند الخليفة الذى كان يتكلم مسفر الوجه لم يظهر عليه علامة يأس أو خوف حتى جاءه من أخبره ان الأمير يعقوب استشهد فأطرق مليا وجرى عرقه ولم يتكلم بعدها - وأخبرنى الشيخ محمد عمر البنا الذى كان مع خليفة المهدي مثل هذه الرواية وزاد أنه لما قرب منهم العدو قال السيد المكى يا خليفة المهدي ما دمت حيا الدين منصور فلنتحيز من العدو لئلا يتمكنوا من أسرنا وفينا خليفة المهدي ، قال الشيخ محمد عمر البنا لما سمعت كلام السيد المكى ونظرت الخليفة لم ينكره قمت وأمسكت خليفة المهدي من عضده الذى لا يلمس لغيره وأنهضته فتبعنى وخطونا خطوات بأرجلنا ثم لحقنا أحد بحمار أركبنا عليه خليفة المهدي ثم جاء صاحب حصان أركبنا عليه السيد المكى ثم لحقنى عبدى بحمارى فركبته حتى قابلت شارع بيتى فنزلت عليه • حكاية جزع الخليفة على شقيقه الأمير يعقوب اذكرتنى ما حكى عن لقمان الحكيم انه أتى من غيبة لبلده فلقية أحد مواطنيه خارجها فقال له لقمان ما فعل أبى ؟

قال مات

فقال لقمان ملكت أمرى ، ما فعلت أُمى ؟

قال ماتت :

فقال لقمان زال همى ، ما فعلت أختى ؟

قال ماتت :

فقال لقمان سترت عورتى ، ما فعلت زوجتى ؟

قال ماتت :

فقال لقمان جدد فراشى ، ما فعل ابنى ؟

قال مات

فقال لقمان خلقتة من ظهري ، ما فعلت ابنتى ؟

قال ماتت :

فقال لقمان هذا خير اصهارى ، ما فعل أخى ؟

قال مات

فقال لقمان الآن انقصم ظهري •

فان الأمير يعقوب نعم الأخ والوزير الازر لخليفة المهدي رحمه الله رحمة واسعة . فان الأمير يعقوب كان مثال التواضع والاعتدال - قمت من باب عثمان حسن سوار الذهب فمررت على منزل يوسف أخى لأطمئنهم على حياتى وخرجت منهم نحو الساعة ٣ بعد الظهر فوجدت عساكر الأورطة الثالثة عشر جالسين فى شارع الهجرة شمال بيوت الياس أم برير وكنت أعرف الكثير منهم من أصوان سنة ١٣٠٧ هـ و ١٣٠٨ هـ فسألت الذين فى طريقى عن اليوزباشى فرج صدقى . قالوا نقل للأورطة السابعة . فقلت البتجاويش بخيت موافى فمشى معى أحدهم حتى أوصلنى له فلما رآنى عانقنى وقال لى ان هذا العجيب نحن الآن قبل ساعتين أعداء تتحارب والآن أصدقاء تتسالم فقلت له الحمد لله على نعمته . فلما رأى سيفى فى كتفى قال لى أعطنى هذا السيف أحفظه لك ربما يستبيح الجيش المدنية فيضيع مثل هذا السيف . فسلمته إياه ووصلت بيتى القريب وبينما أنا أشرب فى الماء سمعت صوت امبايا يصيح فأطلعت أحد عبيدى ، فطلع على الديوان وقلت له : أنظر الأورطة فى مكانها أو قامت فقال فى مكانها . فقلت أنظر الى جامع المهدي ماذا ترى فيه ؟ قال فيه خيول تجول وعليها فرسانها . فقلت أنظرهم هل هم من الأنصار أم من الترك ؟ فقال من الأنصار بحرابهم . ثم خفت عليه فأمرته بالنزول ونحو الساعة ٥ مساء خرجنا من منازلنا مغربين (جهة الغرب) حتى وصلنا شارع الهجرة ، فرأينا الجيش الانجليزى ماشيا نحو الجامع فتبعناه حتى قربنا من مقابر الشهداء بجوار الاسبتالية رجعنا وبعد قليل سمعنا ان اللورد كتشنر أباح نهب الغلال من كل بيوت الخليفة وكان عندى كثير من الرقيق فمنعتهم أن يأخذوا قيراطا واحدا . فأصبح أردب الغلال من ستة وثلاثين ريالا الى ستة ريالات فهذه أول حسنة من اللورد كتشنر للمساكين الجائعين الذين لو أراد أن يقسم عليهم الغلال كصرفه لمات بعضهم قبل أن يصله نصيبه ، فترى الناس فى تلك الليلة يجولون مابين الشونة الغربية منهم وبين منازلهم وبعضهم مما أعرف حق المعرفة ساعده الحظ حيث كان بعض حواصل الغلال يلتصق بغرفته فكسر غرفته وصار يدخل فيها الغلال بالواسوق والفاس حتى كاد يملؤها ، فأصبح غنيا مما باعه ، ومن هؤلاء بعض الرباطاب المجاورون للشونة الغربية من بيت عباس رحمة الله - وفى تلك الليلة جاء عسكري كان عبدا لابراهيم البك اليعقوبابى ، وقف بالباب وناداه باسمه

فلما خرج عليه رجب به وظنه جاء ليحرسه وأولاده فمد يده ليصافحه ، فما كان من العسكرى الا أن أصابه بطلقة أرداه في الحال قتيلا وتركه يتخبط في دمه ، فخرج أهله وجيرانه فوجدوا العسكرى المعروف عندهم منذ صغره يطؤه على بطنه وهو ميت بجزمته • فرجع الكل مختبئا في كنه خوفا من القتل ومضى العسكرى لحاله •

ومما رأيته بعيني ما يأتي : خرجنا من منزلي أنا ومعى بعض أقاربي الضيوف عندى لنزور محمد ولد ابشر الذى خرج في الموقعة بكررى فلما وصلنا طرف السوق الجنوبي الشرقي رأينا عسكريا سودانيا يقود خدامة خرج بها من السوق بجهة المشانق (شرق البوستان) ورأينا التاجر ابراهيم تميم الأصولي وأظنه سيد الخدامة جاريا عليهما فلما وصلهما أمسك بيد الخدامة ليرجع بها فاذا العسكرى يضع ظرفا في بندقيته ويرميه به فارتفع للهواء وسقط ابراهيم تميم ونحن ننظر اليه على أقرب من مائتى متر وأخذ العسكرى الخدامة ومشى بها وهما يضحكان ضحكا عاليا • وبالسؤال علمنا ان هذه الخدامة كانت سريه لابراهيم تميم وهذا العسكرى أخوها وكانا مولدين بمنزله فمثل هذه من فضائح الفتوحات لجيش منظم تحت حكومة متمدينة اما قتل عوض الكريم كانون بواسطة الميرغنية وقتل أحمد حمزة بواسطة الجعليين فهنا جائز لأنهما محكوم عليهما بالقتل قصاصا أو شبهه وقد رأينا في ثانى يوم الفتوح جنائز مطروحة في طريق الهجرة مجهول قاتلوها ومجهول أهلوها • اما عبدای اللذان كانا معى بالميدان فكانا كغيرهما من أمثالهما واقفين بظهرنا على شفير الوادى فلما اصطفنا امتد الصف شرقا ولما خرجنا من الوادى لم نذكرهما طبعاً لننجو بأنفسنا اما جابر فانه أخذ الركوة (وهى ابريق من جلد) وجرى للبيت اما عبد الله فانه ظل ممسكا بحمارى حتى أسر وغنم الحمار منه فبعد يومين علمت انه ضمن الأسرى بجامع المهدي فأخذت والدته له طعاما فلما أوصلت اليه الطعام قال لها أخرجى وأتركى لى أوانى الطعام لأخرج بها وفعلا خرج بالباب كأنه من الذين أتوا بالطعام لأسير له وجاءنا بالمنزل فهذه حيلة تدل على نباهته وفعلا هو نبيه •

لم أعرف شيئا آخر عن خروج خليفة المهدي من أم درمان غير انى سمعت انه لما أراد الخروج تمهل حتى أرسل لمن يأمل انهم يصحبونه في هجرته كأولاد

هاشمى والشيخ بان النقا والسيد المكى ومدثر الحجاز وغيرهم وقد علمت من أحدهم انه لما طرق رسول الخليفة بابه أرسل اليه أحد أولاده فلما علم ان الطارق رسول خليفة المهدي يطلبه للهجرة معه قال لرسوله أقفل الباب في وجهه ولا تخاطبه على انه كان قبل ذلك حينما يعلم ان الطارق رسول الخليفة يسرع بالاستعداد ويهرول مع الرسول الذى يجرى حتى يصل باب الخليفة فهذا منه يعد عدم وفاء فلو كنت مكانه لقابلت الرسول وحملته سلامى للخليفة ووعدى بلحقه وانى مشغول بالاستعداد للخروج بعائلتى لأن الوقت ضيق وقلت لمحدثى هذا رأى فعلا وغلطته فيما صنع • لا أعلم شيئا أكتبه عن عمل الحكومة العليا فى المهديّة فى أعمالها الرسمية لأنى أصغر ممن يتصلون بها لشغلى بالتجارة فقط وامتناعى عن السياسة •

(انتهى الجزء الأول)



مطبعة مصير (سودان) ليمتد

terdam
I
M
N
O

terdam
I
M
N
O